الأخ الكريم الأستاذ [illegible] كامل
مع خالص الود والتحية
٢/٨/١٩٦٧ [illegible]

مَعالِم التاريخ الأوروبى الحديث

الدكتور محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

مطبعة المصري

تصـدير

دفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع أهميـة التاريخ الأوربى الحديث فى تفهم المجتمع الأوربى فى العصور الحديثة . وما طرأ على حيـاته من تغيرات جذرية ، تناولت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية ، من بداية عصر النهضة وما صاحبه من حركة الكشوف الجغرافية التى غيرت أفكار الناس ومعلوماتهم عن العالم القـديم . ثم قيام حركة الاصلاح الدينى التى أنهت وحدة أوربا الدينية ، وقسمت القارة الاوربية إلى معسكرين دينيين وسياسيين فى نفس الوقت . وما ترتب على ذلك من قيام الحروب الدينية التى اجتاحت أوربا والتى أطلق عليهـا اسم حرب الثلاثين عاما . هذه الحرب التى وضعت حدا للحروب الدينية ، ومهدت السبيل لقيام فكرة التسامح الدينى وحرية المعتقد .

كذلك شاهد القرنان السابع عشر والثامن عشر نمو نظم الحكم ونشوء الدولة الوطنية الحديثـة . فقد اتجهت النظم فى فرنسا نحو تركيز السلطة فى يد الملكية . وبلغت الملـكية الفرنسية أوج قوتها فى عهد لوى الرابع عشر . وقد أدى تطرف ملوك فرنسا فى الاستئثار بالسلطة إلى قيام الثورة الفرنسية التى غيرت من معالم الحياة ، لا فى فرنسا وحدها ، وإنما فى أوربا بعد ذلك .

أما بالنسبة لانجلترا فكانت الأمور فيهـا تتجه نحو تدعيم سلطة البرلمـان ، والحد من سلطان الملك . فدخل أعضاء البرلمان فى صراع عنيف مع الملـكية الانجليزية كلل بالنجـاح فى الثورة المجيدة التى عصفت باستبداد ملوك انجلترا ، ورسمت الطريق لنمو النظم الديمقراطية فى البلاد .

كذلك شاهد التاريخ الحديث فترة تحول خطير فى حياة الروسيا ، ففى عهد بطرس الاكبر اتجهت شطر الغرب للاقتباس من نظمه وحضارته ، وحاولت أن تلحق بركب الحضارة الغربيـة ، وأن تصبح دولة غربيـة الصبغة تهتم بالشئون الاوربية وتسهم فى تشكيلها .

كما برزت بروسيا كدولة قوية تميزت بدقة نظامها وكفاءة جيشها الذى ارتفع بها من دولة صغيرة إلى دولة أوربية كبيرة اشتركت فى أحداث أوربا وانغمست فى مشاكلها ، وخرجت منهـا قوية البناء بفضل سياستها الداخلية القائمة عـــلى أساس الاستبدادية المستنيرة .

وفى الختام أرجو أن أكون قد وفقت فى إبراز الملامح الرئيسية لتلك الفترة من تاريخ أوربا التى امتدت ثلاثة قرون ... والله ولى التوفيق ؟

أول يناير ١٩٦٧ — المؤلف

مقدمة

التاريخ الأوربى الحديث

تطلق عبارة التاريخ الأوربى الحديث أو المبكر على الفترة التى أعقبت عصر النهضة والتى شملت القرون الثلاثة السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . وهذه الفترة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للتاريخ الانسانى ، نظراً لما اشتملت عليه من تغييرات جوهرية عمت كل جوانب الحياة من سياسة واجتماعية واقتصادية وفكرية وفلسفية وفنية . ففى هذه الفترة ظهرت الدول الأوربية الحديثة وصحب ظهورها حروب طويلة ترجع أسبابها إلى عوامل اقتصادية وسياسية ودينية . وسنجد أثناء سردنا لتاريخ تلك الفترة مدى الارتباط الوثيق بين هذه العوامل المختلفة . ولهذا يمكننا القول بأن تاريخ تلك الفترة يعتبر من أنشط فترات التاريخ الإنسانى .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل تاريخ هذه الحقبة من الزمن يجب أن نرجع إلى الوراء قليلا لنلقى نظرة عاجلة على أهم مميزات وخصائص الحياة فى العصور الوسطى ليمكننا أن ندرك التطور الكبير الذى طرأ على تلك النظم والمقومات فى حركة النقلة من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .

وقد حاول بعض المؤرخين أن ينظر إلى تاريخ العصور الوسطى نظرة إزدراء وسخرية ووصفوها بعصور الظلام والاستبداد . ولكن سواء صح هذا القول أو جانبه الصواب فتاريخ هذه الفترة لا يقل أهمية عن غيره من فترات

التاريخ خصوصا وأنه الأساس الذى بنى عليه التاريخ الحديث . ولهذا فهو جدير بالبحث والاستقصاء . ولا يمكننا بأى حال من الأحوال فهم التاريخ الأوربى الحديث فهما صحيحا ما لم يكن قائما على دراسة لأهم مقومات الحياة فى العصر الوسيط . والسبب فى ذلك أن التاريخ الحديث لم يظهر فجأة على مسرح السياسة الإنسانية بل كان تطوراً بطيئاً للنظم السياسية والاقتصادية والدينية التى سادت العصور الوسطى . هذا التطور الذى ما زال مستمرا حتى يومنا هذا .

وتحدد جمهرة المؤرخين فترة العصور الوسطى من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية على أيدى البرابرة فى حوالى منتصف القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر على وجه التقريب . ولا يستطيع الباحث أن يحدد بدقة متى بدأت العصور الوسطى ولا متى انتهت وبدأت بعدها العصور الوسطى. وكذلك الحال بالنسبة لنهاية العصور القديمة وبداية التاريخ الحديث ، لأن التطور كما ذكرنا من قبل - كان بطيئا ومتداخلا بعضه فى بعض بحيث لا يمكن للباحث أن يجزم بأن العصور الوسطى قد انتهت تماما فى سنة بعينها وبدأت بعدها العصور الحديثة . ولكن سارت النظم الوسيطة والنظم الحديثة جنباً إلى جنب فترة غير قصيرة من الزمن إلى أن استطاعت النظم الحديثة أن يكون لها الغلبة فى النهاية .

ويمكننا أن نجمل أهم مميزات العصور الوسطى فى النقط الآتية :

أولا - أن تلك العصور قد بدأت بعد سقوط الدولة الرومانية بفترة قلق واضطراب نتيجة لغارات المتبربرين المتلاحقة ، إلا أن حالة الفوضى هذه لم تستمر طويلا فحاول بعض القائمين على الحكم فى ذلك الوقت إيجاد نوع من الأمن والسلام النسبى، ونجحوا فى تحقيق هذا الهدف نجاحا ملحوظا . كما بذلت عدة محاولات لإيجاد الوحدة السياسية الأوربية ، كما كانت من قبل ، ولكن تلك

المحاولات لم تنجح ، مثل محاولات جستنيان وشارلمان .

ثانياً : تميزت العصور الوسطى بوجود امبراطورية عالمية خضع لحكمها معظم أجزاء أوربا فى ذلك الوقت وهى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ومعنى هذا أن فكرة العالمية أى وجود حكومة عالمية تضم أكبر مساحة من الأرض وأكبر عدد من الأجناس المختلفة تحت حكمها كانت سائدة ، ففكرة القوميات أو الدول الحديثة لم تعرف فى ذلك الوقت . كذلك لم توجد الروح القومية بالمعنى المعروف فى العصر الحديث .

ثالثاً : مما يستلفت النظر فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ذلك الصراع الرهيب الذى نشأ بين البابوية والامبراطورية نتيجة لنمو هاتين القوتين نمواً كبيراً، ومحاولة كل منهما الافتئات على حقوق الأخرى . ولو أن لكلا منهما ميدانه الخاص ، فالبابوية كانت لها السيادة الروحية، بينما الامبراطورية اختصت بالناحية الزمنية . إلا أن سلطات كل منهما لم تكن محددة تحديداً دقيقا . ولهذا تضاربت مصلحة الطرفين ، وحاول كل منهما أن يكون له الغلبة فى النهاية على حساب الآخر . وأدى هذا الصراع بينهما فى نهاية الأمر إلى ضعف قوتيهما . وكان ذلك نذيراً بإنتهاء العصور الوسطى وبانبثاق فجر جديد.

رابعاً : ومما يلاحظ على تاريخ تلك الفترة بشكل عام تأثير الدين على عقول الناس تأثيراً كبيراً . فسلطان الكنيسة الرومانية كان سلطانا لا يحد . كما كان لرجال الدين أثراً فعالا فى توجيه الحياة السياسة والاجتماعية والاقتصادية . ولهذا فكان للمجتمع الأوربى فى العصور الوسطى مثله العليا التى تختلف اختلافا كبيرا عن المثل التى نادى بهـا المفكرون فى العصور الحديثة . فالرهبنة فى العصور الوسطى كانت تعتبر المثل الأعلى للحياة، وكان التفكير كله ينصب على الناحية

الأخروية دون الإهتمام بالنواحى الدنيوية ، ومن هنا إزداد نفوذالكنيسة وقوى سلطانها، وأصبحت تسيطر على تفكير أهل العصور الوسطى سيطرة تامة، بحيث أصبح الفرد يؤمن بما يلقى على مسامعه من قول دون أن يخضع هذا الكلام للنطق أو العقل.فكان شعاره(I believe so that I may understand)

كان هذا هو الوضع بالنسبة لسيطرة الكنيسة الروحية على عقول أتباعها طوال فترة العصور الوسطى، حتى إذا ما أشرفت على الإنتهاء بدأت العقلية تتغير نتيجة لتأصل روح البحث العلمى، ومحاولة الكشف عن المعرفة، وإمتداد حركة البحث العلمى حتى شملت النواحى الدينية وحاولت اخضاعها لمنطق العقل والنقد. فظهرت الهرطقة ، وبدأت الجامعات الأوربية تدرس علم اللاهوت. ثم تدرجت إلى دراسة المنطق والفلسفة .

خامسا : من مظاهر الحياة فى العصور الوسطى الجانب الحربى الذى وجه وجهة دينية فيما يسمى بالحروب الصليبية التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان. ولم يكن هدف تلك الحروب فى أول الأمر سفك الدماء، بل كان هدفها اسمى من ذلك . ولهذا فقد اشتركت فيها مختلف طبقات المجتمع فى أوربا إما إظهارا للشجاعة وحبا فى القتال أو للدفاع عن مثل دينية عليا . وكان لتلك الحروب نتائج خطيرة بالنسبة لتاريخ الشرق والغرب على السواء . إذ أتاحت لكلا الجانبين أن يتعرف كل منهما على الآخر عن كثب،وأن يلم بشئونه السياسية والاجتماعية،وأن يقتبس من حضارته. وقد أفاد الغرب من ذلك فائدة كبرى فكانت مبعثا للنشاط الذى عرفته أوربا فى عصر النهضة .

كما أن هذا الاتصال بين الجانبين لم يقتصر على الناحية الحربيةفحسب، بل تعداها إلى ناحية أخرى أشد خطراً وأعمق أثراً من الأولى، ألا وهى الصلات

التجارية التى نشأت بين الطرفين المتحاربين نتيجة لتعرف الغرب على حاجيات الشرق، وكذلك لرغبة الشرق فى مبادلة الغرب بالفائض من منتجاته الزراعية والصناعية. واستفاد من عملية المبادلة المماليك والبنادقة، وجمعوا من التجارة ثروة طائلة مكنتهم من القيام بدور هام فى توجيه سياسة البحر المتوسط فى تلك العصور. وسرعان ما أفل نجم هاتين الدولتين المملوكية والبندقية بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح، فخضعت مصر للحكم العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر، واضمحلت البندقية وانتهى دورها فى أوربا كجمهورية قوية.

سادساً: كان نظام الإقطاع من الدعامات القوية التى تركزت حولها الحياة فى العصور الوسطى. فالاقطاع لم يكن نظاما سياسيا فحسب، بل هو نظام اجتماعى واقتصادى أيضاً. وكان هذا النظام قائما على ما يهبه الملوك من الارض لماليكهم وأتباعهم وهؤلاء يهبونها بدورهم إلى من دونهم حتى تصل إلى طبقة رقيق الارض. وتقضى التقاليد بأن يقسم من تؤول إليه الارض يمين الطاعة والولاء لمن منحه إياها، وأن يتعهد بمساعدته فى أوقات الحرب. وفى نظير ذلك يقوم شريف الأرض أى صاحب الاقطاع ببعض الواجبات إزاء رقيق الأرض مثل حمايتهم فى حالة الإعتداء عليهم من قبل شريف آخر.

وكان لهذا النظم الاقطاعى ما يبرره، فقد دعت الحاجة إليه وظل مستمراً بصفة فعلية منذ بداية العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشر. أما بعد ذلك فلم يصبح له وجود إلا من الناحية الاسمية فقط، حتى إذا ما أشرفت العصور الوسطى على الإنتهاء فقد هذا النظام كل مقومات وجوده.

ومن النقط الهامة التى يجب الإشارة إليها أن هذا النظام لم ينشأ نتيجة لتفكير شخص معين أو جماعة معينة، وإنما كان نموا طبيعيا وتطورا للحالة

الاجتماعية التى استدعت وجوده فظهور هـذا النظام وتطوره تطورا صالحا فى منتصف العصور الوسطى قـد أفاد فائدة كبرى فى حفظ النظام الإجتماعى وفى إيجاد حكومات صالحة استطاعت أن تسير دفة الأمور وأن تسد حاجيات الإنسان فى ذلك الوقت .

وعندما زالت تلك الظروف التى أوحت بهذا النظـام ، أصبح الإقطاع عبئا ثقيلا على كاهل الناس فى ذلك العصر بالرغم من الفوائد التى ظهرت فى مستهل عهـده . وتطورت الأمور فى أواخر العصور الوسطى إلى أن أصبحت الدولة منقسمة إلى مئات الاقطاعات التى يحكم كلا منها أمير يكاد يكون مطلق الحرية فى التصرف فى شئونها. وكانوا يديرون اقطاعاتهم من وراء جدران بيوتهم الحصينة ويشنون الحروب على بعضهم البعض . وكان يذهب ضحية هذه الحروب رقيق الأرض وليس لهم من مجير حتى فى شخص الملكية .

وستجد الطبقة الثالثة فى المجتمع، وهى طبقة رقيق الأرض، أن نظام الاقطاع قد عجز عن تحقيق الحياة الكريمة لهم . وأنه لا يعد عن كونه عبئا لا فائدة فيه، ومن الخير التخلص منه والقضاء عليه . كما وجدت الملكية أيضاً أن أمراء الاقطاع قد سلبوها مالها من هيبة وسلطان . وأن الوقت قد حان لاسترجاع هـذا النفوذ بمساعدة الطبقة الساخطة على هذا النظام، فحدث تقارب بين الطرفين فى المصلحة . ورأت طبقة رقيق الأرض أن من الخير لهـا الالتفات حول الملكية ضد أمراء الإقطاع . حدث هذا فى نفس الوقت الذى تفرقت فيه كلمة هؤلاء الأمراء وساد التنافس بينهم فكان هذا نذيراً بإنتهاء هذا النظـام الذى ساد أوربا فـترة طويلة من الزمن . ومن الطبيعى أن يؤدى انهيار سلطة أمراء الاقطـاع إلى تقـوية الملكية .

ومما سيساعد أيضا على زوال الاقطاع عوامل أخرى منها حرب المئة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣) تلك الحرب التى نشبت بين فرنسا من ناحية وانجلترا من ناحية أخرى، وذلك لوجود بعض المقاطعات التى استولت عليها انجلترا فى قلب فرنسا، ومحاولة الملكية الانجليزية الوصول إلى عرش فرنسا عن طريق ملكيتهم لتلك المقاطعات الواسعة ومصاهرتهم للأسرة الملكية الفرنسية . وقد أتاحت تلك الظروف لملوك فرنسا وانجلترا أن يحتفظوا بجيش قوى دائم لمواجهة تلك الحرب فكانت تلك القوى العسكرية عاملا هاما من العوامل التى قضت على سلطة أمراء الاقطاع، وساعدت على تركيز السلطة فى يد الملكية.

من هذه العوامل أيضا ظهور طبقة البورجوازية، وهى الطبقة الوسطى التى اشتغلت بالتجارة والتى استطاعت أن تكون لها ثروات كبيرة مكنتها من منافسة سلطة أمراء الإقطاع وقد تضاربت مصلحة الطرفين ، فالطبقة البورجوازية الجديدة كانت تحسد طبقة أمراء الإقطاع لما لها من سلطة موروثة . كما كان من مصلحة الطبقة الوسطى الوقوف إلى جانب الملكية لتقويتها ولتمكينها من إقرار الأمن فى البلاد .

كذلك لعبت الحروب الصليبية دورا هاما فى القضاء على الاقطاع، فهى بالاضافة إلى أنها قد أتاحت فرصة ذهبية لطبقة الأرقاء للتخلص من ربقة العبودية، وذلك بالفرار من أسيادهم والانضمام الى صفوف المحاربين الصليبيين، فقد قضت أيضا على عدد كبير من هؤلاء الأمراء فى تلك العمليات الحربية التى استمرت زهاء قرنين من الزمان .

وإلى اكتشاف البارود يرجع الفضل فى القضاء على النظريات الحربية فى

العصور الوسطى التى تركزت حول إقامة الحصون والاعتصام بهـــا فى أوقات الحرب . فاستخدام البارود فى الأسلحة الحديثة أفقد حصـون الأشراف ما كان لها من قوة ومنعة . وأصبحت الملكية بفضل هذا السلاح الجديد قوة يخشى بأسها تتضاءل أمامها قوة الاشراف. وبهذا الاسلوب الجديد استطاعت الملكية من هدم عدد غير قليل من تحصينات الأشراف وإخضاع الآخرين لسلطتها .

كذلك كان لظهور القوميات الحديثة فى أواخر العصور الوسطى عاملا هاما فى القضاء على الإمبراطورية الرومانية المقدسة، تلك الامـبراطورية التى أخضعت لحكمها قوميات متعددة ردحا طويلا من الزمن والتى كانت تعتبر من مميزات تلك العصور . وقد وجدت تلك القوميات أن من مصلحتها الانفصال عن كيـــان الامبراطورية ومراعاة ظروفها الخاصة دون نظر الى مصلحة المجموع . فهـــذا التفكير فى إيجاد حدود سياسية وإيجاد دولة لها كيان ذاتى مستقل تفكير حديث لم تعرفه العصور الوسطى ولكنه ظهر فى مستهل التاريخ الحديث .

وفى أواخر العصور الوسطى بدأت تحدث تغييرات جوهرية فى الناحيتين الثقافية والفكرية نتيجة للاتجاه نحو التراث اليونانى والرومانى القديم ، وإقتبـاس الأفكار والنظريات الفلسفية القديمة وعرضها عرضا جديداً يتفق مع عقلية الناس فى ذلك العصر . وترتب على حركة إحياء التراث اليونانى القديم أن بدأت العقول تتحرر من القيود التى فرضتها العصور الوسطى . وأخذ الناس يبحثون العــلوم السياسية والإجتماعية والدينية على أساس علمى جديد يخضع للنقد ، وللأساليب الحديثة فى البحث . وزاد إقبال الناس وإهتمامهم بدراسة النظريات الفلسفيـــة

القديمة والتعمق فيها . وأسهمت حركة الكشوف الجغرافية فى زيادة معـــرفة الناس بالمعالم المحيطة بهم .

على هذا النحو ظهرت حركة النهضة التى أحدثت تغييرات جوهريه فى شتى فروع المعرفة . وعصر النهضة له أهميته فى التاريخ فهو الصلة بين العصر الوسيط والعصر الحديث . أى الصلة بين ماضينا وحاضرنا، وشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر على وجه التقريب .

عصر النهضة

La Renaissance

إذا حاولنا تفسير كلمة Renaissance بمعناها الضيق نجد أن هـذه الـكلمة تدل على حركة بعث التراث القديم ، أو حركة إحياء التراث القـديم . أمـا إذا نظرنا اليها بمعناها الواسع نجد أنها تعبر عن تحرر العقل الإنسانى من قيود العصور الوسطى وشعور الفرد بحريته فى التفكير وفى التعبير عمـا يجيش فى صدره من أحاسيس وإنفعالات . وقد أطلق المؤرخون هذه التسمية على الفترة التى تتوسط العصور الوسطى والعصور الحديثة والتى تشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر تقريبا .

وكما أوضحنا من قبل لا يمكن أن نحدد بالضبط وقتـا بعينه كنهاية للعصور الوسطى وبداية لعصر النهضة . وهذا القول يدعونا إلى مزيد من التساؤل كيف حدثت تلك الحركة .كيف يمكن تفسيرها فى ضـوء الظروف التى أحاطت بأوربا فى ذلك الوقت ؟

إن الدارس لأحداث التاريخ لا يستطيع بأى حال من الاحـوال أن يفسر قيام حركة من الحركات الخطيرة من زاوية واحدة ، بل كلما تعددت الزوايا كلما استطعنا أن نصل إلى نتائج دقيقة ومحققة ولهذا سنحاول تفسير عصر النهضة فى ضوء دراستنا لجميع النواحى المختلفة التى يمكننا معالجتها فى هـذا البحث ، لنكون بذلك قد ألقينا أكبر قدر من الضوء على تلك الفترة التاريخية موضع الدراسة .

إذا تناولنا عصر النهضة من وجهة نظر رجال الفن نجد أن هؤلاء يعتـبرون حركة النهضة بتلك الحركة التى أدت إلى الكشف عن التراث القديم وبعثـه بعثاً جديداً يتلاءم من روح العصر ، وما ترتب على تلك الخطوة من تغيـير فى

طرق التعبير الفنى تغييراً جوهرياً نتيجة للمزج بين التراث القـديم والتراث الوسيط . هذا بالإضافة إلى التعديلات التى أدخلت على مختلف نواحى النشـاط الإنسانى فى أواخر العصور الوسطى .

وقد استطاع الفرد فى تلك الفترة أن يصهر هـذه الثقافات المختلفة الاصول، وأن يخرج لنا فنا جديدا مستمدا من هـذه الثقافات جميعها ، ونجح هـذا الفن الجديد فى التعبير عن المشاعر والاحاسيس تعبيرا صادقا عجز عن الوصول اليها الفن فى العصور الوسطى . فحركة النهضة إذا ما نظرنا اليها من هـذه الزاوية عبارة عن صورة للتراث الانسانى منذ أقدم العصور حتى القرن الرابع عشر ، أى تشمل النشاط الإنسانى جميعه . دون أن تقتصر هذه الحركة على شعب معـين . بل إن كل الشعوب قد أسهمت فى تكوين هذا التراث الإنسانى الذى أخذ ينمو فى كل عصر من العصور الى أن وصل الى الصورة التى وجدناه عليها فى عصر النهضة. تلك نظرة رجال الفن الى عصر النهضة .

أما رجال الأدب فقد عبروا عن عصر النهضة بعصر إحيـاء التراث الأدبى القديم . والتأثر به وتذوق ما فيه من أوجه الجمال والعمل على محاكاته والاقتباس منه بما يتمشى مع مطالب البيئة فى عصر النهضة . ثم يستتبع هذا محاولة خلق عناصر فنية جديدة يمكن للأدب أن يعبر بها عن روح العصر بصدق وحرية .

وإذا تناولنا حركة النهضة من وجهة نظر رجال الفكر، نجد أنها عبارة عن نمو ملـكة النقد واستخدامها فى دراسة النظم المختلفة التى وصلتهم عن العصور القديمة والعصور الوسطى ، وكذلك استخدام هذه الملـكة فى الاقتباس من التراث القديم اقتباسا يتلاءم مع مطالب الحياة الفكرية الجديدة . وسيؤدى إخضـاع كل النظم

الوسيطة الى ملكة النقد الى هدم القيم الوسيطة، والى تمهيد الطريق لظهور قيم أخرى جديدة وفلسفات جديدة ـ لا فى عصر النهضة ـ بل فى العصر الذى يليه على أيدى ديكارت وغيره من الفلاسفة المحدثين .

أما حركة النهضة فى نظر رجال الكشوف الجغرافية فهى عبارة عن حركة الكشوف الجغرافيه الواسعه التى تمثل مرحلة حاسمه فى التاريخ والتى أدت الى كشف عالم جديد والى تطور النظريات الاقتصاديه تطورا كبيرا ، أتى بأكبر فائدة على الدول الأوربيه فى ذلك الوقت . كما ينظر رجال المخترعات الى هذا العصر على أنه عصر اختراع البارود والميكروسكوب وصناعه الورق.

وعصر النهضة أيضا من وجهة نظر رجال العلم هو تلك الفترة من التاريخ التى ظهرت فيها النظريات العلمية الحديثة على أنقاض النظريات القديمة التى سادت خلال العصور الوسطى . ومن أعلام هذا العصر من العلماء : جاليليو ووليم هارفى وغيرهما من كبار رجال العلم الذين أحدثوا تطوراً خطيراً فى النواحى العلمية فى عصر النهضة ومستهل العصر الحديث .

وإذا ما نظرنا إلى عصر النهضة من وجهة نظر المؤرخين ورجال السياسة نجد أنه عبارة عن انهيار نظام الإقطاع وزواله من الوجود كدعامة من الدعامات القوية التى قامت عليها الحياة فى العصور الوسطى . وهو فى نظرهم أيضا عبارة عن عصر نشوء القوميات الحديثة ونمو الملكيات نمواً كبيراً .كذلك ينظر إلى هذا العصر على أنه عصر زوال سلطة الكنيسة الكاثوليكية العالمية، وتحول البابوية من سلطة عالمية إلى مملكة صغيرة تمثل جزءا من وسط ايطاليا .

ويطلق على حركة النهضة أيضا بحركة تيقظ الوعى السياسى لدى الشعوب الأوربيه،

ومطالبة تلك الشعوب بما لها من حقوق. وقد اتخذت هذه المطالب أشكالا متعددة إلى أن وصلت إلى حد العنف بقيام الثورة الفرنسية التي اجتاحت فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر .

هـذا هو خلاصة لآراء المشتغلين بالعلم في تفسيرهم لعصر النهضة . ويمكننا إعتماداً على تلك التفسيرات المختلفة الزوايا أن نقول بأن عصر النهضة هـو عصر تحرر العقل الإنساني من قيود العصور الوسطى والنظر إلى العالم المحيط بالإنسان نظر جديدة . ويذكر الأستاذ سيمان Syman في كتابه The Renaissance in Italy بأن عصر النهضـة عبارة عن ثمرة الإنسانية جميعها طوال العصور، لا فرق بين شعب وآخر ولا بين حضارة وأخرى ، فلكل شعب من تلك الشعوب، ولكل حضارة من تلك الحضارات نصيبه في الوصول إلى تلك الحركة الهامـة في التاريخ .

وبناء على تلك النظرة الواسعة لمدلول عصر النهضة لا يمكننا أن نعتبر تاريخ عصر النهضة تاريخا للفنون فحسب،أو لحركة الاصلاح الديني فحسب أو الكشوف الجغرافية فحسب وإنما هو يمثل تاريخ كل هذه النواحي مجتمعة. وليس هذا فقط بل إنه فوق ذلك تاريخ لتحرير العقلية الإنسانية وشعور الفرد بالحرية والاستقلال.

تلك لمحة عابرة حاولنا فيها أن نفسر عصر النهضة تفسيراً جامعا ولكنه في نفس الوقت على شيء كثير من الايجاز .

الفصل الأول

نظرة عامة لحالة دول أوربا
فى
مستهل التاريخ الحديث

من المهم للباحث فى تاريخ أوربا الحديث أن يأخذ فكرة عامة وموجزة عن تاريخ الدول الأوربية بصفة عامة قبل أن يركز نشاطه فى الاهتمام بدراسة موضوع معين أو عدة موضوعات تتعلق بتاريخ تلك الفترة . فمن خلال هذه اللمحة السريعة يستطيع الباحث أن يتصور الوضع السياسى فى أوربا بوضوح وجلاء وأن يربط بينه وبين المشكلات التى سيعالجها فى دراسته .

تعتبر هذه الفترة من تاريخ أوربا على درجة كبيرة من الأهمية، وذلك لارتباطها الوثيق بنشأة الدول الأوربية الحديثة بالمعنى السياسى المعروف فى العصر الحديث . فقامت هذه الدول الحديثة كنتيجة طبيعية لإنهيار نظام الاقطاع، ونمو الروح القومى لدى الشعوب . وقد اختلفت نظم الحكم التى أخذت بها تلك الدول، فبعض هذه الدول قد أخذ بالنظام الديكتاتورى، وبعضها الآخر قد اختار النظام الدستورى . كما تباينت تلك الدول فى الحجم فبعضها صغير والآخر كبير . كذلك تشابهت تلك الدول فى بعض النواحى واختلفت فى البعض الآخر نتيجة للظروف التى أحاطت بنشأة كل منها . وسنتناول تلك الدول بشيء غير قليل من الإيجاز للوقوف على حالتها فى تلك المرحلة من التاريخ .

الدولة العثمانية

يبدأ التاريخ الاوربى الحديث بظهور الأتراك العثمانيين على مسرح السياسة الدولية فى البلقان . وكان قدومهم إلى شبه جزيرة الأناضول قد تم تحت ضغط القبائل المغولية الزاحفة من أواسط آسيا متجهة نحو الغرب، فدفعت بتلك القبائل التركية أمامها . واستمرت تلك القبائل فى الاندفاع إلى أن استقر بها المقام فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة فى منتصف القرن الثالث عشر .

وبعد أن ثبتت أقدام تلك القبائل أخذت تتوسع على حساب جيرانها، فنزلت فى البلقان وأخذت تستولى على المدن البلقانية الواحدة تلو الأخرى، وتتقدم نحو غرب أوربا فى خطى سريعة مستغلة فى ذلك الوقت ضعف الشعوب البلقانية وعدم تماسكها . ولم تفلح الجهود والمحاولات التى قام بهـــا ملوك أوربا لمساعدة تلك الشعوب فى صد هجمات العثمانيين أو عرقلة اندفاعهم نحو الغرب .

وتمكن العثمانيون فى النهاية من الإستيلاء على القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٣) والقضاء نهائياً على الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) .

وبعد أن وصل تقدم العثمانيين فى أوربا إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه يمموا وجوههم نحو الشرق فاصطدموا بالفرس ثم بالمماليك، واستتب لهم الأمر فى النهاية بإخضاع العالم العربى لسلطتهم. وبذلك أصبحت الامبراطورية العثمانية تخضع لسيطرتها أجزاء واسعة من أوربا وآسيا وافريقيا وتضم عناصر مسيحية وأخرى مسلمة .

وإذا كانت مدينة فينا تعتبر الحد الأقصى الذى وقف دونه التوسع العثمانى

فى القارة الأوربية فإن جزيرة مالطة تعتبر الحد الأقصى من ناحية البحر الذى وقف دونه التوسع البحرى نحو الغرب بعد أن استولت البحرية العثمانية على كل الجزر الواقعة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

واستطاع العثمانيون إيجاد نظم حكم راقية تتركز كلها فى يد السلطان العثمانى. أى أن الحكم الذى ساد الدولة العثمانية كان حكماً استبدادياً يعتمد كل الاعتماد على شخص السلطان العثمانى . وهذا النوع من الحكم كان ضروريا بالنسبة لدولة فتية فى دور التكوين والنمو والإزدهار ومن حسن حظ الدولة أن تعاقب على حكمها فى السنوات الأولى من نشأتها سلاطين عظام اتصفوا بالقوة والحزم وبالبطولات الحربية،فعلى أكتاف هؤلاء تكونت تلك الامبراطورية الواسعة . ويمكننا القول بأن الدولة العثمانية قد أثرت فى أوربا تأثيرا ملحوظا فى ناحيتين هامتين .

الناحية الاولى

أن هؤلاء السلاطين قد أوجدوا نظاما قويا من الحكم يعتمد إعتمادا كليا على رأس الدولة وهو السلطان . أى أن نظام الحكم كان مركزيا استبداديا، حدث هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه ملوك أوربا يعملون على إخضاع أمراء الاقطاع لسلطانهم والقضاء على مالهم من نفوذ موروث ، والعمل على تركيز السلطة فى أيديهم . وقد وجد هؤلاء الملوك فى النظام العثمانى القائم المثل الأعلى الذى يجب أن يحتذى .

الناحية الثانية

أنه نظراً لموقع الدولة العثمانية الجغرافى بالنسبة لدول أوربا نشأ بينها وبين تلك الدول علاقات سياسية اتسمت بصفة عامة بالطابع الحربى . أى أن الدولة

العثمانية كانت فى حالة حرب - تكاد تكون دائمة - مع جيرانها ، رغم ما كان يتخلل تلك الفترات الحربية من فترات سلام . وقد أثرت تلك العلاقة تأثيراً كبيراً فى السياسة الأوربية فظهرت على مسرح السياسة الدولية ما يسمى بالمسألة الشرقية The Eastern Question . والمسألة الشرقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر تختلف فى المعنى والمدلول عن المسألة الشرقية فى القرن الثامن عشر وفى التاسع عشر . فالمسألة الشرقية فى العصر الحديث المبكر عبارة عن المشكلة التى نجمت عن إحتلال الأتراك العثمانيين لشرق أوربا ، وتهديدهم ممتلكات دول غرب أوربا بخطر جسيم . أى أن المشكلة كانت بالنسبة للعالم الغربى فى ذلك الوقت تتلخص فى محاولة التكتل والاتحاد للوقوف صفا واحدا أمام الخطر العثمانى المتوثب .

أما تلك المشكلة فقد أخذت شكلا آخر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهو يتمثل فى محاولات الدول الأوربية التخلص بصفة نهائية من الدولة العثمانية ، وذلك بطردها من أوربا وتقسيم ممتلكاتها بين الدول المعنية بالأمر . وقد لعب التنافس بين تلك الدول الاستعمارية دورا هاما فى بقاء الدولة العثمانية وعدم تقسيمها . كما حاول السلاطين العثمانيون استغلال هذا التضارب فى المصلحة بين الدول الأوربية الكبرى فى الاحتفاظ بممتلكاتهم دون تقسيم . وقد نجحوا فى هذه السياسية إلى حد بعيد . وسنجد أن الدولة العثمانية - بالرغم مما وصلت اليه من ضعف فى أواخر القرن الثامن عشر - ظلت تقاوم أطماع الغرب تارة عن طريق الحرب ، وتارة أخرى عن طريق إستغلال أسباب الخلاف بين الدول حتى أوائل القرن العشرين ، حيث قسمت ممتلكاتها بين انجلترا وفرنسا مع نهاية الحرب العالمية الأولى .

انجلترا

إذا انتقلنا إلى انجلترا نجد أنها قد تعرضت فى تاريخها القديم لإغارات الرومان والسكسون والدانمركيين. ويبدأ تاريخ انجلترا الواضح بالفتح النورمندى فى عام ١٠٦٦ م . وتتسم الفترة التى تقع بين ١٠٦٦ و ١٤٥٠ بالكفاح بين الملكية والأمراء . وفى خلال هذا الصراع تنمو الروح البرلمانية ويطالب الشعب الانجليزى بحقوقه فى الاشتراك فى الحكم ، ويحصل فى عهد الملك يوحنا على العهد الأعظم فى عام ١٢١٥ م . ومنذ ذلك الوقت أخذت القوى الاجتماعية تقوى بالتدريج على حساب سلطة الملكية .

١١ — وفيما بين عامى ١٤٥٠ و ١٤٨٥ تحدث فى انجلترا حرب أهلية تسمى حرب الوردتين بين أسرتى لانكستر ويورك ، وتنتهى تلك الحرب بظهور أسرة جديدة تتولى الحكم فى انجلترا ، هى أسرة تيودور إحدى فروع أسرة لانكستر. واستطاعت تلك الأسرة أن تخلص البلاد من الفوضى وأن تسيطر سيطرة تامة على مقاليد الأمور فيها . وبذلك تقوى سلطة الملكية الانجليزية وينجح ملوكها فى إدارة شئون البلاد إدارة حازمة ، وعلى هذا الحال بدأت انجلترا تاريخها الحديث .

وكان لموقع انجلترا الجغرافى فى الشمال الغربى للقارة الأوربية أثر كبير فى نمو النظم الدستورية الانجليزية بطريقة خاصة بعيدة عن مؤثرات القارة الأوربية. كما مكنها هذا الموقع الجغرافى من أن تكون بمنأى عن تدخل القارة الأوربية فى شئونها الداخلية . فى نفس الوقت مكنها هذا الموقع من أن تتدخل فى شئون القارة الأوربية فى أى وقت تشاء إذا كان من مصلحتها هذا التدخل .

وسنجد أيضا أن هذا الموقع الجغرافى قد أملى على انجلترا اتخاذ موقف معين

فى سياستها الخارجية إزاء الدول الأوربية ، وهذا الموقف يتلخص فى مبدأين هامين حاولت انجلترا التمسك بهما طوال تاريخها الحديث وهما : السيادة البحرية، والتوازن الأوربى . وسنرى فى سردنا لتاريخ انجلترا الحديث ، وفى تتبع علاقاتها مع الدول الأوربية أن جميع الحروب التى خاضتها انجلترا كانت ترجع إلى محاولتها وضع هذين المبدأين موضع التنفيذ .

وبناء على ذلك يمكننا القول بأنه لو لم تكن انجلترا منفصلة عن القارة الأوربية لأصبحت شبه جزيرة نائية تقع فى الطرف الغربى من القارة الأوربية، ولاستطاعت أية قوة أوربية مجاورة من أن تسيطر عليها مثل فرنسا أو النرويج .

فرنسا

إذا تركنا انجلترا وانتقلنا إلى فرنسا نجد أنها كانت إحدى الدول الغربية التى تعرضت أيضا لغارات المتبربرين ردحا طويلا من الزمن، وسنجد أن غزوات البرابرة هذه قد أثرت تأثيراً قويا فى تكوين الشعب الفرنسى . ويبدأ تاريخ فرنسا بشكل واضح منذ معاهدة فردان فى عام ٨٤٣ ،تلك المعاهدة التى قسمت ممتلكات شارلمان إلى أجزاء متعددة .وكان الجزء الواقع غرب نهر الرون هو ما أطلق عليه اسم فرنسا فى العصر الحديث .

وقد ساد فرنسا كما ساد غيرها من الدول الاوربية نظام الإقطاع وسيحاول بعض الملوك أن يسيطروا على الحكم فى فرنسا ، ولكن سيطرتهم هذه كانت تتوقف إلى حد كبير على مدى ولاء أمراء الاقطاع لتلك الأسرة الحاكمة . وستخوض فرنسا حرب المائة عام خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أى فيما بين ١٣٣٨ و ١٤٥٣ . وسنجد أن فرنسا نتيجة لاشتراكها فى تلك

الحرب الطويلة تستولى على ما كان لانجلترا من ممتلكات فى فرنسا، وتلقى بالانجليز خارج حدودها. كان هذا أحد نتائج تلك الحرب، زد على ذلك أن هذه الحرب الطويلة قد أتاحت الفرصة لملوك فرنسا كى يركزوا السلطة فى أيديهم ويعملوا على القضاء على سلطة أمراء الاقطاع.

كما كانت تلك الحرب على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لفرنسا، فهى إلى جانب ما حققته من مزايا لفرنسا، فقد اتسمت بالطابع القومى فحاربة الفرنسيين لقوات أجنبية ونجاحهم فى طرد تلك القوات خارج حدودهم، قد أذكى فيهم الروح القومية، وأظهر الملكية الفرنسية بمظهر الملكية التى تعمل على تحقيق أمانى الفرنسيين القومية فى استكمال سيادتهم على أراضيهم، فقوى هذا من سلطة الملكية. وسنجد أن لوى الرابع عشر الذى وصل إلى حكم فرنسا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، قد استطاع إستغلال تلك الظروف المحيطة بفرنسا وأن يسيطر سيطرة تامـــة على الحكم، وأن يجعل من الملكية الفرنسية المثل الاعلى للملكيات فى القارة الاوربية. وسينجح لوى الرابع عشر من التخلص نهائيا من سلطة امراء الاقطاع، وسيستخدم فى سبيل تحقيق هذا الهدف مختلف السبل، من استعمال الشدة احيانا واللين أحيانا اخرى والاصطناع ثالثة.

وبهذه الطريقة إستطاع أن يضم اليه ما كان يمتلكه هؤلاء الأمراء من ممتلكات، وأن ينفق عن سعة فى تكوين جيش فرنسى كبير إستطاع أن يحقق نصراً كبيراً فى الميادين الأوربية. وعندما خلفه على العرش شارل الثامن وجد فرنسا دولة قوية مرهوبة الجانب، ولديها جيش قوى يمكن الاعتماد عليه فى تحقيق أطماعه فى التوسع والفتح، وقد شجعته الحالة فى إيطاليا، وما كانت عليه من تفكك وانحلال، على أن يغامر بقواته ويعبر جبال الألب وينزل فى الأراضى الايطالية ويستولى

على معظم أراضيها . وقد ذهب به تفكيره إلى حد وضع مشروع للقيام بحملة صليبية على الأراضى المقدسة لنشر المسيحية فى تلك البقاع. ولكن تلك الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ . وبدخول القوات الفرنسية الأراضى الايطالية يقوم صراع بين فرنسا وأسبانيا حول السيطرة على تلك البلاد .

ويمكننا القول بأن فرنسا قد بلغت أوج قوتها وعظمتها فى عهد لوى الرابع عشر . وبعد ذلك تبدأ قوة الملكية الفرنسية فى الضعف والانحلال إلى قيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ .

اسبانيا

تمتاز تلك الدولة بموقعها الجغرافى المتطرف فى الجنوب الغربى للقارة الأوربية. يحدها شمالا جبال البرانس التى فصلتها عن القارة الأوربية وجعلتها فى شبه عزلة فترة طويلة من الزمن . وقد غزاها الرومان كما غزوا فرنسا وانجلترا من قبل. كما تعرضت أسبانيا فى العصور الوسطى لغارات البرابرة، ودخلها العرب فى أوائل القرن الثامن الميلادى . واستطاعوا أن ينشئوا مدنا كبيرة وأن يشيدوا الجامعات المختلفة التى وفد اليها الطلاب من جميع أنحاء أوربا . وقد ازدهرت الحضارة العربية إزدهاراً كبيراً إلى أن وصلت إلى أوج قوتها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر خلال القرن العاشر الميلادى. ثم أصابها ما أصاب مختلف الحضارات من تدهور وانحلال نتيجة للفتن التى قامت بين أمراء المسلمين .

هذا بالاضافة إلى نشاط الإسبانيين فى مطاردة العرب وفى إجلائهم عن أسبانيا . فأدت تلك الإغارات المتكررة على العرب إلى سقوط مدينة قرطبة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر. ثم بدأت المقاومة الأسبانية تشتد قوة وعنفا باتحاد إمارتى قشتالة وأراجون بزواج فرديناند من ايزابيلا . فتعاونت

الإمارتان فى طرد العرب من أسبانيا، وتحقق لهم ذلك فى أواخر القرن الخامس عشر أى فى عام ١٤٩٢ . وبذلك ينتهى النفوذ العربى من شبه جزيرة إيبيريا وتصبح تلك الدولة فى مستهل التاريخ الحديث دولة قوية موحدة، وبدأت فى نضال مع فرنسا فى سبيل السيطرة على القارة الأوربية . وسيكون لاسبانيا الغلبة فترة من الزمن . كما أنها ستشتبك فى حرب بحرية كبرى مع انجلترا فى أواخر القرن السادس عشر وتنهزم أسبانيا فى تلك الحرب . وتبدأ فى التأخر من جديد وتصبح دولة ثانوية إلى حد ما .

البرتغال

أما عن البرتغال فقد تعرضت تلك الدولة لإغارات الرومان كما تعرضت أسبانيا لها من قبل . وكذلك خضعت أجزاء من تلك الدولة لحكم العرب . ولكن البرتغاليين استطاعوا طرد العرب من بلاهم بعد أن ضعف النفوذ الاسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا . ونجح الملك يوحنا الاول تكوين الدولة البرتغالية المستقلة ، واستطاع إضعاف نفوذ أمراء الاقطاع . كما قام البرتغاليون بنشاط كبير فى مستهل التاريخ الحديث، وأسهموا مساهمة فعالة فى التطورات التى شملت أوربا بقيامهم بحركة الكشوف الجغرافية التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وإلى تكوين امبراطورية برتغالية واسعة فى آسيا، درت عليها أموالا طائله ولكنها لم تستطع الاحتفاظ بها نتيجة لتدخل الهولنديين والفرنسيين ، فسرعان ما استولوا على تلك الامبراطورية . وبدأ عصر جديد هو عصر الإمبريالزم أو التوسع الأوربى . وبدأت معه المنافسات الشديدة والتطاحن بين الدول الأوربية التى دخلت متأخره فى ميدان الكشف الجغرافى .

وقد طمع ملوك البرتغال فى ضم أسبانيا اليهم عن طريق المصاهره، ولكن

حدث العكس إذ استطاعت اسبانيا أن تضم البرتغال إليها فى القرن السادس عشر بما له من ممتلكات . وكانت اسبانيا فى ذلك الوقت على علاقات عدائية بانجلترا، فأدى هذا الموقف إلى قيام انجلترا بالضغط على البرتغال وإلحاق أبلغ الأضرار باقتصادياته . على أن هذا الضم لم يستمر طويلا فسرعان ما انفصلت الدولتان بعضهما عن بعض .

الدول الاسكندنافية

كانت تلك البلاد خاضعة لحكم عناصر من الجنس الشمالى وبطبيعة موقعها الجغرافى كانت على هامش السياسة الاوربية، فهى لم تنغمس فى الأحداث السياسية الاوربية . وأدى وقوفها على الحياد إزاء تلك الأحداث إلى عزلتها وإلى تأخرها فى اعتناق الديانة المسيحية .

ولكنها قد أثرت تأثيرا كبيرا فى التاريخ الأوربى عن طريق تلك الاغارات التى خرجت منها واحتلت انجلترا وكونت دولة اسكندنافية كبرى فى القرن العاشر الميلادى شملت مناطق واسعة : منها الدانمرك والسويد والنرويج وانجلترا . وما لبثت تلك الدولة الواسعة أن تفككت، فظهرت الدانمرك كدولة كبرى حاولت أن تسيطر على شواطىء بحر البلطيق ، ونشأ بينها وبين مدن الهانزا **Hansa** المنتشرة على سواحل هذا البحر صراع طويل أدى إلى إستيلاء الدانمرك على معظم تلك الشواطىء . كذلك انفصل السويد عن النرويج وكون كل منهما وحدة سياسية مستقلة . وسيكون للسويد أثر هام فى التاريخ الأوربى لما ستقوم به من مناهضة النفوذ الروسى فى بحر البلطيق . هذا من جهة ومن جهة أخرى فنظرا لاعتناقها المذهب البروتستنتى ستشترك فى الحروب الأوربية التى نتجت عن حركة الاصلاح الدينى وإنقسام أوربا الى معسكرين دينيين وسياسيين فى نفس

الوقت . وستخوض غمار الحرب إلى جانب الدول والولايات البروتستنتية في حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) دفاعاً عن هذا المذهب . وسيكون للدور الذي قامت به في تلك الحرب أثر فعال في توجيه السياسة الاوربية .

الروسيا

سكن تلك البلاد الواسعة العنصر السلافي أو الصقلبي، وقد اعتنق هؤلاء الديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسي، وخضعوا لحكم استبدادي يتمتع فيه القيصر بسلطة مطلقة . أي أن الدولة الروسية ورثت عن الدولة البيزنطية المذهب الديني والسلطة المطلقة في الحكم .

وقد تعرضت الروسيا لإغارات التتار في القرن الثالث عشر، فهاجمتها جحافل التتار تحت قيادة جنكيزخان، وسيصاب الجيش الروسي بضربة قاصمة أمام هجمات التتار عند بحر أزوف . ونتيجة لتلك الحرب سيقوى الشعور القومي الروسي كما ستقوى القيصرية - معتمدة في ذلك على التلويح بالخطر الخارجي - وتتمكن من تركيز السلطة في يديها . ويستمر هذا الوضع إلى أن يعتلي العرش بطرس الاكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥) الذي كان يمثل العنصرية الروسية بأجلى معانيها . كما كان لويس الرابع عشر يمثل فرنسا أصدق تمثيل .

وستكون لفترة حكم بطرس الاكبر أثر كبير في اتجاه الروسيا نحو الغرب واقتباس الكثير من النظم التي تتلاءم مع الحياة في الروسيا ، وسيأخذ القيصر الروسي الكثير من نظم الغرب وتقاليده . كما حاول أن يأخذ عن مختلف الدول الاوربية أحسن ما فيها وأرقى ما وصلت إليه صناعتها . فاستعان بالالمان للتنظيم الاداري، وبالنمساويين لإعادة تشكيل وتنظيم الجيش الروسي، وبالهولنديين

لإقامة صناعة السفن على أساس فنى جديد . ولم يدخر القيصر الروسى وسعا فى الاستعانة بمختلف الخبراء والفنيين من سائر الأجناس لرفع شأن الصناعة والتجارة والعمل على رفع مستوى الحياة فى الروسيا .

والحقيقة أن الروسيا ـ رغم أنها كانت من الدول المسيحية الكبرى ـ إلا أنها كانت متخلفة اجتماعيا وسياسيا وصناعيا فكانت ، تدخل ضمن نطاق الدول الآسيوية المتأخرة . وذلك لانعزالها عن القارة الأوربية وعن الاختلاط بدولها ، ومسايرة ركب النهضة الأوربية فى ذلك الوقت . وحاول بطرس الأكبر أن يخطو بروسيا طفرة واحدة فى طريق التقدم للحاق بالدول الأوربية التى سبقتها إلى هذا الميدان ، واستخدم فى سبيل الوصول إلى غايته كل وسائل الشـــدة والعنف . ولم يحاول معالجة هذا التأخر بطريق تعليم الشعب وتعميم هذا التعليم بفتح أكبر عدد من المدارس . بل كان همه الوصول إلى نتائج سريعة ، وذلك عن طريق الاهتمام بالناحية المادية ، من إقامة المصانع والمؤسسات دون الانتظار إلى خلق طبقة مثقفة تتولى بنفسها إدارة تلك المصانع والمؤسسات .

وقد وجد بطرس الأكبر أن الطريق الطبيعى للاتصال بالغرب هو طريق بحر البلطيق . وان هذا الطريق مغلق فى وجه الروسيا لسيطرة السويد على المناطق الممتدة على سواحله . فلا بد إذاً من الدخول فى صراع مع تلك الدولة لبسط سيطرتها على تلك المنافذ المطلة على دول أوربا ، فدخل فى حرب (١٧٠٠-١٧٢١) معها بعد أن ضم إلى جانبه بولندا والدانمرك . وانتهت تلك الحرب فى النهاية بهزيمة السويد ووقوع ولايات البلطيق فى يد الروسيا بمقتضى معاهدة نيستاد Nystadt عام ١٧٢١ . وأقام بطرس الأكبر على بحر البلطيق مدينته الشهيرة سان بطرسبرج لتكون حلقة الاتصال بين الروسيا والعالم الغربى ، والتى عن

أوربتها ستدخل المؤثرات الغربية والتعاليم الغربية والحضارة الغربية .

ومنذ ذلك الوقت اتخذت الروسيا وجهة غربية ، وأسهمت في حل المشاكل الأوربية ، وتدخلت في الشئون الأوربية لتحقيق مصالحها في فترات كثيرة إلى أن أصبحت الروسيا دولة من الدول الأوربية التي لها وزنها في السياسة الأوربية خلال القرن الثامن عشر .

بولندا

لم يعرف التاريخ دولة قد نكبت بسبب موقعها الجغرافي كبولندا ، فقد شاءت ظروفها الدولية بأن تقع بين دول قوية تريد كل منها أن تسيطر على أجزاء منهـــا . أما البولنديين أنفسهم فهم من العنصر الصقلبي ، ويدينون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي . أي أنهم يدينون بالتبعية الروحية للكنيسة الرومانية ، بعكس الحال بالنسبة للروسيا التي اعتنقت المذهب الارثوذكسي وتدين بالتبعية الروحية للكنيسة الشرقية .

وقد عرفت بولندا النظام الملكي منذ أمد بعيد ، ولكنها كانت ملكية ضعيفة لم تستطع السيطرة على مقاليد الحكم ، لمقاومة أمراء الاقطاع في تركيز السلطة في يد الملك .

ومن الظواهر الغريبة في نظم الحكم أن الشعب البولندي كان يفضل حكم أمراء الاقطاع على حكم الملكية القوى ، بعكس الحال بالنسبة لسائر دول أوربا التي فضلت شعوبها الإلتفاف حول الملكية لتقويتها ولإضعاف نفوذ أمراء الإقطاع . واستطاعت بولندا أن تسيطر بعض الوقت على سواحل بحر البلطيق بعد هزيمة الفرسان التيوتون في القرن الخامس عشر الميلادي .

أما من الناحية السياسية فنتيجة لضعف الملكية البولندية أن انعدم التماسك والترابط بين أجزاء تلك الدولة،وساعد ذلك طبيعة الحال على سقوطها ومحوها من الخريطة الاوربية عدة مرات . وكما سبق أن ذكرت من قبل أن موقع هـــذه الدولة بين ثلاث دول كبرى هى الروسيا والنمسا وبروسيا قد أطاح بها ،نظراً لان أراضيها كانت تتكون من سهول منبسطة هى فى حقيقة الأمر إمتداد للسهول الروسية والالمانية ، فعدم وجود حدود طبيعية مثل الجبال والأنهار قد تسببت فى ضياعها عدة مرات فى تاريخها الوسيط والحديث .

فمثلا حدث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر نزاع بين الروسيا والنمسا، وخشيت بروسيا أن يؤدى هذا النزاع إلى تدخلها الحربى مرغمة ،فاقترحت على الدولتين المتنازعتين بأن تشترك الدول الثلاث فى تقسيم بولندا فيما بينها فضا للنزاع . وبالفعل قبل الطرفان المتنازعان هذه التسوية وقسمت بولندا بين الدول الثلاث .

كذلك تعرضت تلك الدولة مرة أخرى للتفكك نتيجة لطمع بعض الدول المجاورة فى استقطاع بعض الأجزاء الهامة منها . وفى عهد نابليون يقضى عليها كدولة لها كيان سياسى . ثم يعيدها نابليون مرة أخرى تحت اسم ولاية وارسو. وبعد هزيمته يقرر الحلفاء فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ إرجاع الحقوق الشرعية لأصحابها. أى بمعنى آخر عودة الحدود السياسية لدول أوربا إلى ما كانت عليه قبل حركة نابليون مع بعض تعديلات طفيفة . ولكن تلك الدول الأوربية قد استثنت بولندا من هذا المبدأ ، فقررت تقسيمها بين دول متعددة . وكان للروسيا النصيب الأكبر منها ،على أن تتعهد بإدخال التعديلات الضرورية عليه .

وستقوم تلك المنطقة البولندية بالثورة على الحكم الروسى ،ولن تستطيع انجلترا

أو فرنسا التوسط فى هذا النزاع بالطرق الودية، وأن تحول بين الروسيا وبين اخمادها لتلك الثورة بقوة الحديد والنار ، وذلك لإعتماد الروسيا على مؤازرة بروسيا . وبذلك تتمكن الروسيا من إخماد تلك الثورة بمنتهى الشدة والعنف فى عام ١٨٦٢ .

وستظل بولندا مختلفة من خريطة أوربا حتى مجىء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ حيث تعاد تلك الدولة من جديد بعد إنتهاء الحرب ولكن بقاءها لن يستمر أكثر من عشرين عاما حيث تقسم من جديد بين ألمانيا والروسيا فى عام ١٩٣٩ عند بداية الحرب العالمية الثانية. ثم لا تلبث أن تجتاحها الجيوش الألمانية مرة اخرى وتستولى عليها إلى أن تضع الحرب أوزارها فتظهر تلك الدولة من جديد فى ظل النظام الشيوعى .

أما عن أهمية بولندا بالنسبة للتاريخ الاوربى الحديث فيبدو فى موقفها الحاسم من توغل القوات العثمانية فى قلب أوربا، وفى إيقافها الزحف العثمانى أمام أبواب مدينة فينا ، فحمت بذلك غرب أوربا من السقوط فى أيدى العثمانيين .

من هذا العرض الموجز لتاريخ بولندا نجد أن تلك الدولة قد دخلت التاريخ الحديث وهى دولة متفككة من الناحية السياسية ، وأثر هذا فى سياسة الدول الثلاث الكبرى المجاورة لها وهى النمسا والروسيا وبروسيا .

المـــانيا

إذا ماذكرنا كلمة ألمانيا فى مستهل التاريخ الحديث وقبل إتمام الوحدة الألمانية فى عام ١٨٧٠ إنما نقصد بذلك تلك الامارات المختلفة التى كان يتكون من مجموعها الشعب الألمانى . فألمانيا كانت عبارة عن أمارات متعددة بعضها

صغير والآخر كبير . وكانت تلك الامارات موطنا للقبائل الشمالية والقبائل الجرمانية التى هاجمت أوربا خلال العصور الوسطى .

وقد استطاع شارلمان تكوين امبراطورية واسعة الأرجاء شملت أجزاء من شمال ايطاليا ووسط ألمانيا والنمسا وأجزاء من فرنسا . ونجح فى إيجاد نوع من الوحدة النسبية لتلك الامبراطورية الواسعة، وأن يتوج امبراطورا عليها فى أوائل القرن التاسع ولم تلبث تلك الامبراطورية ان قسمت فى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ بين أبنائه ، وكان نصيب أحد أبنائه ويدعى لوثير الجزء الواقع شرق نهر الراين وهو ما سيعرف فيما بعد باسم الدولة الرومانية المقدسة .

ونظراً لانقسام ألمانيا إلى إمارات متعددة أن بدأ صراع كبير بين أمرائها الأقوياء للوصول إلى عرش الدولة الرومانية المقـــدسة . وسنجد أن العرش الامبراطورى سيكون مثاراً للخلاف والنزاع المستمر بين الأمراء الأقوياء . بل لقد تعرض هذا العرش فى بعض الأحيان للبيع والشراء . وأصبح يشغله أكثر من امبراطور واحد بعض الوقت . واستمر الحال على هذا الوضع إلى أن استطاعت أسرة الهابسبرج النمساوية من أن تصل إلى عـــرش الامبراطورية فى عام ١٢٧٣ .

ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك الأسرة تتوارث عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة وتركز السلطة فى أيديها إلى حد ما ، وأن تحقق لهذه الامبراطورية الأمن والسلام النسبى . كما استطاعت تلك الأسرة أيضاً أن تلعب دوراً خطيراً فى السياسة الأوربية فى ذلك الوقت ، فاستطاع بعض الأباطرة الأقوياء مثل الامبراطور مكسمليان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر إدخال بعض الاصلاحات فى تلك الامبراطورية الواسعة، وفى أن

يوسع رقعة الامبراطورية عن طريق المصاهرة .

ثم تظهر بعد ذلك شخصية شارل الخامس الذى يعد بحق من أعظم أباطرة أسرة الهبسبرج . وسيحدث بين هذا الامبراطور وفرنسا معارك طويلة للسيطرة على السياسة فى القارة الأوربية ، وسينجح هذا الامبراطور فى السيطرة على السياسة الأوربية وفى توجيه سياستها الوجهة التى يرضاها . وستظل أسرة الهابسبرج النمساوية ترعى النظام الرجعى الاستبدادى وتؤيده فى أوربا . ولهذا ستدخل فى صراع مع فرنسا فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون للوقوف أمام انتشار المبادىء الثورية . وستلعب الامبراطورية النمساوية دوراً هاماً فى التسوية التى وضعت لأوربا عقب سقوط نابليون فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ . فتسوية فينا بهذا الوضع الذى تمت عليه ترجع إلى حد بعيد إلى السياسة الرجعية التى اعتنقتها تلك الأسرة والتى فرضتها على مؤتمر فينا بمساعدة الروسيا وبروسيا . وسيظل توجيه السياسة الأوربية إلى حد ما فى أيدى هذه الأسرة حتى تنتزع منها عقب الحرب العالمية الأولى .

الفصل الثانى

الولايات الايطالية

ظلت ايطاليا تعبيراً جغرافياً إلى أن تمت وحدتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فهى فى مستهل التاريخ الحديث لا تعدو أن تكون عدة ولايات منقسمة على بعضها، ولكن رغم هذا التفكك السياسى فقد أدت الولايات الايطالية أجل الخدمات لدول أوربا فى ذلك الوقت. إذ استطاعت أن تكون مركزاً لحركة النهضة الاوربية، وأن تكون أسبق الدول الأوربية فى الأخذ بأسباب هذه النهضة. ثم تنتقل النهضة الأوربية من ايطاليا إلى غيرها من الدول المختلفة.

وإذا تناولنا تاريخ شبه الجزيرة الايطالية فى العصر القديم نجد أنها كانت مقرا للامبراطورية الرومانية القديمة، تلك الامبراطورية التى عمرت قرون عديدة فى التاريخ القديم، والتى قدمت للانسانية تراثا خالدا، قد تطرق إليها الضعف والإنحلال شأنها فى ذلك شأن كل الحضارات الإنسانية. فتوالت عليها اغارات البرابرة إلى أن تمكن هؤلاء من إسقاطها فى عام ٤٧٦ م.

وتلا سقوط الامبراطورية الرومانية فترة من الاضطراب نتيجة لسقوط هذه القوة الجبارة التى سيطرت على العالم القديم. فهذا الاضطراب راجع إلى الفراغ الذى تركه سقوط هذه الامبراطورية وزوالها من الوجود. وستنتهى تلك الفترة المضطربة بوجود نوع من الاستقرار النسبى، وإلى قيام بعض المحاولات التى ترمى

إلى إيجاد نوع من الوحدة والاستقرار لشبه الجزيرة الايطالية .

فمثلا وجدت محاولة من قبل شارلمان فى النصف الثانى من القرن الثامن سنة ٧٧٦ م فتمكن من بسط سيطرته على شمال ايطاليا وإخضاعها لحكمه . كذلك قامت محاولة أخرى بعد تقسيم امبراطورية شارلمان طبقا لمعاهدة فردان سنة٨٤٣ التى أشرنا اليها من قبل . كذلك وجدت محاولة ثالثة من قبل الدولة الرومانية المقدسة فأخضعت شمال ايطاليا كذلك لحكمها وحققت نوعا من الاستقرار النسبى فى النصف الأول من القرن العاشر .

وبالرغم من هذه الوحدة فقد ظلت سلطة الأباطرة ضعيفة فى ممتلكاتها بايطاليا ولم يصبح للامبراطورية الرومانية المقدسة من السلطة سوى الاسم . وظلت عوامل الفرقة والتفكك الطابع المميز لتاريخ ايطاليا السياسى فى العصر الحديث . ولم تنفرد ايطاليا بهذا الإنقسام السياسى ، بل سبقها إليه المـــدن الأغريقية القديمة، حيث كان من مميزات التاريخ اليونانى القديم فى القرن الرابع قبل الميلاد . ويتشابه تاريخ الولايات الايطالية بتاريخ اليونان القديم فى أن كلا منهما قد تعرض لغزو خارجى، وذاق ويلات الحروب والانقسامات الداخلية . ولكن كلا الشعبين الايطالى واليونانى سيساهم بنصيب وافر فى تقدم الحضارة الإنسانية .

وتميز التاريخ الايطالى فى العصر الحديث بنشوء فئة جديدة من المحاربين تخصصت فى أنواع القتال ووضعت أسس الفنون الحربية الحديثة، وذلك خلال القرن الثالث عشر . إلا أن صناعة الحرب لم تجد هوى فى نفوس الايطاليين ، فتركوا هذه الناحية الحربية لغيرهم من الجنود المرتزقة للقيام بها وعكفوا على على دراسة الآدب والنحت والتصوير والشعر ، وقدموا للانسانية تراثا خالداً

عملت الدول الاوربية على محاكاته بعد ذلك . وقد دفع حب الايطاليين للفنون إلى بعث التراث العلمى والأدبى القديم، والى إحياء هذا التراث فى ثوب جديد يتلاءم مع الظروف السياسية والحضارية لتلك الفترة من الزمان . ثم أخـذ الايطاليون يدخلون تعديلات جوهرية على ما نقلوه من القديم وصبغوه بالصبغة الايطالية، فأصبح يمثل الحالة فى ايطاليا فى مستهل التاريخ الحديث أصدق تمثيل.

وامتاز تاريخ ايطاليا فى تلك الفترة بصفة عامة بالنبوغ فى الفنون والآداب الحديثة ، وفى التعمق فى دراسة هذين الفنين بنوع خاص ، فأخرجت لنا ايطاليا فى هذين الميدانين فنا جديداً فى الرسم والنحت والتصوير والأدب ، واستطاع الفنان الايطالى أن يعبر عن مكنون نفسه بحرية وصراحة لم تعهدها العصور الوسطى، فالأديب أصبح يعبر عن خلجات نفسه بصراحة تامة فى كتاباته . وكـذلك الشأن بالنسبة للشاعر والمصور والمثال،فتلك الصراحة فى التعبير أهم ما يميز الاتجاهات الجديدة فى الفنون والآداب فى العصور الحديثة . ونتيجة لهذا الأسلوب الجديد فى التعبير ظهر عباقرة الفنانين فى مستهل التاريخ الحديث مثل دانـتى وبترارك وميخائيل انجلو ورافاييل وغيرهم . وقد أنتج هؤلاء تراثا خالدا ظـل المثل الأعلى للفن الرفيع طوال العصور الحديثة. ولم تقتصر قيمة تلك الروائع الأدبية والفنية على عصرها فحسب بل لا زال ينظر إلى هؤلاء الفنانين كأساتذة للفن فى العـصر الحديث .

ومما يلاحظ أيضا على تاريخ ايطاليا فى مستهل التاريخ الحديث ضعف سلطة الكنيسة فى روما، ومما ترتب عليه من انصراف الايطاليين عن المثـل والتقاليد الدينية التى عرفت فى العصور الوسطى ، واتجاهاتهم إلى الحياة الواقعية فالاهتمام بالحياة الدنيا وما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون قد حظيت باهتمام كبير .

وقد ارتبط هذا التحول بخروج الناس على قواعد الاخلاق المتعارف عليها، فبدأوا يتحررون من كل القيود التى فرضتها عليهم الأنظمة الوسيطة ، وزاد هذا التحرر عن الحد المعقول . فساد ايطاليا حالة غير طبيعية فى الناحية الاخلاقية كأثر مباشر للثورة العقلية التى سيطرت على تفكير الناس، وعلى نظم الحياة فى عصر النهضة وبدء العصور الحديثة .

ولنسرد بشىء من التفصيل بعض الإمارات الايطالية التى أسهمت فى التاريخ الإيطالى الحديث والتى كان لها دور فعال فى تلك الفترة من الزمان، ولنبدأ بإمارة نابولى .

نابولى[٢]

تشمل هذه الإمارة الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايطالية مضافا اليها جزيرة صقلية، وقد ارتبط تاريخ نابولى بتلك الجزيرة ارتباطا وثيقا . ففى بعض الأوقات كانت تتكون إمارة نابولى من الجزء الجنوبى لإيطاليا وجزيرة صقلية ، وفى الأوقات الأخرى كانت تنفصل تلك الجزيرة عنها . وقد خضعت جزيرة صقلية للحكم العربى فى العصور الوسطى، كما تعرضت أيضا لغزوات النورمانديين خلال القرن الحادى عشر الميلادى . وكان لهذا الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايطالية أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ إيطاليا بصفة خاصة ، وللتاريخ الأوربى بصفة عامة .

فهذا الجزء الجنوبى قد خضع لمؤثرات عربية فترة غير قصيرة ، ثم تلتها مؤثرات نورماندية من القرن الحادى عشر الميلادى . واستطاعت جزيرة صقلية أن تستوعب هاتين الثقافتين، وأن تمزج بين هاتين الحضارتين ، وأن تكون من

هذا المزيج تراثا حضاريا جديدا ، أدى إلى ظهور عقلية جديد وأدب جديدة في جنوب شبه الجزيرة الايطالية وقد حظى هذا التراث الحضارى الجديد بتشجيع الحكام في نابولى ، وعلى الخصوص من فردريك الثانى الذى تولى حكم هذه الامارة خلال القرن الثالث عشر .

وقد اهتم هذا الحاكم اهتماما كبيرا بالنواحى العلمية ، ففى بلاطه بنابولى اجتمع الادباء والشعراء والكتاب ، كما شجع هذا الحاكم حركة الترجمة والنقل من اللغة العربية واليونانية . بل لقد ذهب فى تشجيعه لهذه الحركة إلى حد نسخ التراجم الجديدة وأهدائها إلى الجامعات الايطالية والاوربية .

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر أخذ التنافس يشتد بين فرنسا وبين إمارة أراجون الاسبانية ، وزاد هذا التنافس لمحاولة كل من الطرفين الإستيلاء على الجزء الجنوبى من ايطاليا . وقد شجع هاتين القوتين على هذا التنافس حالة ايطاليا وما بها من ضعف وتفكك تلك الحالة التى أغرت الدول المجاورة على أن تتدخل فى شئون ايطاليا تحقيقاً لمصالحها الخاصة وأغراضها الاستعمارية . وانتهى الصراع بين الطرفين بانتصار أسبانيا وإستيلائها على جزيرة صقلية وقد حقق الحكم الاسبانى لتلك الجزيرة نوعا من الآمن والاستقرار النسبى .

ولم تركن فرنسا لهذه الهزيمة فأخذت تهدد النفوذ الاسبانى فى ايطاليا ، وخصوصاً فى عهد الملك شارل الثامن ملك فرنسا . وهاجمت قوات فرنسا الأراضى الايطالية وسيطرت على بعض أجزاء منها واتخذت فرنسا من وجودها فى ايطاليا مبرراً للتدخل فى شئون ولاية نابولى ، وفى ادعاء فرنسا بحقها فى وراثة عرش نابولى ، وستصبح ايطاليا نتيجة لهذا التدخل الحربى مسرحا للقتال وسيجد الفرنسيون بعد دخولهم ايطاليا أن الحضارة الايطالية أرقى من حضارتهم ،

وسيترتب على هذا إنتقال الحضارة الايطالية من ايطاليا إلى فرنسا وإلى غيرها من الدول الأوربية .

الولايات البابوية

عرفنا خلال العصور الوسطى ذلك الصراع الطويل الذى نشب بين القوتين العالميتين،وهما الامبراطورية والبابوية، والذى انتهى بإنتصار السلطة الزمنية ممثلة فى الامبراطور على السلطة الروحية ويمثلها البابا فى روما. ونتيجة لانهزام البابوية وزوال نفوذها السياسى من أوربا ان اقتصر نشاط البابوات على شبه الجزيرة الايطالية نفسها . أى أن البابوات رأوا أن يعوضوا ما فقدوه من سلطة عالمية على حساب حرية الامارات الايطالية .

وحدث أثناء صراع البابوية مع الامبراطور أن انتقل البابا من روما إلى مدينة آفنيون بجنوب فرنسا . وفى هذا المكان البعيد عن مركز البابوية القديم عاش البابوات معيشة مترفة فيها الكثير من البذخ والاسراف تاركين ، مدينة روما للظروف التى ستقرر مستقبلها . ونتج عن ضعف سلطة البابوية فى روما أن قامت جماعة من الارستقراطية وأخذت تسيطر على ممتلكات البابوية ، ولكن هذه الحركة قد لقيت معارضة من قبل فئة كبيرة من السكان . ونشأت فى ذلك الوقت حركة أخرى مناهضة للحركة الارستقراطية تحت زعامة أحد الايطاليين ويدعى كولا دى رينزى ، لمحاولة توحيد ايطاليا تحت الحكم الجمهورى،واتخذ دى رينزى روما القديمة مادة لإشعال الحماس الوطنى نحو الوحدة لتحقيق ما كان لمدينه روما القديمة من مجد وقوة . ولكن لم يكتب لهذه الحركة النجاح لمعارضة الكثيرين لمبادئها . فيكون نصيبها الفشل وقتل زعيمها فى منتصف القرن الرابع عشر .

وعندما انتقلت البابوية من مدينة آفنيون إلى مدينة روما ظلت تعانى الشيء الكثير من الاضطراب والضعف فترة غير قصيرة . بل لقد وصلت تلك الحالة من الضعف إلى حد وجود بابا فى روما وآخر فى آفنيون . وخضع البابا فى روما للمؤثرات الايطالية، بينما خضع زميله فى آفنيون للمؤثرات الفرنسية . وحاول كل منهما أن يسير فى سياسته إزاء روما وإزاء الولايات الايطالية فى الإتجاه المضاد لسياسة تلك الولايات . فسياسة التدخل فى شئون الولايات الايطالية ومحاولة إخضاعها لزعامة البابا، كانت السياسة المقررة للبابوية فى ذلك الوقت .

ولم يقف تدخل البابوية فى الشئون الداخلية للولايات الايطالية عند هذا الحد فحسب، بل تعداه إلى مقاومة كل حركة ترمى إلى الأخذ بأسباب النهضة وبعث التراث الكلاسيكى القديم . نظراً لأن هذا التراث القديم كان مشبعا بروح الوثنية وبحكم رياسة البابا للكنيسة المسيحية كان من واجبه أن يقاوم هذه النزعات الوثنية وأن يحول بينها وبين الاختلاط بالثقافة والتعاليم المسيحية .

ولكن رغم الجهود الكبيرة التى بذلت فى سبيل إيقاف تيار النهضة قد باءت جميعها بالفشل، ولم يستطع البابوات أن يوقفوا عجلة الزمن أو أن يرجعوها إلى الوراء . ولهذا لم يجد البابوات بداً من مسايرة الحركة، بل وتشجيعها ، فظهر بابوات من أنصار تشجيع الإتجاه الجديد ، ومنهم من كان يقوم بتدريس التراث القديم . وسنجد أن البابوية فى وضعها الجديد ستشجع حركة النهضة فى مختلف النواحى الأدبية والفنية .

وسنلاحظ أيضاً أن مركز البابوية قد أخذ فى التغير فى أواخر القرن الخامس عشر نتيجة لازدياد سلطة حكام الولايات فى ايطاليا . وهذا التفوق فى

السلطة قد صرف جهود الباوات إلى زيادة التدخل فى شئون تلك الولايات بشكل واضح ، وإلى تدبير المؤامرات المختلفة ، وإلى خلق عوامل الفرقة والانقسام حتى لا تتحد تلك الولايات ويقوى نفوذها السياسى فى ايطاليا على حساب النفوذ البابوى ومن أمثلة هؤلاء البابوات الذين اهتموا بالشئون السياسية البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا . وقد اعتلى كرسى البابوية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وكان هذا البابا لا يختلف فى كثير أو قليل — سواء فى حياته العامة أو الخاصة — عن الحكام الزمنيين ، فله بلاط لا يقل فخامة وروعة عن بلاطات ملوك أوربا . كما كان هذا البلاط أيضاً يزخر بالحفلات المختلفة التى لم يكن يراعى فيها بطبيعة الحال قواعد الإخلاق التى تعارف عليها المسيحيون هذا فضلا عن رأس الكنيسة وحامى الديانة المسيحية .

كما اشتهر هذا البابا أيضاً بحبه للمؤامرات والدسائس وسفك الدماء، وحاول أثناء فترة حكمه أن يبسط سلطانه على ايطاليا بمختلف السبل،وأخذ يدعم نفوذ إبنه القيصر بورجيا فى منطقة رومانيا فى ايطاليا .

ومثال آخر لهذا النوع من الباوات ليو العاشر ، وعاش فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وحاول أيضاً السيطرة على إمارات ميلانو وتوسكانا ونابولى ، ولكن ذهبت محاولاته فى هذا السبيل أدراج الرياح .

وخلاصة القول فالبابوية رغم ما بذلته من جهود لتحقيق الوحدة التى تنشدها لايطاليا تحت زعامتها قد باءت بالفشل . وأدى إخفاقها فى تحقيق هذا الهدف الكبير إلى وقوفها بالمرصاد لكل محاولة تقوم بها إحدى الولايات لتوحيد ايطاليا.

أى أن البابوية قد فشلت فى إيجاد وحدة ايطالية، وفى نفس الوقت لم تسمح لغيرها من الولايات بأن تقوم بما عجزت عن تحقيقه .

فهذا التفكك والاضطراب السياسى وعدم إيجاد رابطة قوية تضم تلك الولايات وتوحد بين أهدافها، قد شجع الدول الاوربية مثل فرنسا واسبانيا على التدخل فى شئون ايطاليا . واستطاعت هاتان القوتان من أن تقسم ايطاليا إلى فريقين متناحرين : فريق تحت الحماية الفرنسية وآخر تحت الحماية الاسبانية . وقد أعمت المصالح الخاصة الولايات عن الهدف الرئيسى الذى يحقق المصلحة الايطالية بصفة عامة ألا وهو الوحدة .

ميلانو

تعرضت هذه الولاية لغزوات البرابرة فى العصور الوسطى كما تعرض كل شمال ايطاليا لتلك الغزوات ، وخصوصاً من جانب اللومبارديين . وأصبح شمال ايطاليا جزء من أراضى القوط الشرقيين ، كما أصبحت جزء من الامبراطورية الرومانية المقدسة . وظهر فى ميلانو خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر حكم اتصف بالصبغة العسكرية، وأخذت الامبراطورية الرومانية المقدسة تنيب عنها فى حكم تلك الولاية أحد الرجال العسكريين . ووجد إلى جانب الحاكم العسكرى جماعة من الجنود المرتزقة الذين يحترفون صناعة الحرب والقتال، عرفوا فى التاريخ الايطالى باسم Condottieri ، وكانوا فى أول الأمر من الايطاليين الاشداء الذين نبغوا فى وضع الخطط والاساليب الحربية الحديثة .

ولكن هذا الإتجاه الحربى لن يستمر طويلا فى ايطاليا ، فسرعان ما ينصرف الايطاليون عن أعمال الحرب إلى معالجة مختلف نواحى الفنون والآداب كالرسم

والنحت والتصوير والشعر . وستنتقل تلك الحرفة الحربية من أيدى الايطاليين إلى أيدى جنود أجنبية من عناصر مختلفة الجنسية . ورغم هذا فستشتهر أسرة ايطالية تسمى أسرة سفورزا Sforza بالتقاليد الحربية وبالصبغة الحربية، وتسيطر على شئون الحكم فى ميلانو فى منتصف القرن الخامس عشر .

وسينشأ بين تلك الأسرة وبين البندقية صراع حول السيطرة على الجزء الشمالى من ايطاليا ، وذلك نتيجة لإهتمام البندقية فى ذلك الوقت بالشئون الايطالية بعد أن كان اهتمامها منصرفاً نحو البحر والتجارة . وسيحدث بين الطرفين هدنة حربية عندما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر . وبدأ الخطر العثمانى واضحاً أمام العالم الأوربى فى ذلك الوقت .

وستتمكن أسرة اسفورزا من إيجاد علاقات طيبة مع غيرها من الإمارات الايطالية المجاورة وعلى وجه الخصوص فلورنسا ونابولى . وكذلك مع فرنسا فى عهد لوى الحادى عشر . وعن طريق تلك العلاقات الودية استطاعت أن تستولى على جنوا دون اعتراض من تلك الولايات . وسيؤدى الدور الذى لعبته ميلانو على مسرح السياسة الايطالية إلى تدخل النفوذ الأجنبى فى شئون شبه الجزيرة الايطالية. فعندما تنقض فلورنسا محالفتها مع ميلانو وتنضم إلى جانب أمارة نابولى ، تضطر ميلانو إلى الإلتجاء إلى فرنسا طالبة حمايتها تحقيقاً لمصلحتها الشخصية على حساب الإمارات الايطالية الأخرى . وتتدخل فرنسا بالفعل لصالح ميلانو وتصبح شبه الجزيرة الايطالية مهددة من النفوذ الفرنسى وفريسة للأطماع الاستعمارية .

جمهورية البندقية

نشأت تلك المدينة على بضع جزر ايطالية قريبة من الساحل الايطالى فى الطرف الشمالى الغربى البحر الأدرياتى ، وقد تكونت تلك المدينة كملجأ للعناصر الايطالية الفارة أمام ضغط إغارات قبائل الهون تحت قيادة أتيلا فى القرن الخامس الميلادى ، وحاولت تلك العناصر الضالة أن تجد لها مأوى فى تلك الجزر البعيدة عن الساحل الايطالى والتى كانت تعتبر فى ذلك الوقت فى مأمن من غزوات تلك القبائل . واستطاع السكان أن ينشئوا لهم مساكن فوق صخور تلك الجزر،وأن يشتغلوا بصيد الأسماك وبالتجارة مع المناطق القريبة لتلك الجزر. ولما كانت الأراضى الايطالية تكاد تكون مغلقة فى وجوه هؤلاء السكان ، فقد ولوا وجوههم شطر البحر وأخذوا يكونون لهم المراكز التجارية المختلفة على سواحل البحر الأدرياتى وساحل دلماشيا .

استطاعت إذاً هذه العناصر المهاجرة أن تثبت أقدامها فى تلك المدينة، وأن توسع نشاطها التجارى ليشمل الجزر اليونانية وجزر الأرخبيل وسواحل الشرق الأدنى فى الاناضول والشام،وأن تحصل على إمتيازات ومساعدات من قبل الدولة البيزنطية التى كانت تسيطر وقتئذ على شرق البحر المتوسط .

وعندما قامت الحروب الصليبية بين الشرق والغرب لعبت البندقية دوراً رئيسياً فيها،واشتغلت بنقل التجارة بين الشرق الأدنى وأوربا، وأثرت من هذه العملية ثراء واسعا. كما أنها اشتركت فى الحرب الصليبية التى وجهت إلى القسطنطينية وطردت الحكومة البيزنطية إلى مكان بعيد فى شبه جزيرة الاناضول .

وتختص البندقية بميزة هامة انفردت بها عن سائر الامارات الايطالية المختلفة

ألا وهى استقرار نظام الحكم فيها إستقراراً تاماً . فوجد بالمدينة ما يسمى بالمجلس الكبير، وإلى جانبه مجلس آخر يسمى مجلس الشيوخ ، ثم مجلس ثالث ويسمى مجلس العشرة . وكان يتكون من عشرة أعضاء ممن يتمتعون بقوة ونفوذ. وعلى رأس الحكومة حاكم يدعى الدوج وينتخب لهذه الوظيفة مدى الحياة . وهذا يدل على مدى الاستقرار والثبات فى نظام الحكم . ونتيجة لهذا تركزت السلطة فى يد طبقة الارستقراطية الاوليجاركية Oligarchy . كما هيأت لها ظروفها الاقتصادية أن تجمع ثروة هائلة والى إستخدام تلك الثروة فى النواحى التجاريه ونواحى العمران ، وفى زيادة قوتها الحربية ونفوذها السياسى . فمثلا لم تعرف البندقية نظام الأحزاب المتضاربه التى عرفته سائر الإمارات الايطالية الأخرى ، كما أنها لم تعرف أيضا نظام الاقطاع ووجود طبقة من رجال الاقطاع تنافس رأس الدولة فى سلطته السياسية، نظراً لان الاقطاع قد نشأ مرتبطا بالأرض إرتباطا وثيقا . وبما أن البندقية لم تكن تمتلك من الأرض إلا جزءا يسيرا، لهذا فقد انعدم السبب فى وجود الاقطاع .

ولكن النفوذ والسلطة تركزت فى هذة المدينة فى يد الطبقة المسيطرة على التجارة ، فرأس المال إذاً أصبح يعتمد على البضائع التى تحملها السفن عبر البحار لا على الأرض ، وسيؤدى الدور السياسى الذى ستقوم به البندقية إلى التدخل الأجنبى من قبل فرنسا ، وخصوصا بعد أن زاد اهتمام تلك المدينة بالشئون الداخلية لإيطاليا بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح . فكان هذا الكشف من الأسباب الجوهرية التى وجهت اهتمام البندقية إلى الأراضى الايطالية بعد أن فقد البحر المتوسط أهميته بالنسبة لها . وترتب على زيادة اهتمام البندقية بالمشاكل الايطالية دخولها فى صراع مع غيرها من الإمارات واستعانه البعض

بالنفوذ الأجنبي لمساندته وتأييده ضد الفريق الآخر .

وستحاول البندقية تزعم حركة الوحدة فى إيطاليا، وأن تجمع شتات الإمارات تحت سلطة واحدة . ولكن البابوية كما سبق أن ذكرنا كانت تحاول القيام بنفس الدور ولم تنجح ، فأثار هذا عوامل الحقد فى نفسها ضد البندقية ، فعارضت قيام الوحدة تحت زعامة أخرى غير زعامتها . وسنجد أن الخلافات المتعددة بين وجهات النظر المختلفة لتلك الولايات كانت الصخرة العاتية التى تحطمت عليها كل الجهود التى بذلت فى سبيل الوحدة ، ولم تستطع البندقية رغم ما كانت تتمتع به من قوة ونفوذ أن تصمد أمام هذا التيار الانفصالى الشديد . وسنرى أن دور البندقية كإمارة قوية ينتهى بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة العالمية إلى أيد جديدة تمثلت فى أسبانيا والبرتغال ، ومن بعدهما هولندا ثم الدول الغربية الكبرى كانجلترا وفرنسا. ومرة ثانية تصبح فى القرن التاسع عشر جزءاً من المملكة الايطالية الموحدة .

فلورنسا

كانت فلورنسا قرية صغيرة فى عصر الأتروسكيين Etruscans وهو العصر السابق للعصر الرومانى القديم .ثم احتلها الرومان بعد ذلك وأخذت خلال العصر الرومانى فى النمو والاتساع بفضل موقعها الجغرافى على الطريق التجارى الهام الذى يصل إيطاليا بألمانيا . وقد أدى هذا الموقع التجارى الفريد إلى أن تصبح تلك المدينة بمرور الزمن من المدن الايطالية العظيمة فى القرن السادس عشر .

أما عن الفترة التى تمتد من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر فكانت من أزهى العصور بالنسبة لفلورنسا ،إذ شمل الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية نشاط كبير . وسيكون للموقع الجغرافى لتلك المدينة ،وللثروة الكبيرة التى جمعتها

عن طريق التجارة ، والحياة السياسة العنيفة التى عاشتها ، أثر كبير فى تكوين العقلية الفلورنسية وإلى توقدها وإكتسابها المقدرة على التطور وملاءمة الظروف طبقا لمقتضيات الأحوال الجديدة .

وسنجد أن هذا التطور فى التفكير الفلورنسى وفى العقلية الفلورنسية سيؤثر فى تطوير العقلية الايطالية بأكملها . وستنتقل الأفكار الجديدة التى نبعت فى فلورنسا من إيطاليا إلى خارجها .

وإذا نظرنا إلى فلورنسا من الناحية الاقتصادية، فسنجد أن تلك المدينة قد لعبت دوراً هاما فى الاقتصاد الأوربى خلال عصر النهضة، إذ سيكون من نتيجة تركيز الأموال الطائلة التى جمعتها تلك المدينة عن طريق التجارة إلى أن تكون فلورنسا من أوائل الدول -إن لم تكن الأولى- فى تأسيس البنوك والمصارف لخدمة الاقتصاد الفلورنسى وتنمية المشروعات المختلفة . بل ستقوم تلك البنوك بإقراض بعض الملوك والبابوات فى أوربا، فمثلا ستقرض فلورنسا الملكية الانجليزية- فى حرب المائة عام . كما ستقرض بعض ملوك فرنسا لتنفيذ بعض المشروعات كإنشاء المبانى والمنشآت الضخمة التى تحتاج إلى أموال كثيرة . ومن هذا نرى مدى ما كانت تتمتع به فلورنسا من ثراء . واستخدمت هذه المدينة تلك الثروة الطائلة فى بعث التراث اليونانى القديم والنهوض بمخلف الفنون والآداب .

أما من الناحية السياسية فقد امتازت فلورنسا بالنظام الحزبى وبالصراع الداخلى العنيف . وقام هذا الصراع بين حزبين كبيرين أحدهما يسمى حزب الجبليين والآخر حزب الجولف . أما الحزب الأول وهو حزب الجبليين فكان يناصر الامبراطورية، بينما وقف الحزب الثانى إلى جانب البابوية . فكان هذا الصراع

الحزبى العنيف يستند إلى جذور تعمقت فى الماضى البعيد، وترجع إلى أيام الصراع الطويل الذى نشأ خلال العصور الوسطى بين الامبراطورية والبابوية .

كما ساعدت عوامل أخرى جديدة على إذكاء هـــذا الصراع وإلى إستمـرار النزاع الداخلى والتطاحن بين الطبقات كالمنافسة بين المدن الايطالية المختلفة أو المنافسة بين الأسر الحاكمـــة ، أو تعارض المصالح السياسية أو الاقتصادية لتلك المدن .

وقد امتاز كل من هذين الحزبين بميزات هامة كان لها أثر كبير فى توجيه النشاط السياسى وجهة خاصة، فمثلا إمتاز حزب الجبليين بميل أعضائه إلى التحرر وعدم الاهتمام كثيراً بحقوق الشعب الفلورنسى . فهـــم حريصون على تحقيق أطماعهم الشخصية ، ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يعملون على جذب الرأى العام إلى جانبهم عن طريق منحه إدارة شئون الدولة والتمتع بنوع خاص من الحكم الديموقراطى . كذلك امتاز هذا الحزب بسعة الأفق وبالنظرة الواقعية إلى الأمور وبعدم التعصب . وكانوا يعملون بطبيعة الحال على سيادة سلطة الامبراطور على حساب سلطة البابا .

أما الحزب الثانى وهو حزب الجولف فغالبية أعضـائه من الطبقـة الوسطى التى أثرت عن طريق الاشتغال بالتجارة . وقد اتصف أعضـاء هـذا الحـزب بميلهم إلى التمسك بالعقائد الدينية والتعصب لآرائهـم ، واستطاعوا تكوين جبهة قوية لـلدفاع عن حرية الشعب ضد طغيـان الحـكام . واستغـل سافونارولا Savona Rola هذا الشعور لدى الطبقـة الوسطى لاذكاء روح المقـاومة لدى الشعب وتحريضه على مقاومة سلطان أسرة مديتشى Medici وطغيان البابوية

وقد أدى انقسام الشعب الفلورنسى إلى حزبين كبيرين إلى استمرار النزاع بين الطبقات .

وقد اتخذ التنازع الحزبى صبغة عنيفة فلجأ أنصار الحزبين إلى التطاحن فى الشوارع والطرقات، بل كان من المظاهر المألوفة فى تاريخ حياة فلورنسا السياسى أن يقوم الحزب المنتصر ببناء منشآته بمخلفات قلاع الحزب المنهزم من أحجار وأخشاب . كما تميز الصراع السياسى فى فلورنسا بالانقلابات السريعة والمفاجئة، أو ما يسمى فى الاصطلاح التاريخى Coup d'état وفى هذه الفترة المضطربة من تاريخ فلورنسا عاش دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١) وتجاوب مع أحداثها واشترك فيها . وحاول خلق جو من الاستقرار ، ونادى بضرورة إيجاد وحدة تضم شتات الإمارات الايطالية . ولكن عوامل الفرقة والتنازع كانت أقوى من أن تصمد أمامها دعوة دانتى أو غيره من دعاة الاصلاح .

وتبلورت الفوضى السياسية والانقسام الداخلى فى المنافسة التى قامت بين الأسرتين الكبيرتين فى فلورنسا، وهما أسرة مديتشى Medici وأسرة البيزى Albizzi . وساد جو العلاقات بينها موجة من الشدة والعنف إلى أن تمكنت أسرة مديتشى فى نهاية الأمر من أن يكون لها الغلبة فى النصف الأول من القرن الخامس عشر . واستطاعت فلورنسا تحت حكم أحد أفراد أسرة مديتشى ويدعى كوزمو دى مديتشى . أن تنعم فترة من الزمن باستقرار سياسى وهدوء داخلى لم تعهده البلاد من قبل . وقد استند هذا الحاكم فى تدعيم سلطته على تأييد الطبقة العامة التى منحها جزءا من الحكم الديموقراطى . ومن أشهر شخصيات تلك الأسرة لورنزو دى مديتشى Lorenzo di Medici ، وكان يطلق عليه فى ذلك الوقت لورنزو

العظيم . ويعد بحق من أعظم الشخصيات التى ظهرت فى عصر النهضة ، فقد امتاز هذا الحاكم بمقدرة سياسية كبيرة . وكذلك امتاز بميله إلى تشجيع الآداب والفنون . كذلك اشترك مع ميلانو والبندقية فى تكوين جبهة متحدة ضد البابوية الغرض منها الحد من نفوذ البابا وتدخله فى الشئون الايطالية ، والوقوف ضد التدخل الأجنبى . ومما ساعد على هذا التقارب بين الإمارات الخطر العثمانى الذى كان يهدد أوربا فى ذلك الوقت .

وستحتل فلورنسا مركز أثينا فى العالم القديم ، فستقف فلورنسا موقف المعلم بالنسبة لأوربا . فمن تلك الإمارة انبعثت حركة إحياء التراث القديم . وسيترتب على هذه الحركة العلمية إنشاء الأكاديمية الأفلاطونية . وإلى جانبها مكتبة عامرة بمختلف المؤلفات النادرة من أمواله الخاصة . وكان من شدة ولعه بالفنون الجميلة أن جعل أحد قصوره مدرسة للفنون الجميلة يتلقى فيها الراغبون فى الفنون مختلف فروع الفن ، وسيقوم بالتدريس فى تلك المدرسة ميخائيل انجلو وغيره من كبار الفنانين .

وإذا نظرنا إلى الأدب نجد أنه قد وصل إلى قمة مجده على يدى دانتى . فمؤلفات هذا الشاعر والكاتب الكبير تعبر تعبيراً صادقا عن روح هذا العصر ، فاحساساته العميقة الصادقة ، وشعوره المرهف ، وتعبيره الصادق عما يجيش بصدره من انفعالات قد بدت واضحة جلية فى كتاباته التى لم تعهدها كتابات العصور الوسطى من قبل .

وقد أشرنا آنفا إلى أن ساقونا رولا قد حاول استغلال الطاقة الضخمة التى تكمن فى الطبقة الوسطى لتوجيهها نحو تحقيق مشروعاته الاصلاحية والقضاء على الفوضى السياسية والدينية التى سادت فلورنسا وقتئذ . ووجد سافونا رولا

أن مشروعاته الإصلاحية لن يكتب لها النجاح إلا إذا استطاع القضاء على السيطرة السياسية لأسرة مديتشى ، وكذلك تدخل البابوية فى الشئون السياسية لفلورنسا ، ومحاولة إصلاح رجال الدين وإرجاعهم إلى حياة البساطة الأولى التى عرفها المسيحيون القدماء .

وقد أخطأ سافونا رولا فى مهاجمته لأسرة مديتشى وللبابا ورجال الدين وللفوضى الخلقية التى سادت فلورنسا فى وقت واحد ، وقد أدى ذلك إلى تكاتف كل هذه القوى فى نهاية الأمر ضده والقضاء عليه . فهاجم طغيان أسرة مديتشى، كما هاجم أيضا رجال الدين واتهمهم بالخروج على قواعد الديانة المسيحية السليمة، وبحياة الترف التى يحيونها . ولم يسلم البابا من هجماته العنيفة بصفته الرئيس الأعلى للكنيسة المسيحية . وكان سافونا رولا فى هجماته هذه يعتمد اعتماداً كبيراً على قوة الطبقة الوسطى الموالية له .

نجح سافونا رولا فى أن يشيع الروح الخلقية بين أهل فلورنسا إلى حد ما ، وأن يلزم الناس بالتزام حدود أخلاقية معينة فترة من الوقت . ولكن تحفز الرجعية ، وتكاتف النبلاء من أسرة مديتشى والمعارضين له ، بالاضافة إلى مقاومة البابوية لحركته الاصلاحية الجديدة كلها قد عملت على القضاء على تلك الحركة ، خصوصا وأن حالة فلورنسا قد ساءت فى أواخر أيامه الى حشد كبير ، نتيجة لتهديد البابا أهل فلورنسا بالحرمان ، ووقوع المدينة تحت ضغط الحصار من قبل قوات أجنبية . فأمام تلك الظروف العصيبة التى أحاطت بالمدينة اضطر أعوان سافونا رولا وأصدقاؤه الى التخلص منه فقاموا بقتله واحراق جثته .

تلك صفحة من صفحات تاريخ فلورنسا فى عصر النهضة ومستهل التاريخ

الحديث، وستدخل فلورنسا بعد ذلك فى صراع مع النفوذ الأجنبى الدخيل فى سبيل السيطرة على ايطاليا وستتعرض فلورنسا للغـزو الأسبانى ، ثم يتضـاءل نفوذها بانتهاء عصر النهضة. ثم تصبح بعد ذلك جزءاً من الامبراطورية النمساوية المجرية خلال القرن الثامن عشر . وتتعرض بعد ذلك لهجمات نابليون ، وتدخل فى نطاق الممتلـكات الفرنسية فى أوائل القرن التـاسع عشر . وفى عام ١٨٦١ تصبح فلورنسا جزءا من المملكة الايطالـية المتحدة وعاصمة لها فى الفـترة من ١٨٦٥ - ١٨٧١ . ثم تأخذ الآن مكانها كمدينة هامة من المدن الايطالية .

الفصل الثالث

حركة الكشوف الجغرافية

تعتبر حركة الكشوف الجغرافية من العوامل الهامة التى أدت إلى انتقال أوربا إلى العصر الحديث . وقد سارت تلك الحركة جنباً إلى جنب مع حركات الاصلاح الدينى وبعث التراث القديم . ففى خلال العصور الوسيطة كانت معرفة الناس بالعالم المحيط بهم معرفة ضيئلة لم تكن تتعدى السواحل الشمالية للقارة الأفريقية وجزء صغير من ساحلها الشمالى الغربى . وكان الناس فى ذلك الوقت يعتقدون أن حدود العالم لا تتجاوز الصحراء الكبرى ، وأن المحيط الاطلسى يمتد إلى ما لا نهاية . وأن هذا المحيط مأوى للوحوش والشياطين ، وأنه لايمكن للجنس البشرى أن يتوغل فيه أو يخوض غماره .

واعتقدوا أيضاً فى وجود صخور فى البحر تجذب إليها السفن إذا ما اقتربت منها، وأن فى تلك الصخور قوة خارقة تمكنها من اقتلاع مسامير تلك السفن وإغراقها . واعتقدوا أيضاً فى استحالة عبور خط الاستواء لأنه من أبواب جهنم .

تلك كانت معرفة الناس عن العالم المحيط بهم خلال العصور الوسطى . ولكن هذه الخرافات رغم ما تشتمل عليه من عنصر التخويف فانها أيضاً كانت تحتوى على عنصر التشويق للقيام بمغامرات فى تلك البحار للوصول إلى المجهول،

خصوصاً وأن الخرافات التي سادت في هذا العصر كانت تعد هؤلاء المغامرين - إذا ما استطاعوا اجتياز تلك العقبات التي ستلاقيهم في البحر - بالأنهار التي تجرى على أرض من ذهب ، وبالجبال التي تشع منها أنوار الأحجار الكريمة .

وليس معنى هذا أن حركة الكشف الجغرافي لم تعرف من قبل إلا في مستهل التاريخ الحديث ، بل لقد قام الأقدمون من الفينيقيين والقرطاجنيين برحلات إلى سواحل البحر المتوسط ، الهدف منها إيجاد صلات تجارية مع تلك المناطق . وكذلك فعل العرب في العصور الوسطى ، فقد قاموا برحلات برية وبحرية إلى بعض مناطق من افريقية الشرقية والهند ، واستطاعوا الوصول إلى جزر كناريا أو جزر الخالدات . وقد كشفت تلك الجزر عدة مرات وتعرضت للغزو منذ أقدم العصور فكشفها الفنيقيون والقرطاجنيون والعرب وأهل جنوة والنورمنديون والبرتغاليون والاسبانيون والفرنسيون . كما اتخذها القرطاجنيون كمأوى لهم يعتصمون فيه إذا ما هوجمت مراكزهم في البحر المتوسط . وقاموا أيضاً برحلات برية في وسط افريقيا الشمالى ووصلوا إلى منطقة غانة في غرب افريقيا ، وقد سجلها الادريسي الجغرافي العربي في خريطته التي وضعها في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي .

أما عن الكشوف الجغرافية التي تمت في مستهل التاريخ الحديث فترجع أولا وقبل كل شيء إلى ذلك الصراع الديني الذي قام في شبه جزيرة ايبيريا بين الاسبانيين والعرب في أواخر الحكم العربي . وقد اعتمد الاسبانيون في صراعهم مع العرب على إثارة الحمية الدينية والتعصب الديني ضد العنصر الاسلامي . واستطاع الاسبانيون دفع العرب إلى خارج شبه الجزيرة الايبيرية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل إن تلك الموجة المسيحية المنتصرة رأت أن تتعقب العرب فى شمال افريقية للقضاء على قوتهم هناك حتى لا يفكروا مرة ثانية فى العودة إلى غزو اسبانيا . وكذلك عمدوا إلى نشر الديانة المسيحية بين سكان شمال افريقيا الوثنيين كى يضعفوا من شوكة المسلمين ، ويوجدوا فى تلك البلاد عنصراً مناوئا للنفوذ الإسلامى .

وقد تطورت حركة المقاومة الايبيرية من مجرد طرد العرب من شبه الجزيرة وتعقبهم فى شمال افريقيا إلى التفكير فى محاصرة العالم الاسلامى والقضاء على مصالحه فى الشرق . وهذا ما دفعهم إلى السير حول القارة الافريقية للوصول إلى قلب العالم الاسلامى وسلب التجارة من أيدى العرب، وبذلك يتمكنوا من توجيه أقوى الضربات إلى المسلمين .

فحركة المقاومة الداخلية فى شبه جزيرة ايبيريا قد تطورت إلى حركة توسع وفتح والى إيجاد امبراطورية واسعة . وقد أعطانا التاريخ أمثلة عديدة لتلك الحركات ففى مصر القديمة استطاع احمس الأول طرد الهكسوس من مصر وتتبع فلولهم المنهزمة فى الشام ، وضم تلك البلاد إلى مصر وتكوين الامبراطورية المصرية القديمة .

كذلك من العوامل التى شجعت البرتغاليين وهم أول من قام بحركة الكشوف فى ذلك الوقت ، رحلة ماركو بولو (١٢٧١-١٢٩١) إلى الصين ، وما كتبه فى وصفها وما تتمتع به من ثورة واسعة ، ومدى ما يمكن للعالم الغربى أن يستفيده إذا ما استطاع إنشاء علاقات تجارية مع تلك البلاد الغنية . وكان لكتابته أثر كبير فى توجيه بعض الناس وخصوصاً المشتغلين بالتجارة إلى التفكير

فى إيجاد علاقات مع تلك المناطق النائية من العالم .

كذلك كان لحاجة أوربا الشديدة إلى البهارات والتوابل التى كانت تستورد من الشرق والتى تستخدم فى تجفيف وحفظ لحوم ما شيتهم. وكانوا أيضاً فى حاجة إلى بعض العقاقير لعلاج الأمراض ، مثل الأفيون الذى كان يستعمل كمسكن للأوجاع والآلام . وكانت تلك المنتجات الزراعية تصل إلى أوربا من الشرق عن طريق الخليج الفارسى أو البحر المتوسط . ويقوم باحتكارها المماليك والبنادقة الذين أثروا من تلك التجارة ثراء عريضاً، ومكنهم هذا من أن يلعبوا دورا هاماًفى التاريخ ، مما دفع الأوربيين إلى التفكير فى طريق آخر يصلون به إلى كنوز الشرق وينتزعون تلك التجارة من أيدى المماليك والبنادقة .

وكان البرتغاليون أسبق إلى هذا التفكير من سواهم من شعوب أوربا نظراً لظروفهم والطبيعة أرضهم . فالشعب البرتغالى يقطن منطقة ساحلية جبلية ضيقة . وهو فى نفس الوقت لا يستطيع التفكير فى التوسع على حساب الاسبانيين نظراً للمقاومة الشديدة التى يلقاها على أيديهم . فليس أمامه إذن سوى توجيه نشاطه إلى خارج البلاد .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فطبيعة أرض البرتغال فقيرة لا تفى بحاجيات السكان ، ولذا فقد دفعت بأبنائها إلى الخارج شأنها فى ذلك شأن اليونان .

هذا بالإضافة إلى استبداد الملكية البرتغالية، مما حدا بالأمراء البرتغاليين الطامحين إلى السلطة والجاه إلى التفكير فى ترك بلادهم والتعبير عن نشاطهم فى خارجها .

كما أن شعور اسبانيا والبرتغال بقوميتهما أثر فى طرد العرب واستكمال نموهما

السياسى وظهورهما فى المجتمـــع الأوربى كدولتين حديثتين تعملان على صونُ الاستقلال السياسى بدعم الاستقلال الاقتصادى . ولهذا فقد لجأت الدولتان إلى تنفيذ تلك السياسة فى ظـل الكشوف الجغرافية تدفعهما الرغبة فى بناء اقتصادهما القومى ونشر الديانة المسيحية .

ومن حسن حظ هاتين الدولتين أن القوتين الكبيرتين فى أوربا وهما انجلترا وفرنسا كانتا مشغولتين بتحقيق مآربهما السياسية فىالقارة الاوربية ، فساعد هذا فى قيام الدولتين بحركة الكشوف الواسعة التى مكنتها فى فـترة وجيزة من تحقيق أرباح طائلة وتكوين امبراطوريتين كبيرتين .

الكشوف البرتغالية

شاءت الظروف إذاً أن يكون البرتغاليون أول من يطرق هذا الباب من الاوربيين وساعدهم الحظ بأن حظيت فكرة الكشف بتأييد الامير هنرى الملاح أحد أبناء الملك جون الأول الذى نجح فى طرد العرب من البلاد . وكان هذا الأمير يتحلى بصفات كريمة فهو شجاع وملم بالمعلومات الرياضية والجغرافية التى عرفت فى ذلك الوقت . كما كان متحمسا لنشر الديانة المسيحية بين سكان افريقيا، خصوصاً وأنه قد اشترك مع أبيه فى تعقب العرب فى شمال افريقيا ، واستطاع أثناء إقامته بتلك البلاد أن يتعرف على أهلها وأن يلم بأحوالهم .

تزعم اذاً الأمير هنرى حركة الكشف الجغرافى ، وكان هدفه منها مقاتلة المسلمين وتحويل الوثنين من أهل البلاد المكتشفة إلى الديانة المسيحية، بل لقد ذهب به خياله إلى حد التفكير فى إيجاد محالفة بينه وبين الحبشة المسيحية لمهاجمة المسلمين ومحاصرتهم فى عقر دارهم وانتزاع التجارة وهى مورد ثروتهم وقوتهم من أيديهم. فالغرض الدينى إذاً واضح فى تلك الكشوف الجغرافية البرتغالية .

وبطبيعة الحال ما كان لتلك الحركة أن تقوم لولا تشجيع الأمير هنرى لها بنفوذه وماله ، إذ لم يكن يجرؤ أحد من المشتغلين بالتجارة على المغامرة بثروته فى حركة مجهولة النتائج غير محققة الفائدة .

لم يقم الأمير هنرى بتلك الحركات الكشفية بنفسه ، بل كان يرسل البعوث المختلفة على نفقته الخاصة للكشف عن مجاهل الشاطىء الافريقى الغربى ، فكانت

معلومات الأوربيين بساحل افريقيا الغربى تقف عند رأس نان . C. Nan فتركزت البعوث الكشفية إذاً فيما يلى تلك الرأس . واستطاع البرتغاليون أن يتقدموا على طول الساحل الافريقى نحو الجنوب إلى رأس بوجادور Bojador حيث أخذوا يرتادون تلك المنطقة الصحراوية التى تشبه إلى حد بعيد صحراء ليبيا فى شىء من اليأس وخيبة الأمل .

وقد أزعجت تلك النتيجة البرتغاليين ، وقامت فى البرتغال حركة ترمى إلى مقاومة حركة الكشف باعتبارها مجهوداً ضائعاً لا يرجى من ورائه أية فائدة. ولكن حركة المقاومة هذه تحطمت أمام عزم الامير هنرى واصراره على مواصلة الكشف مهما كانت النتائج . وتمكن البرتغاليون نتيجة لذلك من اجتياز رأس بوجادور والتوغل جنوباً حيث عثروا على بعض النباتات مما شجعهم على المضى فى توغلهم إلى أن وصلوا إلى نهر ارزنجى arzangi . وفى ذلك الوقت طلب الأمير هنرى من البابا الموافقة على ضم كل الاراضى المكتشفة إلى التاج البرتغالى، فأجيب إلى طلبه .

وأخذت البعوث الكشفية البرتغالية تواصل نشاطها فى إلقاء القبض على العناصر الزنجية سعياً وراء إدخالها فى الديانة المسيحية . وكان لهذا العمل أكبر الأثر فى تعضيد الرأى العام البرتغالى للحركة ، وفى تكوين شركة تقوم بمواصلة الكشف، والتبادل التجارى . وكانت مواد تلك التجارة تتكون من بيض النعام وريش النعام والعبيد .

وكان وصول تلك الثروات إلى أيدى البرتغاليين حافزاً لهم على مواصلة جهودهم فى الكشف حتى وصلوا إلى الرأس الابيض C. Blanco ثم تجاوزه

إلى مصب نهر السنغال . وكان ظهور البرتغاليين فى تلك المناطق بسفنهم التجارية مثيراً لدهشة الأهالى وعجبهم .

ثم تبع ذلك كشف الرأس الأخضر C. de Verd حيث أخذ البرتغاليون فى التريث قليلا لتوطيد مركزهم التجارى لإيجاد أسواق ومراكز تجارية كالتى أنشأوها فى جزر ارجيوم Arguim .

ثم تتطور حركة الكشوف الجغرافية تطوراً كبيراً بظهور شخصية كادامستو Ca-da-mosto البندقى الأصل . وقد وجد فيه الأمير هنرى بحاراً شجاعا وعلى درجة كبيرة من الإلمام بالمعلومات الجغرافية السائدة عصره، وبأحوال السكان فى غرب افريقيا . فأسند إليه مهمة مواصلة حركة الكشوف وتنظيم التجارة بين تلك المناطق والبرتغال .

واصل كادامستو تقدمه على الساحل الأفريقى الغربى إلى أن وصل إلى بلاد الجالون شمالى نهر جمبيا Gambia وسكان تلك المنطقة من المسلمين . وقد دهشوا لرؤية البرتغاليين ببشرتهم البيضاء وملابسهم المزركشة .

حاول كادامستو الصعود فى نهر جمبيا، ولكنه قوبل بمقاومة شديدة من قبل الأهالى الزنوج فعدل عن المضى فى النهر ، ولكنه عاد إلى تلك المحاولة مرة ثانية، واستطاع أن يتوغل فى النهر إلى مسافة أبعد مما وصل اليها فى المرة السابقة . ثم تقدم بعد ذلك على طول الساحل جنوباً إلى أن وصل إلى رأس ركسو Roxo ومنها إلى سيراليون التى تعتبر أقصى ما وصل إليه تقدم البرتغاليين فى عهد أميرهم هنرى .

وسنجد أنه بوفاة هذا الأمير تصاب حركة الكشوف الجغرافية بفتور شديد

نتيجة لعدة عوامل ، منها أن تلك الحركة قد فقدت بموت الأمير هنرى القوة الدافعة واليد الممولة . هذا بالإضافة إلى اعتقاد البرتغاليين فى ذلك الوقت بأن الساحل الأفريقى يمتد شرقا إلى ما لا نهاية . زد على ذلك ظهور نظرية توسكانيلى Toscanelli الجغرافى التى كانت تنادى بأنه ما دامت الأرض كروية فالوصول إلى الهند لن يكون بالسير شرقا، بل العكس هو الصحيح. وكادت تلك النظرية تقضى على حركة الكشوف وتمحو كل الجهود التى بذلت من قبل .

وقد كتب لحركة الكشوف البرتغالية أن تعود من جديد فى عهد الملك الفونس Alfonso ، واستطاع البرتغاليون الوصول إلى ساحل الذهب ومصب نهر الكونغو .

وفى ذلك الوقت ظهرت شخصية جديدة هى شخصية بارثلوميو دياس Bartholomeu Dias الذى أخذ على عاتقه إتمام ما بدأه أسلافه من قبل ، فسار فى محازاة الساحل الأفريقى الغربى الى جنوب افريقيا والى منطقة أطلق عليها اسم رأس العواصف C. Offormentoso تيمنا بهذا الكشف الكبير، وأملا فى الوصول الى الهدف المنشود .

ولم يمض على كشف رأس الرجاء الصالح عشر سنوات حتى استطاع مكتشف آخر يدعى فاسكو داجاما Vasco de Gama أن يطوف حول هذا الرأس ، وأن يتجه شمالا فى محازاة الساحل الأفريقى الشرقى ، وأن يتصل بسكان تلك الجهات مثل قبائل الهوتنتوت Hottentot والبانتو Bantu . ثم واصل سيره الى موزمبيق وممباسا حيث اصطحب معه أحمد البحارة ليعاونه على عبور المحيط الهندى ، وتمكن بمساعدته من الوصول الى كاليكوت Calicut فى مايو سنة

١٩٤٧ ، حيث قابل ملك المنطقة وقدم له بعض الهدايا التى أخذها من البرتغال .

وقد حدثت مصادمات بين الوطنيين والبرتغاليين ، وتمكن فاسكو داجاما فى النهاية من أن يرحل عن الهند. بعد أن فقد ثلثى رجاله وأخذ معه بعض المنتجات الهندية التى غطت أثمانها نفقات تلك الرحلة عدة مرات .

ومنذ ذلك الوقت أدرك البرتغاليون مدى الثروة العظيمة التى يستطيعون الحصول عليها من احتكارهم لتلك المنتجات ، فعملوا على تأسيس امبراطورية تجارية لهم فى الهند. وسنجد أن الاستعمار البرتغالى يختلف فى طبيعته عن الاستعمار الانجليزى أو الاستعمار الفرنسى . فالبرتغاليون لم يهتموا بالاستعمار من ناحية نظم الحكم أو من ناحية التوغل داخل الهند وضم مساحات كبيرة إلى التاج البرتغالى ، لأن هذا العمل سيتطلب وجود حامية برتغالية كبيرة العدد لتأمين سلامتها أثناء إقامتها فى تلك الاقاليم الواسعة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فالبرتغاليون بطبيعتهم رجال تجارة وتغلب عليهم الصفة التجارية . ونتيجة لذلك فلم يهتم البرتغاليون سوى بإيجاد مراكز تجارية لهم على الساحل تكون منافذ لهم على بحار الهند .

وقد تم لهم تأسيس تلك الامبراطورية التجارية بفضل جهود ثلاث شخصيات برتغالية لعبت دوراً خطيراً فى توطيد دعائم الاستعمار البرتغالى فى تلك الجهات، وفى القضاء على نفوذ العرب المسلمين، وانتزاع التجارة من أيديهم وهو الهدف الاسمى لتلك الكشوف. وهؤلاء هم كبرال Capral وألميدا Almeida والبوكيرك Alpuquerque.

استطاع كبرال الوصول إلى الهند بأسطول قوى فى عام ١٥٠٠، وأن يدخل فى اشتباكات مع العرب، وأن يستعين فى القضاء على نفـوذ العرب ببعض أمراء الهنود، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير . كما أنه وجد فى مقاومة أحد ملوك الهند ويدعى زامورين Zamorin للنفوذ البرتغالى ما يهدد المصالح الاستعمارية فى تلك البلاد . وقد تمكن بفضل معاونة بعض الأمراء الهنود التخلص منه .

حركة الكشوف الاسبانية

اختلف الكشف الاسبانى فى طبيعته عن الكشف البرتغالى ، فبينما نجد أن الكشوف البرتغاليه قامت بها الأمة البرتغالية حكومة وشعبا، نجــد أن حركة الكشوف الأسبانية قامت فى أول الأمر على أكتاف نفر من المغامرين، ووقفت منهم الهيئات الأسبانية المسئولة إما موقف المعارضة أو موقف عدم التشجيع .

وهناك نقطة اختلاف أخرى بين الكشفين هو أن الكشف البرتغالى اتجه ناحية الشرق للوصول إلى الهند، بينما الكشف الأسبانى اتجه جهة الغرب للوصول إلى الشرق تحقيقا لنظرية كروية الأرض .

ويعتبر خريستوف كولومبس بطل الكشوف الجغرافية الأسبانية، ولم يكن كريستوف كولومبس أسبانى الأصل . ولكنه جنوى الأصل تلقى علومه بجامعة بافيا ، ودرس الرياضة والفلك والجغرافيا،وكان على صلة دائمة بحركات الكشوف الجغرافية ، وكان ممن يؤمنون بكروية الأرض وبإمكان الوصول إلى الشرق عن طريق الغرب. ولكن معلوماته التى استقاها من رحلة ماركو بولو (١٢٧١ - ١٢٩١) إلى الصين أكدت له تلك النظرية. ولكنه كان يظن بأن قارة آسيا تمتد الى الشرق أكثر من الواقع وأن مجرد رحلة بحرية قصيرة ناحية، الغرب توصله إلى الساحل الآسيوى .

ولم تكن الشجاعة تنقص خريستوف كولومبس ليخرج تلك النظرية من حيز الخيال إلى حيز الواقع ، فتقدم إلى جون الثانى ملك البرتغال بمشروعه هــذا ،

وشكلت لجنة من المليين بالشئون الجغرافية لبحثه ولـكنها رفضته، فيمم كولومبس وجهه شطر أسبانيا وعرض مشروعه على فرديناند وايزابيلا ، ولـكن رجال الدين رفضوه واتهموه بأنه مشروع خيالى، وقالوا بأن الإنسان لايستطيع أن يصدق بأن الناس فى الجهة المقابلة من العالم يسيرون على عكس ما نسير ، ولم تكن الظروف مهيأة فى ذلك الوقت للقيام بمثل هذا العمل نظرا لإنشغال فرديناند وايزابيلا بمحاربة العرب .

مضى على هذا العرض ثمانى سنوات عاشها كولومبس فى سأم وملل إلى أن احتضن مشروعه هذا أحد الكرادلة الأسبان ، وتطوع بعرضه على الملكة إيزابيلا والدفاع عنه . وقد بذل الكردينال جهده فى إقناع الملكة بفائدة هذا المشروع فى تحويل الهنود الى الديانة المسيحية وفى الانفراد بثروة الهند. وأوضح لها بأنها إذا لم تؤيد هذا المشروع فربما أيده ملك آخر، وبذلك تضيع على أسبانيا تلك الفرصة الذهبية. وقد اقتنعت الملكة بوجهة نظره وكانت أكثر حماسا للشروع من زوجها الملك فرديناند .

صدرت الأوامر بتعيين كريستوف كولومبس أميرا وحاكما على المناطق التى يكتشفها وأن يمنح عشر الأرباح من التجارة ، كما تعهد هو بدفع ثمن نفقات الرحلة. ثم زوده بخطابات اعتماد إلى أمراء الشرق الذين يقعون فى دائرة اكتشافه .

كانت الرحلة الأولى التى بدأت فى أغسطس عام ١٤٩٢ تتكون من ثلاث سفن مزودة بما يقرب من تسعين بحارا ، وقد مرت الرحلة فى سيرها بجزر كناريا ثم تركتها واتجهت غربا على أمل أن تجد اليابسة بعد رحلة قصيرة كما كان يعتقد كولومبس وكل البحارة المرافقين له . ولـكن الرحلة طالت ووجد البحـــارة

أنفسهم في بحر لجى متلاطم الأمواج لا نهاية له،فظنوا بأن خريستوف كولومبس قد غرر بهم ، وفكروا في إلقائه في البحر والتخلص منه . وكلما إزدادت حالتهم سوءاً كلما أخذ خريتسوف كولومبس في ملاطفتهم ، وفى إدخال الأمل على تلك النفوس اليائسة . وأخيرا لاح لهم على البعد بعض الأشجار وفى المساء شاهدوا بعض الأضواء تنبعث من هذا المكان البعيد فأيقنوا بأن الفرج أت لا ريب فيه، وأن وصولهم إلى الأرض بات قاب قوسين أو أدنى . وقد وصلوا إلى جزيرة سان سلفادور وركع رجال الرحلة لله شكرا ، وأخذوا يجوبون أنحاء الجزيرة ، وقد أدهش منظرهم ولون بشرتهم سكان الجزيرة من الهنود الحمر الذين عاملوهم بلطف وود .

وكان هؤلاء يقطنون أكواخا مرتبة نظيفة ويدخنون ، وكانت هذه هى أول مرة يرى فيها الغربيون الدخان ، فلم يكن لهم عهد به من قبل . كذلك كانوا يتزينون ببعض الحلى .

وقد واصل كولومبس سيره إلى جزيرة كوبا ثم سار إلى سان دومينيكو ، وبعدها بدأ فى العودة الى أسبانيا فى يناير عام ١٤٩٣ حيث وصلها فى مارس من نفس السنة، واستقبل من مواطنيه استقبالا حافلا.

بدأت الرحلة الثانية على نطاق أوسع إذ اشتملت على ١٧ سفينة وعدد أكبر من البحارة . واصطحبت معها بعض السلاح ورجال الدين ، وكذلك أنواعا من الحيوانات وأخرى من النباتات . وخرجت إلى عرض البحر فى سبتمبر عام ١٤٩٣ ، ولم يواجه البحارة من العقبات مثلما شاهدوه فى المرة السابقة . وقد وصلت الرحلة الى بعض جزر الهند الغربية ، أخذ كولومبس فى تسميتها بأسماء

مختلفة منها جزيرة جوادالوب وهيتى . ووجد كولومبس أن الجنود التى تركها فى الرحلة السابقة داخل القلعة قد قتلوا ودمر الحصن نتيجة لسوء معاملتهم للوطنيين من الهنود الحمر . ولم تطل إقامته هناك فرجع إلى أسبانيا مرة أخرى.

قام كولومبس بعد ذلك بعدة رحلات نذكر منها تلك الرحلة التى قام بها فى عام ١٤٩٣ والتى اكتشف فيها جزر الرأس الأخضر ، ومنها سار غربا مارا بمنطقة خط الاستواء مدة ثمانية أيام عانى فيها البحارة الشىء الكثير من شدة الحر إلى أن وصل إلى جزيرة ترنداد Trinidad . وفى تلك الرحلة شاهد خريستوف كولومبس أجزاء من القارة الأمريكية، ولكنه لم ينزل فيها وظنها جزيرة كبيرة . ولو قدر له النزول فى القارة الأمريكية لنزل بأرض البرازيل ولكانت تلك المنطقة من أملاك أسبانيا .

وقد راعه رؤية نهر الاورنيكو والأرض المزدهرة اليانعة الممتدة على جانبيه والمزدحمة بالأشجار والنباتات المختلفة حتى ظن بأنه على أبواب الجنة .

وفى عام ١٥٠٢ قام خرستوف كولومبس برحلته الأخيرة التى وصل فيها إلى أراضى أمريكا الوسطى بالقرب من اقليم بنما .

ورغم تلك الجهود الكبيرة التى قام بها كولومبس فى كشف جزر الهند الغربية والقارة الأمريكية ، فكان جزاؤه جزاء سنمار ، فلم ينعم بثمرة نجاحه ، ووقع فريسة للحاقدين عليه الذين استطاعوا ايغار صدور رجال الحكومة الاسبانية عليه ، فسجن وعذب ومات بعد ذلك بقليل فى عام ١٥٠٦ .

ونظراً لإنفراد أسبانيا والبرتغال بحركة الكشوف الجغرافية فى ذلك الوقت قامت بينهما خلافات حول تقسيم مناطق النفوذ ، فتدخل البابا اسكندر السادس

لحل النزاع واقترح فى عام ١٤٩٢ جعل خط طول ٣٥ حداً فاصلا بين ممتلكات كل من الطرفين. وبعد ذلك بقليل اتفق الطرفان فى معاهدة توردسلاس Tordesillas فى يونيه ١٤٩٤ على نقل خط التقسيم لناحية الغرب قليلا ليتسنى للبرازيل الدخول فى جزء البرتغال.

وفى سنة ١٥٠١ أرسل ملك البرتغال رجلا ايطاليا يدعى أمريجو ليتعرف على مقدار الارض التى تقع شرق التقسيم . وقد استطاع أمريجو الوصول إلى شاطىء البرازيل ، وأدرك بأن تلك الارض ليست جزيرة ولكنها قارة عظيمة، وأذاع تلك المعلومات الجديدة عند عودته الى البرتغال ، فأثار بذلك الاهتمام الشديد، وتسابقت الدول الاوربية إلى ضم ما تستطيع ضمه من تلك القارة الجديدة . ولهذا فقد سميت القارة الجديدة باسمه .

وقد تجدد النزاع مرة ثانية بين أسبانيا والبرتغال ورأت أسبانيا أن من مصلحتها أن يمتد خط التقسيم فى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية حتى يصل الى الهند وقد تم هذا التعديل باتفاق الطرفين.

وقد رأت أسبانيا فى عهد ملكها كارل الخامس أن تنتهز فرصة هذا التعديل الجديد وأن تبعث بالرحالة ماجلان Magellan ، وهو شريف برتغالى الأصل كان يعمل فى خدمة الحكومة الاسبانية فى رحلة كشفية تضم جزر البهار إلى حيازة أسبانيا ، وأقلع من البرتغال فى سبتمبر سنة ١٥١٩ متجها نحو الجنوب الغربى فمر بالشواطىء الشرقية لأمريكا الجنوبية مارا بمضيقها الجنوبى الذى سمى باسمه . ثم سار فى المحيط الهادى متجها نحو الشمال الغربى إلى أن وصل الى جزر الفلبين فى سنة ١٥٢٠ حيث قتل فى مناوشات مع الوطنيين .

وقد واصل بحارته الرحلة فطافوا حول إفريقية حيث وصلوا إلى أشبيلية في ٨ سبتمبر سنة ١٥٢٢ بعد غيبة حوالى ثلاث سنوات فقدوا خلالها أربعة أخماس السفن، وعاد من رجالها ١٨ رجلا من مجموعهم البالغ ٢٧٠ رجلا.

وقد أكدت تلك الرحلة بما لا يترك مجالا للشك كروية الأرض وكشفت عن معظم أجزاء العالم الجديد ، ولم يبق بعد ذلك سوى استراليا والمناطق القطبية .

دخلت انجلترا ميدان الكشف الجغرافى فى عام ١٤٩٧ بارسال جون كابوت John Cabot فى رحلة إلى الهند متجها نحو الشمال الغـــربى ، فوصل الى نيو فوندلند وفلوريدا والساحل الشرقى للولايات المتحدة الآن .

كما أرسل ملك فرنسا جاك كارتييه Jaques Cartie الى الهند متخذا نفس الطريق فكشف عن مصب نهر سانت لورانس سنة ١٥٣٤ وكذلك كندا وحوض نهر المسسبى .

وستواصل أسبانيا توسعها فى أمريكا الجنوبية عن طريق كورتز Cortez الذى تمكن من الاستيلاء على بلاد المكسيك . وكذلك زميله بيزارو Pi-zaro الذى اتجه إلى بيرو فى أمريكا الجنوبية حيث وجد هناك شعبا راقيا عريقـا فى الحضارة ويدعى شعب الإنكا، واستطاع بيزارو Pizzaro أن يستغل الخلافات القائمة بين زعماء هذا الشعب فى توطيد النفوذ الاسبانى واستغلال البلاد إستغلالا قائما على العنف واستنزاف مواردها .

ويمكننا القول بأن حركة الكشوف الجغرافية قد أثرت فى تاريخ أوربا فى العصر الحديث تأثيرا خطيرا . فمن الناحية الاقتصادية كان لاستغلال أسبانيـا لمناجم الذهب فى أمريكا استغلالا شديدا أثره فى الحالة الاقتصادية فى أوربا .

كما أدت تلك الكشوف أيضا الى تحول الثروة من أيدى طبقة ملاك الأرض الى طبقة جديدة هى طبقة التجار. وسيكون لهذه الطبقة دورا هاما فى تطور نظم الحكم فى العصر الحديث .

أما من الناحية السياسية فقد ترتب على حركة الكشوف هذه نشأة الاستعمار وتنافس الدول الأوربية تنافسا خطيرا على السيطرة على العالم الجديد . وسيكون الاستعمار حجر الزاوية فى السياسة الأوربية فى العصر الحديث وفى العلاقات بين الدول .

وستدخل هذا الميدان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دولتان حديثتان هما ايطاليا والمانيا، وستدخل هاتان الدولتان مع الدول التى سبقتها الى هذا الميدان، وخصوصا انجلترا فى صراع عنيف لاستخلاص بعض تلك المستعمرات .

الفصل الرابع

الحروب الايطالية

١٤٩٤ - ١٥٥٩

لم يكن لإيطاليا وجود سياسى فى أوائل العصور الحديثة ، فلقد كانت منقسمة إلى أقسام جعلت منها فريسة سهلة لأطماع جيرانها الأقوياء من الدول الأوربية . هذا لايمنع أن بعض أجزائها كانت تتمتع بثروة وقوة نسبية لابأس بها . ولقد ساعدت حالة إنقسامها على هذا النحو حركة النهضة فيها وقوة الأقسام الايطالية من الناحية الحربية لايؤبه لها كثيراً ، وكانت الجنود التى تستخدمها هـذه الأقسام مرتزقة . ومن ثمة كانت ايطاليا ميداناً مغرياً لتنازع نفوذ الدولتين الفرنسية الأسبانية .

كانت ايطالية منقسمة إلى أقسام مختلفة، فهناك الدول المستقلة Sovereign States مثل البندقية ، وميلان ، وفلورنسا ، والولايات البابوية ، ونابولى .

فالبندقية لازالت قوية وغنية ، ولو أن ذلك الغنى والجاه سيتلاشى تدريجياً لتحول التجارة إلى طريق رأس الرجا الصالح وإستئثار البرتغاليين بها . ولكن كان للبندقية أهمية فى ايطاليا ، وكانت تتبع النظام الاوليجاركى فى الحكم ، وقام بينها وبين الولايات البابوية نزاع حول ملكية إقليم رومانا وكذلك كانت البندقية تتطلع إلى الاستيلاء على دوقية ميلان .

ثم هناك دولة ميلان وتحكمها دكتاتورية على رأسها أسرة أسفورزا Sforza.

وكذلك جمهورية جنوة منافسة البندقية القديمة وكانت قـــد ذهبت عظمتها . ثم فلورنسا وكان الحكم فيها فى يد شخص واحد ، وحكمها إستبدادى ، تفوقت فيها أسرة المديتشى. ثم هناك مملكة نابولى وتشغل نصف مساحة شبه الجزيرة ،ويحكمها بيت أرجون . وستوضح لنا الحروب فى ايطاليـا إلى أى مدى كانت منقسمة .

ماذا كانت الحالة فى فرنسا ؟

كان لنتائج حرب المائة عام آثار باقية فى فرنسا . لقد انتصرت فرنسا ـ لانتيجة لنظمها الدستورية ـ وإنما نتيجة لقوة الملكية والشعب . ولذا كان الشعب يرى فى الملكية مخلصة له ومنقذة من حكم الاجنبى ،وهذا دعا بطبيعة الحال إلى تفوق نظام الملكية .

وما حدث فى فرنسا من ناحية إزدياد قوة الملكية وظهور الشعور بالقومية، حدث فى أسبانيا نتيجة للجهاد ضد العرب. ولكن كان بأسبانيا دائما شعور إنفصامى، شعور إستقلالى محلى . لقد تمكن الملوك من تحديد سلطة البرلمان الاسبانى ويسمى الكوريتز ، فلم يكن واجب على الملوك إستدعاء الكوريتز فى كل كبيرة، وكانت كلتا الملكيتين تعتمد جيش كبير منظم .

فبينما حالة ايطاليا السياسية حالة إنقسام وتخاذل كانت حالة فرنسا وأسبانيا حالة قوية فيها حيوية كبيرة ، وليت الأمر اقتصر على ذلك فلقد كانت بعض الاقسام الايطالية فى حالة حرب مع الاقسام الأخرى ، وساعد على وقوعها فريسة الحرب مساعدة الفاتح الأجنبى لبعض أجزائها ضد الاجزاء الاخرى . وكانت الجنود التى تستخدم فى الغالب جنودا مرتزقة ، هذا فى الوقت الذى كان للملكية الفرنسية جيش قومى قوى .

كان من أسباب قيام الحروب الايطالية ظهور كل من فرنسا وأسبانيا كدولتين حديثتين قويتين فى مستهل التاريخ الحديث ، سعت كل منها إلى التفوق فى ايطاليا بصفة عامة وفى أوربا بصفة خاصة . وإن كانت كلا الدولتين قد اتخذت من ايطاليا ميدانا لمباشرة نشاطهما ، فادعت فرنسا بحقها فى وراثة عرش نابولى وميلان - وادعت اسبانيا بحقها كذلك فى وراثة عرش نابولى ، كما كانت لاتخلو من أطماع بشأن ميلان .

وستجد بعض الدول الاوربية نفسها مضطرة لأن تخوض غمار الحرب تحقيقا لمصالحها ، وحرصا على إيجاد نوع من التوازن فى بين القوى بين الدول حتى لاتقوى دولة بعينها على حساب مصالح الآخرين .

ويمكننا أن نقسم الحروب الايطالية إلى مرحلتين متميزتين : المرحلة الاولى (١٤٩٤ - ١٥١٦) وكان مسرحها شبه الجزيرة الايطالية ، فهاجمت فيها فرنسا مملكة نابولى ودوقية ميلان فى هجومين متعاقبين تأييدا لإدعائها فى وراثة عرش كل منها .

والمرحلة الثانية (١٥١٦ - ١٥٥٩) خرجت فيها الحرب عن النطاق الايطالى واشتركت فيها جوانب متعددة ، وإن كانت قد تركزت حول الصراع بين الاسرتين الكبيرتين فى أوربا حول التفوق والسيطرة ، وهما أسرة الهابسبرج والاسرة المالكة الفرنسية ممثلة فى أسرة الفالوا Valois فى ايطاليا .

المرحلة الأولى : (١٤٩٤-١٥١٦)

قامت الحرب فى ايطاليا نتيجة تنازع لودفيكو سفورزا Ludovico Sforza وجيان جليازو Gian Goleazzo على الحكم فى ميلان ونجاح الدول فى طرد الثانى

والاستئثار بالسلطة دونه . فاستنجد الثانى بملك نابولى فردنند الأول لنصرته والتجأ الأول يطلب معونة شارل الثامن ملك فرنسا .

ولما كان شارل الثامن يدعى حقوق وارثة عرش نابولى بحجة أن حاكمها الشرعى كونت مين وبرفنس قد تنازل عن ملكه للملك فرنسا لوى الحادى عشر والد شارل الثامن فى سنة ١٤٨١ ، فقد إنتهز هذه الفرصة لتحقيق أطماعه الواسعة، وزحف بجيشه على ايطاليا ، وعبر جبال على تورين فى سبتمبر سنة ١٤٩٤ واستولى عليها، ثم أخذت المدن الايطالية تسقط الواحدة بعد الأخرى ، تسكانيا، وفلورنسا وروما ، ونابولى دون مقاومة تذكر . وقد بهرت شارل الثامن غنى وثروة المدن الايطالية .

ولكن ايطاليا كانت موطنا حساسا فى أوربا ، لايهم مصيرها السياسى فرنسا وحدها ، بل يهم أيضا فى المقام الأول الدويلات الايطالية مثل الولايات البابوية والبندقية ونابولى أيضا. كذلك يهم مصير ايطاليا فردنند ملك أسبانيا والامبراطور مكسميليان . فهذه الأطراف تخشى من تفوق نفوذ فرنسا فى ايطاليا على مصالحها السياسية والاقتصادية . ولذا تتكاتف فيما بينها لتكوين محالفة البندقية (مارس سنة ١٤٩٠ ضد فرنسا ، من أسبانيا ، والامبراطورية الرومانية المقدسة ، وميلان والبندقية والولايات البابوية .

خشى الفرنسيون على خطوط مواصلاتهم ، لاسيما وأن شارل الثامن لم يكن قد ترك حاميات قوية فى البلاد الايطالية المختلفة . ولذا أسرع الملك الفرنسى فى الانسحاب من جنوب ايطاليا ، وقاتل أعداءه فى فورنوفو Fornovo فى ٦ يوليو ١٤٩٥ وتغلب الجيش الفرنسى، ولكن إذا كان هذا الجيش قد نجح ، فلقد نجح فى إنقاذ نفسه من الخطر المحدق به ، لأنه بانسحاب الجيش الفرنسى ضاعت كل الفتوحات الفرنسية ، إذ اضطر شارل الثامن الى عقد صلح (نوفمبر ١٤٩٥)

مع لدفيكوسفورزا ترك بمقتضاه دوقية ميلان وعاد إلى فرنسا . ولم تلبث دول محالفة البندقية أن انفضوا بعد انسحاب فرنسا .

وخلف شارل الثامن على عرش فرنسا ابنه لوى الثانى عشر ، هو ليس بقوى الشخصية ولا بكثير النشاط ، ولكنه كان ممتازا بحكمته وانسانيته . وقد حاول لوى أن يتبنى مشروع والده للتدخل فى ايطاليا ، فادعى بأحقيته فى وراثة عرش ميلان . فزحفت قواته على ايطاليا وعبرت جبال الألب فى أغسطس ١٤٩٩ ، وهبطت إلى سهول لمبارديا، وانضمت إليه جمهورية البندقية، واحتلت ميلان وأسرت حاكمها الدوق لودفيكو سفورزا .

ولم يكتف لوى الثانى عشر بذلك بل أخذ يتطلع إلى الإستيلاء على نابولى ، ولكن كان ينافسه فى ذلك فردنند الكاثوليكى ملك اسبانيا . فكان على لوى أن يختار بين أمرين إما محاربة قوات اسبانيا لإبعادها على نابولى ، وإما الاتفاق مع فردنند بشأن اقتسام الغنيمة ، وقد فضل الأمر الثانى ، فاتفق الطرفان فى معاهدة غرناطة (نوفمبر ١٥٠٠) على إرسال حملة مشتركة للاستيلاء على نابولى .

لم تقو نابولى على مقاومة قوات فرنسا الزاحفة عليها من ميلان فسقطت دون مقاومة فى يوليو ١٥٠١ ، وأسر ملكها فردريك .

وبعد أن تم النصر للطرفين المتحالفين نشب بينهما خلاف بشأن تقسيم الغنيمة ، تطور إلى حرب إنهزمت فيها قوات فرنسا ، واستولى الأسبان على نابولى (مايو ١٥٠٣)، وتم طردهم نهائياً من أراضى نابولى بعد تسليم جيتا آخر معاقل الفرنسيين فى نفس التاريخ .

ولم تكن هذه هى آخر الهزائم التى منيت بها فرنسا فى ايطاليا ، إذ ستزج

بها الأحداث فى حرب جديدة لن تجنى منها سوى فقدان ميلان والخروج كلية من ايطاليا . وتوضيح ذلك أن البابا يوليوس الثانى كان يتوق إلى استعادة ممتلكات الكنيسة التى فقدتها فى ايطاليا ، واسترجاع هيبة البابوية وسلطانها على ايطاليا كما كان من قبل . وكان يرى فى نفوذ جمهورية البندقية وقوتها حائلا دون تحقيق ما يريد . ولذا سعى البابا إلى عقد تحالف ضد البندقية من الدول التى تربطها مصالح بايطاليا . فتكون فى ديسمبر من عام ١٥٠٨ محالفة كمبراى League of Cambrai ضد البندقية من فردنند ملك اسبانيا ولوى الثانى عشر ملك فرنسا والامبراطور مكسيمليان وبعض الامارات الايطالية .

وتمكنت قوات الحلف تحت قيادة فرنسا من إحراز النصر على البندقية فى موقعة اجنادلو Agnadello (ابريل ١٥٠٩) ، وكادت البندقية أن تنهار إنهياراً تاماً ، لولا أن انقذها من تلك الحالة تحول البابا يوليوس الثانى عن موقفه إلى سياسة العطف على البندقية ، وذلك بعد أن حقق كل ما يصبو إليه من من الإستيلاء على المدن التى كان ينشدها وهى ريمينى Remini ، ورافنا Ravenna ، وفاينزا Faenza . لم تعد الحرب بالنسبة إليه إذاً لها ما يبررها · بل أصبح يرى أن الحاجة إلى وجود البندقية شديدة لدفع الأخطار الأجنبية .

ولكن هذا التحول أضر بمصالح أسبانيا وفرنسا ، فلم تحقق الحرب لهما شيئا بعد تلك التضحيات التى قدمتاها . كما أنهما غضبتا من موقف البابا وصممتا على مواصلة القتال وحدهما · وحاول البابا أن يتصدى لهما بقواته ولكنه لم ينجح · وبدلا من أن تقضى فرنسا وأسبانيا على قوات البابا لجأتا إلى محاولة عزله ، فأضاعتا بذلك فرصة ذهبية ، وأتاحتا للبابا متسعا من الوقت لتجميع قواه ،

وتأليف حلف ضد فرنسا أطلق عليه اسم الحلف المقدس Holy League (أكتوبر ١٥١١) من ملك اسبانيا فردنند ، وهنرى الثامن ملك انجلترا ، والبابا وجمهورية البندقية ، والمرتزقة السويسريون . ثم انضم إليه بعد ذلك الامبراطور مكسميليان . وكان الهدف الحقيقى من هذا التحالف تحقيق أطماع كل من البابا واسبانيا، وإن بدا أن الغرض منه هو سيادة سلطة الكنيسة فى ايطاليا.

هزمت فرنسا أمام قوات الحلف واضطرت إلى التخلى عن ميلان كما هزمت أمام انجلترا فى شمال فرنسا . وفى نفس الوقت نجح الاسبان فى الاستيلاء على نافار (١٥١٢) . وأمام تلك الهزائم لم يجد لوى الثانى عشر ملك فرنسا بدا من التسليم وعقد سلسلة من معاهدات الصلح مع البابا ، ومن بعده مع اسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة ، ثم مع انجلترا . ثم لم يلبث أن يموت فى أول يناير ١٥١٥ .

وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه المرحلة نجد أن فرنسا قد خرجت منها صفر اليدين بعد تضحيات كبيرة ، بينما استطاعت البابوية أن تحقق سيطرتها وسيادتها على ما ضمته اليها من أراض ، هذا فضلا عما كسبته اسبانيا من وضع يدها على نافار ونابولى ، واقتسامها ميلان مع السويسريين .

المرحلة الثانية (١٥١٥-١٥٥٩)

قامت الحرب ثانية لإدعاء فرنسوا الأول ملك فرنسا وراثة عرش ميلان ، وتكتلت اسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة والسويسريون المرتزقة والبابا ضد فرنسا وجمهورية البندقية . لم ينس فرنسوا إذاً الدرسين القاسيين اللذين تلقتهما فرنسا على يدى سلفه لوى الثانى عشر ، وأراد الانتقام لها . هذا بالاضافة إلى أن ثروة ايطاليا وجمالها وانقسامها السياسى كان مبعث جاذبية لملوك فرنسا

الذين رأوا فى السياسة الايطالية وسيلة للتفوق فى أوربا . وسيتمكن فرنسوا من من أن ينتصر فى موقعة مارينانو Marignano وأن يستولى على ميلان فى (أكتوبر ١٥١٥) ، وأن يترك أثراً باقيا فى حياة ايطاليا يزيد فى قيمته كشخصية أوربية .

ولقد نجح فرنسوا فى إقناع السويسريين بعدم الترخيص لجنودهم بحرب فرنسا بعد هـــذه الموقعة . ونجح أيضا فى تقليل ما للبابوية من تدخل فى شئون فرنسا الداخلية . فلقد وافق البابا على ذلك نظير قدر معين من المال ، على أن يكون تعيين رجال الدين الفرنسيين فى يد الملكية . وتم ذلك بمقتضى إتفاق كونكوردات Concordat (أغسطس ١٥١٦) .

كما استطاع فرنسوا أيضا من الاحتفاظ بميلان وجنوة فى قبضته بعد موافقة البندقية والامبراطورية على ذلك .

ولكن سرعان ماتغير الموقف فى ايطاليا نتيجة تغير الأوضاع الداخلية فى ألمانيا وأسبانيا لموت مكسيمليان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولما كانت الامبراطورية انتخابية كثر المرشحون للعرش الامبراطورى ، وكان أول هؤلاء المرشحين كارل شارل الخامس ملك أسبانيا ووريث أسرة الهابسبرج ، وينازعه فى ذلك فرنسوا الأول ملك فرنسا ، وهنرى الثامن ملك انجلترا . ونظرا لأن ملك أسبانيا كان أحق الثلاثة بالعرش .

لم يكن اختيار كارل الخامس أمرا يلقى ترحيب فرنسا ، بل كان ينطوى على خطر شديد عليها ، لأن معنى ذلك أن فرنسا ستكون محاطة بممتلكات الامبراطورية من كل جانب ، من ناحية أسبانيا ، ومن ناحية الشرق ، ومن ناحية الشمال ، إذ أن كارل كان وريث الأراضى المنخفضة وبرجنديا .

ومن ناحية أخرى إذا انتخب فرنسوا الأول كان معنى ذلك تفوق فرنسا

فى أوربا تفوقا غير منازع . وملك إنجلترا كان يطمع فى العرش الامبراطورى كذلك ، ولكنه كان منافسا غير قوى. على العموم عمل كل من المرشحين الأولين على رشوة الأمراء الألمان الذين بيدهم حق الانتخاب .

ولكن نظر لعوامل قومية فكارل ألمانى الأصل من ناحية أبويه ولقربه إلى نفوس الأمراء الألمان قاموا بانتخابه فى الديت الألمانى (المجلس الامبراطورى فى ألمانيا)، وتوج امبراطورا على الدولة الرومانية المقدسة فى أكتوبر ١٥٢٠ . وبذا تحقق ماكان يخافه فرنسوا ، فأصبح كارل امبراطورا رومانيا مقدسا ، كما هو ملك لاسبانيا ومستعمراتها والأراضى المنخفضة وبرجنديا، كما كان وريثا لآمال الاسبان ومركز الامبراطورية فى ألمانيا وايطاليا .

وهنا يبدأ الصراع والنضال بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة ، بين فرنسا الموحدة التى تعتمد على جيش قائم منظم ، والامبراطورية المفككة التى لاتملك سلطة سياسية حقيقة فى ألمانيا وان كان كارل الخامس له سلطة فعلية فى اسبانيا ، ويتمتع بقوى وثروات كبيرة . فتحت تصرفه موارد اسبانيـــا ومستعمراتها والأراضى المنخفضة .

عمل كل منها على كسب حلفاء ليعاونوه ضد الآخر ، ونجـح كارل فى ضم إنجلترا اليه ، فهناك صلات عائلية بين كارل وهنرى الثامن . والصلات العائلية كانت قوية الأثر فى السياسة الدولية ، تقوم من أجلها الحروب، والحروب فى ذلك العصر لم تكن وفقا لرغبات الشعوب ، وإنما وفقا لرغبات الملوك والحكومات .

استطاع كارل الخامس أن يضم هنرى الثامن إلى جواره فى نظـير منحه مقاطعتى بيكارديا ونورمنديا فى شمال فرنسا .

أدى التنازع بين فرنسا والامبراطورية إلى الحرب، وأصبحت ايطاليا ميدانا لها،

فغزا فرنسوا الأول ايطاليا ، ولكن الجيش الذى جاء من ألمانيا كان يمتاز بتفوقه . ولذا ينهزم فرنسوا ويقع أسيراً ، ويضطر إلى عقد معاهدة مدريد فى يناير ١٥٢٦ ، كانت اعترافا بانهزام فرنسا ، وتنازلها عن برجنديا ، وعن إدعاءاته فى عرش نابولى وميلان وأرتوا وفلندرا . وتعهد بالزواج من شقيقة شارل ملك البرتغال .

كان انهزام فرنسا وقتيا لأنه سرعان ما نكث فرنسوا بعهده ، وبدأ الحرب من جديد . لاسيما وأن الظروف الدولية قد ساعدته الى حد كبير ، فانتصار لهاأسرة ابسبرج آثار مخاوف دول أوربا . ولذا لم يجد صعوبة فى تكوين حلف كونياك (مايو ١٥٢٦) من فرنسا وانجلترا والبابوية والبندقية وميلان وفلورنسا ضد كارل الخامس لتخليص ايطاليا من نفوذه ولإيجاد نوع من التوازن الدولى الذى اختل بانتصار كارل .

بدأت الحرب من جديد ، ولم يكن لدى كارل من المال ما يسد به رواتب جنوده ، فيتجه هؤلاء الى البحث عن مدينة ينهبونها من المدن الايطالية الغنية . فيحاولون ذلك مع فلورنسا ، ولكنهم لم يتمكنوا ، فيحاولون اقتحام روما وينجحون ، ويقومون بعملية سلب ونهب لم تعرفها روما من قبل .

ثم تستمر الحرب بين كارل وفرنسوا .ولقد أثر فى مجراها تقدم حركةالاصلاح الدينى فى المانيا . فكان الامبراطور مشغولا بمسألة استمرار الحرب مع فرنسا ، وفى نفس الوقت تشغل باله المسألة الدينية التى كان يعمل فرنسوا دائما على إثارتها بتشجيع الأمراء البروتستنت ضد الامبراطور .

والواقع أنه لولا مساعدة فرنسوا للبروتستنت خارج المانيا لما لاقت البروتستنتية نفس النجاح الذى لاقته . ولو لم تكن الحركة البروتستنتية لتمكن كارل من التغلب التام على فرنسا .

عقد صلح وقتى فى كمبراى (أغسطس ١٥٢٩) خرجت فرنسا بمقتضاه من ايطاليا دون أن تحقق أى نجاح ، وكذلك أعضاء حلف كونياك .

على أن الظروف التى أحاطت بالامبراطورية الرومانيـة المقـدسة فى ذلك الوقت ، مثل مشاكل حركة الاصلاح الدينى فى المانيا ، وتهديد الاتراك العثمانيين فى عهد السلطان سليمان القانونى لممتلكات الامبراطورية فى أواسط أوربا ، دعتـه الى قصر نشاطه على الحفاظ على ممتلكاته ، وحقوق أسرته ، وأن يـترك مسألة التفوق الأوربى ومنافسة فرنسا جانبا .

وقد حاول فرنسوا ملك فرنسا أن يستغل الصعاب المحيطة بالامبراطور كارل لاستئناف الحرب من جديد . وقد مهد لذلك بالتقرب من اللوثريين فى المانيـا ، وفى عقد معاهدات مع العثمانيين أعداء كارل . ثم انفجرت الحرب نتيجة موت دوق ميلان (نوفمبر ١٥٣٥) وادعاء كل من العاهلين الفرنسى والرومانى حق وراثـة العرش . واستطاعت قوات الامبراطور بمعاونة القوات الانجليزية الانتصار على الجيش الفرنسى والتوغل داخل أراضى فرنسا وتهديد العاصمة باريس . ولكن رغم ذلك اضطر كارل الخامس نتيجة عدم اطمئنانه الى حليفه ملك انجلترا أن يعقد صلح كرسبى Crespy (سبتمبر ١٥٤٤) الذى حافظ على الحالة الراهنة بين الدولتين .

تجددت الحرب من جديد بين هنرى الثانى ملك فرنسا وابن الملك الراحل فرنسوا الأول ، وبين الامبراطور نتيجة عوامل مختلفة ساعدت على نشوبها ، منها قيام خلاف بين البابا بول الثالث والامبراطورية بشأن المسألة الدينية فى ألمانيا ، والتجأ البابا إلى ملك فرنسا لحضه على استئناف القتال . وكذلك فراغ هنرى الثانى من الحروب التى نشبت بينه وبين انجلترا بسبب احتمال انضمام التاج الاسكتلندى الى التاج الفرنسى . هذا بالاضافة الى محاولة ملك فرنسا هنرى الثانى النجاح فيما فشل فيه أسلافه من قبل .

حاول ملك فرنسا أن يستغل كل القوى المعارضة للامبراطور وأن يضمها إلى جانبه ، ولذا اختار ميدان نهر الموزيل بديلا عن الميدان الايطالى ، ليكون قريباً من البروتستنت ومن الأمراء الغاضبين على الامبراطور . وقبل الدخول فى المعركة ضمن ملك فرنسا مساعدة هؤلاء له عن طريق عقد معاهدة شامبورد Chambord معهم ، ومعاهدة فريدوالد Friadwald مع منتخب سكسونيا (١٤ فبراير ١٥٥٢) . وتنص المعاهدة الأخيرة على أن تتحمل فرنسا نفقات الحرب وتمد الأمراء الألمان بالمساعدة فى مقابل استيلائها على كل اقليم اللورين الفرنسية التى كانت تعتبره فرنسا حدودا طبيعية لها .

قامت الحرب عقب عقد المعاهدتين السالفتين مباشرة ، وأحرزت قوات فرنسا انتصارات سريعة واستولت على تول ومتز وفردان . كما استطاعت قوات منتخب سكسونيا الاستيلاء على أوجزبرج . واضطر الامبراطور إزاء تلك الانتصارات إلى عقد هدنة فوسيل Vaucelles مع فرنسا (فبراير ١٥٥٦) لفترة خمسة أعوام ، على أن تحتفظ فرنسا بالأراضى التى استولت عليها .

قامت الحرب من جديد بين فرنسا والامبراطورية فى أوائل عام ١٥٥٧ بتحريض من البابا بول الرابع الذى كان يهمه طرد الاسبان من نابولى والقضاء على سلطانهم فى ايطاليا . وقبل ذلك بقليل يعتزل كارل الخامس العرش الأسبانى وتوابعه فى الأراضى المنخفضة والمستعمرات لإبنه فيليب ، والعرش الأمبراطورى لأخيه فردنند .

انضمت انجلترا إلى الامبراطورية ، وهاجمت قوات الامبراطور الفرنسيين فى سان كانتان وهزمتهم هزيمة نكراء . ولكن لم تلبث القوات المرتزقة أن انفضت من حول جيش فيليب لتأخر صرف مرتباتهم ، وانضم جانب منهم الى

الفرنسيين . واستطاع الفرنسيون اجلاء قوات انجلترا عن كاليه التى تعتبر آخر موضع لقدم الانجليز فى فرنسا . ولكنهم عادوا فانهزموا أمام قوات انجليزية وفلمنكية بالقرب من جرافلين Gravelines فى يوليو ١٥٥٨ . وقد مهدت تلك المعركة لتوقيع الصلح بين الفرنسيين والاسبان فى كاتو كمبريسيس Cateau - Canbrésis فى ٢ ابريل ١٥٥٩ ، هذا الصلح الذى يعتبر حدثاً هاماً فى العلاقات الدولية ، والذى تمتعت أوربا فى ظله بفترة سلام دامت قرابة الستين عاما ، أى إلى قيام حرب الثلاثين عاما فى ١٦١٨ ، والتى انتهت بصلح وستفاليا ١٦٤٨ وهو الحدث الهام الثانى فى التنظيم الدولى .

ولقد عمل هذا الصلح (كاتو كمبريسيس) على المحافظة على الممتلكات الاسبانية فى ميلان ونابولى . وأصبحت ايطاليا خاضعة للنفوذ الاجنبى ، وضمت فرنسا إليها تول ومتز وفردان ، مما ساعد على احتلال فرنسا لمنطقة اللورين :

ولكن ذلك الصلح ولو أنه وطد دعائم السلام فى أوربا ، إلا أنه لم ينجح فى القضاء على العداء بين فرنسا واسبانيا الذى استمر إلى أوائل القرن الثامن عشر .

وقد وجه لهذه المعاهدة الكثير من النقد ، فالبعض أعاب على هنرى الثانى ملك فرنسا تسليمه بتفوق النفوذ الأسبانى فى ايطاليا ، مع أن الامبراطور الرومانى كان يواجه مصاعب جمة تحول بينه وبين مواصلة القتال فترة طويلة . وأنه بهذا العمل قد وطد دعائم النفوذ الاسبانى فى ايطاليا ، وساعد بهذا العمل على تأخر قيام الوحدة الايطالية قرابة الثلاثة قرون .

ولكن ، وإن بدا انتصار اسبانيا واضحاً إلا أن السنوات القادمة ستثبت بعد نظر فرنسا فى احتفاظها بتول ومتز وفردان ، التى تعتبر نقط إرتكاز لفرنسا توجه منها ضربات شديدة إلى الوجود الاسبانى فى الأراضى المنخفضة .

وسيساعد ذلك على اتجاهها سياسة الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية ، تلك السياسة التى أصبحت من الأسس التى قامت عليها السياسة الخارجية لملوك فرنسا ، والتى ستؤدى بالضرورة إلى اصطدامها باسبانيا والامبراطورية .

أما من ناحية اسبانيا فإن احتفاظها بالأراضى المنخفضة لم يجر عليها سوى المتاعب ، فإبقاء تلك البلاد فى حوزتها على غير إرادة أهلها كلفها الشىء الكثير . وستخوض من أجل ذلك حروباً سيؤدى فى النهاية إلى فقدان تلك البلاد ، وفوق ذلك ضياع سيطرتها على البحار .

الفصل الخامس

حركة الاصلاح الدينى

تعتبر حركة الإصلاح الدينى من أخطر الحركات فى التاريخ الحديث إذا ما نظرنا إلى النتائج التى ترتبت عليها . فهذه الحركة قد مزقت الوحدة الدينية فى أوربا، تلك الوحدة التى نشأت مع الديانة المسيحية واستمرت طوال العصور الوسطى، وخلقت مذاهب جديدة لعبت دوراً هاما فى السياسة الدولية، وأدت إلى حروب كثيرة بعضها حروب أهلية والبعض الآخر حروب دولية .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل الاصلاح الدينى يجدر بنا أن نلقى نظرة عابرة على الكنيسة فى العصور الوسطى لنقف على دوافع الاصلاح الدينى والأسباب التى أدت إلى وجوده .

وإذا نظرنا إلى حالة الكنيسة المسيحية عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة نجد أنها قد قامت بدور هام فى رعاية العناصر المسيحية، وفى محاولة خلق جو من الأمن والسلام النفسي فى فترة ساد فيها القلق والاضطرب نتيجة لغارات المتبربرين المتلاحقة . وقد وجد أهل العصور الوسطى فى شخصية الباوات الحماية والأمن فبدأوا يلتفون حولهم ويجدون فى وجودهم ما يعوضهم عن انهيار سلطة الامبراطورية الرومانية القديمة .

وبمرور الزمن أصبح للكنيسة سلطان لا يحد وأثر ظاهر فى توجيه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وفى خلق مثل عليا تختلف عن المثل التى حاول

المفكرون تحقيقها فى العصر الحديث . فالرهبنة فى العصور الوسطى كانت تعتبر المثل الأعلى للحياة وكان التفكير كله ينصب على الناحية الاخروية دون الناحية الدنيوية .

وقد قام نظام الكنيسة فى بادىء الأمر على الإخلاص للدين المسيحى ولتعاليمه وعندما ازداد تدخل رجال الدين فى أمور الناس وأعمالهم بدأ التذمر وبدأ الشك فى قيمة هؤلاء الرجال .

ثم إن رجل الدين كان ينظر اليه على أنه مثل أعلى فى الزهد والتصوف ، فاذا ما خرج على تصوفه وزهده وأخذ يهتم بملذات الدنيا فقد قيمته وهيبته فى نظر الناس .

كما كان القصر البابوى فى يوم من الأيام منبع الفضيلة ، فاذا به فى عهد بعض البابوات ينقلب إلى قصر يزخر بمتاع الدنيا وأبعد ما يكون عن حياة الفضيلة . وحدث فى ذلك الوقت أن نشأ الصراع الطويل بين الامبراطورية والبابوية . ومع أن الامبراطور لم ينجح فى القضاء على قوة البابا ، إلا أن هذا الصراع قد ترتب عليه إضعاف القوتين معا . وحالة الضعف هذه مكنت الحكام والملوك وكذلك المصلحين من مهاجمة الكنيسة والبابا ، ومناقشة سلطتها وما يجوز أن تقوم به وما لا يجوز .

زد على ذلك أن تدخل البابوات فى الشئون السياسية قد سبب أضراراً بليغة سواء فى ايطاليا أم خارجها . وترتب على ذلك وجود أحزاب متضاربة أساءت إلى العلاقات بين الولايات الايطالية المختلفة . فتدخل الكنيسة فى الشئون السياسية قد أضر بمصالح ايطاليا وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا .

كما أننا لا ننسى أن عصر النهضة قد دفع الناس إلى التحرر العقلى وإلى النقد، فكما طبقوا قواعد النقد على ما وقع فى أيديهم من تراث الأقدمين ، طبقوه أيضا على الدين ، فأخذوا فى مناقشة أقوال الكنيسة ونقد تصرفاتها. وقد ظهر ذلك فى المانيا بصفة خاصة لأسباب متباينة .

أولها أن المانيا كانت مفككة من الناحية السياسية . وكانت منقسمة إلى ولايات ومدن مختلفة خضعت لأنواع متعددة من نظم الحكم ، ولم يكن للامبراطور سلطة تذكر إلى جانب سلطة الأمراء والحكام .وقد حاول الامبراطور مكسميليان Maximilian أن يحقق لألمانيا شيئا من الوحدة فقام باصلاح نظام الحكم والضرائب، ولكنه لم ينجح فى ذلك. وظلت المانيا مفككة منقسمة على نفسها بفضل تنافس أمرائها .

ولكن بالرغم من تفككها السياسى فقد وجد فيها نشاط فنى صناعى . وكان مركز هذا النشاط الفنى مدينة نورمبرج وهى تشبه فى هذه الناحية مدينة فلورنسا بالنسبة لايطاليا. وسنجد أن هذا النشاط الذى ظهر فى المانيا فى عصر النهضة قد اتجه إلى الاصلاح الدينى وإلى الموسيقى وإلى البحث العلمى . وهنا قد نتساءل ما هى العوامل التى أدت إلى أن تتخصص المانيا فى تلك النواحى دون غيرها .

ويمكننا القول بأن المانيا لم تكن على درجة من الغنى مثل ايطاليا التى استغلت موقعها الجغرافى فى جمع ثروة كبيرة مكنتها من الاتجاه إلى الفنون الجميلة كالبناء والنحت والتصوير .

كذلك لم تستفد ألمانيا من حركة الكشف الجغرافى ولا من الثروة التى تدفقت على أوربا نتيجة لتلك الحركة . فهى إذن فقيرة بالنسبة لغيرها من

الدول . والغنى كما نعلم يساعد على تقدم الفنون .

أما من الناحية الدينية فقد عاشت المانيا فى فوضى دينية شاملة ، وعاش رجال الدين معيشة فاسدة أبعد ما تكون عن تعاليم الديانة المسيحية . وقد أوجدت هذه الحياة الدينية الفاسدة روحا من التذمر والاستياء ضد رجال الدين، وأذكت تلك الروح ما كان يتغلغل فى نفوس الألمان من ميل نحو الوثنية التيوتونية القديمة .

كل هذا قد شجع الألمان على عدم إحترام البابا ورجال الدين .

كما أن ظروف المانيا السياسية قد عرضتها لضغط الكنيسة بشكل واضح ، فاذا نظرنا إلى ممتلكات الكنيسة فى ألمانيا نجد أنها تشمل ثلث مساحة الأرض ، وهذا مما جعل للكنيسة سلطانا كبيراً فى تلك البلاد .

هذا بالاضافة إلى أن ضعف سلطة الامبراطور قد مكنت الكنيسة من توطيد سلطتها على حساب سلطة الامبراطور . ولم يستطع حكام الولايات الالمانية أن يقفوا حائلا دون تقدم سلطة البابوية وانتشارها .

لهذا فقد اتجه النشاط الألمانى إلى مقاومة التدخل الأجنبى فى صورة البابا ، ومحاولة إبعاده أو القضاء عليه . فظهرت حركة الاصلاح الدينى كأحسن تعبير عن روح المقاومة الألمانية لنفوذ الكنيسة الدخيل.

جون ويكليف John Wycliffe

لم تكن حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر فى المانيا هى أولى الحركات التى قامت لإصلاح شئون الكنيسة الكاثوليكية ، بل سبقتها حركات أخرى قام بها مصلحون آخرون مثل جون ويكليف John Wycliffe المصلح

الانجليزى الذى قام بحركته الإصلاحية فى القرن الرابع عشر ، فهاجم الكنيسة وتعاليمها التى لا تتمشى مع مبادىء الديانة المسيحية. وهاجم شخصية البابا ورجال الدين ، ونادى بمبدأ إشراف الملكية الانجليزية على شئون الكنائس الانجليزية بعد أن وصل الفساد حداً لا يمكن السكوت عليه. وهاجم بشدة صكوك الغفران Indulgencies وكيف أن رجال الدين قد استغلوا تلك البدعة فى جمع الأموال الوفيرة من المسيحيين وأيهامهم بأن تلك الصكوك تمحوا ما تقدم من ذنبهم وما تأخر وتدخلهم جنات النعيم .

ونادى ويكليف أيضا بأن تكون الفضيلة هى الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه سلطة الكنيسة وأن السلطة الدينية يجب ألا يكون مرجعها الكنيسة وتفسيرات رجال الدين التى تصدر عن أهوائهم ، انما مرجع تلك السلطة يجب أن يكون للكتاب المقدس نفسه .

كما نادى أيضا بأن البابا يجب أن يتبع تعاليم الدين ، وأنه إذا حاد عن تلك التعاليم وجب عزله . وأوضح للناس أن رجال الدين ما هم إلا بشر مثلهم لم يؤتوا القوة السحرية الخارقة التى كانوا يضفونها على أنفسهم والتى اعتقد فيها معظم الناس . ولكنه بالرغم من ذلك ظل على ولائه للكنيسة الكاثوليكية حتى آخر أيام حياته .

وتعتبر حركة جون ويكليف فى انجلترا أساسا لحركة الاصلاح الدينى فى بريطانيا ، وخصوصا أن ما نادى به من ضرورة إشراف الملكية الانجليزية على شئون الكنائس كان أساسا فى حركة انفصال الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما .

حركة جون هس John Huss

أما الحركة التالية فى سلسلة حركات الاصلاح الدينى فقد قام بها جون هس

John Huss (١٣٧٣ - ١٤١٥) فى بوهيميا وهى منطقة يسكنها شعب من التشك من أصل صقلبى يعتنق المسيحية الارثوذكسية. وقد خضع هؤلاء للمؤثرات الالمانية، وتحولوا نتيجة لذلك من المذهب الارثوذكسى الشرقى إلى المذهب الكاثوليكى الغربى . وأدى هذا التحول بطبيعة الحال إلى وجود حالة من القلق والإضطراب فى العقائد الدينية نتيجة تأثر هؤلاء السكان بالمذهبين الدينيين . ونشأ عن ذلك أن سادت بينهم روح النقد لقواعد الدين، وخصوصا ما يتعلق منها بالمذهب الجديد .

وقد تزعمت جامعة براغ حركة النقد هذه حوالى منتصف القرن الرابع عشر، وفى تلك البيئة المضطربة من الناحية الدينية ظهر جون هس فى هذه الجامعة ، فأخذ فى مهاجمة الكنيسة فى بوهيميا وما هى عليه من فساد العقيدة، متأثراً بوجهة نظر جون ويكليف الانجليزى إلى حد كبير . فآراؤه التى نادى بها تتفق فى مجموعها مع ما نادى به جون ويكليف من قبل مع إختلافات بسيطة أوجدتها ظروف كل من البلدين .

فمن تعاليم جون هس ضرورة الرجوع إلى نص الكتاب المقدس لفهم قواعد الدين الصحيحة دون الاعتماد على الشرح والتفسيرات التى وضعها البابوات طبقا لأهوائهم . كما نادى أيضا بأن البابا لا يطاع إلا بقدر تمسكه بقواعد الدين وتعاليمه . وحمل أيضا على بيع صكوك الغفران وحاول فى نفس الوقت أن ينشىء فى بوهيميا كنيسة وطنية مستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية، ولكنه لم يستطع ذلك وتمكن خصومه من توجيه تهمة الزندقة اليه وإلى الحكم عليه بالموت حرقا فى أوائل القرن الخامس عشر .

سافونا رولا Savona Rola

ومن الأمثلة على حركات الاصلاح الديني حركة سافونا رولا Savona Rola Girolamo (١٤٥٢ - ١٤٩٨) الراهب الثائر بفلورنسا في أواخر القرن الخامس عشر . وكانت حركة سافونا رولا ترمى إلى إصلاح المجتمع على أساس ديني، وتحقيق العدالة الاجتماعية لأكبر عدد ممكن من الناس، وأن يشترك الشعب في حكم نفسه بنفسه بالطريقة التي تلائمه .

وقد انتابه في وقت من الأوقات الشعور بالضيق من المجتمع الذي يعيش فيه ، فاعتزله إلى أحد الأديرة . ثم تدرج في سلك الرهبنة إلى أن أصبح رئيسا لدير سان مارك بفلورنسا أثناء حكم لورنزو العظيم .

وقد أطاحت فرنسا بحكم أسرة مديتشي بفلورنسا أثناء غزوها لتلك المدينة. وقد أعقب هذا الغزو شعور أهل فلورنسا بضرورة تغيير نظم الحكم السائدة . ورأى فريق من زعمائها أن يقتبسوا من النظام الديموقراطي بالبندقية. ولكن الآراء تشعبت وتضاربت ووجد أهل فلورنسا أن أحسن حل لهذا الموقف المائع هو الاعتماد على مشورة سافونا رولا بعد أن ذاع صيته بين الناس.

وكان سافونا رولا يرى الإبتعاد عن السياسة وأن يكرس جهوده لإصلاح شئون الدين ولكن الظروف أجبرته على النزول إلى خضم السياسة في أدق الفترات التي مرت بفلورنسا وكان على سافونا رولا أن يجد مخرجا للحالة القلقة في فلورنسا، فلم يتردد في اتخاذ ما يراه من أوجه الاصلاح ، وأن يمزج بين الدين والسياسة في خلق نظم سياسية جديدة ومجتمع جديد . وهو بطبيعته لا يميل إلى الاستبداد ، ولذا فهو لا يؤيد الحكم الاستبدادي ، ويرى في الحكام المستبدين شرا يجب التخلص منه والقضاء عليه . فلا غرابة إذا ما يمم وجهه شطر النظام الديموقراطي الذي

يستطيع أن يكون للشعب الدور الأول فى حكم نفسه ، ووجد فى النظـام السائد فى البندقية وفى مجلسها الكبير خير مثل يحتذى .

وبناء على توصيات سافونا رولا أنشىء المجلس الكبير بشروط خاصة وبجانبه مجلس آخر يدعى مجلس الثمانين وهو أشبه بمجلس الشيوخ . ورغم تلك الاصلاحات المتعددة التى أدخلت على نظم الحكم فى فلورنسا فسنجد أن الأمور لن تستقر فيها ، وبدأ التنازع من جديد بين الأحزاب السياسية المختلفة وبدأت عناصر الرجعية من أنصار أسرة مديتشى تظهر من جديد وتعمل للقضاء على سافونا رولا .

ولو أن هذه الحركة السياسية والاجتماعية لم تنجح النجاح المطلوب ، مع أن زوال شخصية سافونا رولا قد أتى على معظم النظم التى أدخلها إلا أنه يحق يعتبر من بناة الجمهوريات الحرة فى العصر الحديث وممن أسهموا بنصيب وافر فى هذا الميدان .

ويمكننا إرجاع السبب فى فشل تلك الحركة إلى عدة أسباب :

أولا : إن سافونا رولا قد أخفق فى اجتذاب أهل فلورنسا اليه فترة طويلة . كما أنهم لم يهتموا بتعاليمه الدينية ، فلم يكن لهم شغف بالمسائل الدينية . فكل ما كان يهمهم هو الحرية السياسية التى حرموا منها فى عهد أسرة المديتشى .

ثانيا : عندما نادى سافونا رولا بالعفو عن أنصار العهد السابق ، دخل منهم عدد كبير فى زمرة أنصاره ، وأخذوا يعملون لإسقاطه والقضاء عليه .

ثالثا : إن سافونا رولا كان يعتمد على صداقة فرنسا فى تذليل ما يعترضه من صعاب وقد أغضب هذا العمل الجبهة الداخلية المعادية للتدخل الأجنبى . وقد انتهز البابا هذه الفرصة فوقف بجانب الجهات المعارضة لسافونا رولا للتخلص

منه نتيجـة جرأته على رجال الـكنيسة ورجال الدين .

وقد حاول البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا أن يسترضيه فعرض عليه منصب الـكردينال فرفضه . فأصدر البابا ضده قرار الحرمان فلم يعبأ به وواصل تحديه لسلطة الـكنيسة . وقد وجد أهل فلورنسا أن وجود سافو نارولا يثير ضدهم المشاكل من نواح متعددة ، ورأوا أن من الأفضل التخلص منـه ، فدبروا له مؤامرة،وحملوا الحكومة على إصدار الأمر بالقبض عليه،وأعدم وأحرقت جثته وألقى بها فى النهر .

وخلاصة القول فإن حركة سافو نا رولا قد أخفقت فى أن تحقق كل ما كانت ترمى اليه ، ولـكنها فى نفس الوقت نجحت فى مهاجمتها للـكنيسة وفى إظهار معايبها أمام أعين الناس وهذا ما شجع غيره من المصلحين من أمثال مارتن لوثر من أن يواصل هذا الهجوم وأن يربط فى تعاليمه بين السياسة والدين .

كما أن محاولة إنشاء جمهورية حرة فى فلورنسا قد مهد السبيل لقيام الجمهوريات المختلفة فى العصر الحديث .

حركة أورزمس Erasmus

أما الحركة الأخرى فى سلسلة حركات الإصلاح الدينى فقد قام بهـا ارزمس Erasmus. Desiderius (١٤٦٧ - ١٥٣٦) فى أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر . وارزمس هذا هولندى الأصـل تلقى تعاليمه الدينية فى باريس وفى اكسفورد وتنقل بعد ذلك بين ايطاليا وانجلترا ، ثم استقر به المقام بعد ذلك فى المانيا من عام ١٥١٤ إلى وفاته فى عام ١٥٣٦ .

نال أرزمس تقديراً كبيراً من رجال الـكنيسة ومن الأمراء والحـكام على

السواء رغم هجومه على الكنيسة وعلى تصرفات رجال الدين . فكان أرزمس إذاً يتمتع بمنزلة كبيرة بين أدباء عصره وعلمائهم . وقد نال أرزمس تلك المرتبة لأنه كان من الرواد الأول الداعين إلى العلم الجديد ، ولكنه لم يتطرف في دعوته، فرغم حبه للحركة العلمية فى عصر النهضة إلا أنه كان يكره روح الوثنية التى تغلغلت فى حركة النهضة فى ايطاليا . وهو فى نفس الوقت كان يمقت الرهبنة التى تعتبر المثل الأعلى للحياة فى العصور الوسطى .

وقد دفعه ايمانه بالعلم إلى نشر التوراة من جديد فى صورة متقنة ، لما وجده من كثرة الأخطاء التى وردت فى الترجمات المختلفة التى سبقت عصره .

ونظراً لتلك النظرة المعتدلة لأمور الدين لم يلق أرزمس من العنت والاضطهاد ما لاقاه غيره من المصلحين . وظل حتى آخر أيام حياته من رجال الكنيسة الكاثوليكية المخلصين لتعاليمها .

فهو إذاً لم يذهب إلى ماذهب اليه غيره من المصلحين مثل جون ويكليف وجون هس بالمناداة بإيجاد كنائس قومية ، لأن هذا العمل من شأنه أن يشجع على نمو الروح القومية المتطرفة . تلك الروح التى أدت إلى قيام الحروب الكثيرة فى أوربا ، وإلى نشوء الملكيات الإستبدادية والتى تعتبر من أهم النتائج السياسية لعصر النهضة .

رأى أرزمس بثاقب بصره أن هذه النزعة القومية الانفصالية ستؤدى بوحدة أوربا السياسية وستقوم على أنقاضها حكومات إستبدادية . ولذا ظل متمسكا بالكنيسة الكاثوليكية .

ولكن مما يؤخذ على أرزمس أنه رغم وقوفه على مواطن الداء لم يستطع القضاء عليه، بل أخذ ينادى بالرجوع إلى تعاليم الإنجيل للاهتداء بها دون الاهتمام

على جهل رجال الدين .

ويمكننا القول بأن أرزمس كان من أشد المخلصين للكنيسة الكاثوليكية رغم هجومه الشديد على نقائصها ، فهو إذاً يريد بهجومه أن يصلح إعوجاجها وأن يقويها حتى لا تشتد النزعة القومية الانفصالية التى تريد القضاء على الوحدة الدينية لأوربا . وفى القضاء على الوحدة الدينية قضاء على وحدة أوربا السياسية التى سادت خلال العصور الوسطى .

حركة مارتن لوثر

لحركة مارتن لوثر أهميـة خاصة فى التاريخ الحديث لأنهـا بدأت بسيطة فى شكل هجوم على الأوضاع السيئة الموجودة بالكنيسة وفى نقد تصرفات رجال الدين . ثم تطورت من هذا المظهر البسيط إلى حركة قـوية هوجمت فيها العقيدة الكاثوليكية نفسها .

ولـكن هذه الحركة لم تقتصر على الناحية الدينية فحسب ، بل لقد تطورت وأصبحت حركة سياسية أيضاً بعد انضمام الأمراء الالمان لهـا ، لاتخاذها أداة لمنع التدخل الأجنبي فى شئون ألمـانيا فى صورته الدينية أو السياسية . فحركة مارتن لوثر - إذا ما نظرنا اليها من هذه الزاوية - تعتبر حركة قومية ضد التدخل الأجنبي أيا كان نوعه .

ثم تتطور الحركة تطوراً اجتماعياً عنـدما ثار المزارعون من أنصار مذهب لوثر ضد أمرائهم وأصحاب الأراضى والضياع .

فحركة مارتن لوثر اذاً من الحركات الهامة التى تركت أثراً عميقا فى ألمانيـا بصفة خاصة وفى أوربا بصفة عامة . فستؤدى إلى ظهور حركة أخرى مضادة من داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها أطلق عليها اسم (Counter Reformation) أوCatholique Reformation . وستؤدى أيضا إلى نشأة الحرب الأهلية فى فرنسا ، وإلى حرب أوربية هى حرب الثلاثين عاما خلال القرن السابع عشر .

أما عن زعيم تلك الحركة وقائدها مارتن لوثر فقد ولد فى مقاطعة سكسونيا

من أسرة فقيرة فى سنة ١٤٨٣، وقد تربى تربية دينية . وكان منزله المدرسة الأولى التى تربى فيها التربية الدينية الأولى . وسيكون لهـــذا أثره العميق فى حركته الاصلاحية فيما بعد . وقد نشأ فى طفولته فى جو قلق مضطرب وفى فزع دائم من تهديد الأتراك العثمانيين لدول أوربا. بل لقد ساعد هذا الجو على أن ينصرف الناس إلى العبادة دفعا لهذا الخطر التركى .

وكان مارتن لوثر فى صغره يرتزق من الغناء فى الكنائس وفى الطرق ، وعندما انتعشت حالة أسرته المالية بعثت به إلى جامعة ارفوت سنة ١٥٠٠ واتجه فى دراسته وجهة قانونية كرغبة والده ، فدرس القانون والأدب والفلسفة والموسيقى . ولكن فجأة تحول عن هذا الميدان إلى حياة الرهبنة ووهب نفسه للكنيسة . ويعللون حدوث هذا التحول المفاجىء إلى فقد أحد أصدقائه المخلصين وإلى حادث تعرض له وكاد يؤدى بحياته، فأقسم بينه وبين نفسه على أن يهب نفسه للكنيسة إذا ما نجا من الموت . وقد بر مارتن لوثر بوعده ودخل فى سلك الرهبنة للقديس اوغسطين فى سنة ١٥٠٥ ، وعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتب الأقدمين. ثم عين استاذاً لعلم اللاهوت فى جامعة وتنبرج.

وقد امتاز مارتن لوثر بمميزات الخلق الالمانى من صرامة الخلق ، وقـــوة الشخصية، والثقة بالنفس، والقدرة على التأثير على الغير.

قام مارتن لوثر معارضا الكنيسة الكاثوليكية لأول مرة فى سنة ١٥١٧ وذلك عندما وصل الراهب الدمنيكى تتزل Tetzel الى مدينة ويتنبرج لبيع صكوك الغفران. ولم تكن صكوك الغفران جديدة على الناس، بل كانت متداولة قبل لوثر. ولكن حدث أن رأى البابا إعادة بناء كنيسة القديس بطرس، فأصدر عدداً ضخماً من صكوك الغفران، وبعث برسله الى جميع أنحاء أوربا لجمع المال

اللازم لهذا الغرض . وقد صحب هذا العمل دعاية ضخمة من قبل الكنيسة ورجال الدين وروجوا لبيعها بمختلف السبل ، بل لقد بلغ بهم الاسفاف إلى حد إدعاء أن تلك الصكوك تغفر للانسان ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، بل إن المغفرة تتسع لمحو ذنوب الآباء والأصدقاء. فكان هذا التجاوز إذاً لحدود الدين مدعاة لهجوم مارتن لوثر على الكنيسة ، بل إن مارتن لوثر فى هجومه هذا كان يعبر عن رأى غالبية الألمان،وفى غضبته تعبير القومية الألمانية ومقاومة التدخل الأجنبى .

بدأ مارتن لوثر هجومه على الكنيسة أن علق احتجاجه المعروف على أبواب كنيسة وتنبرج ، الذى هاجم فيــــه صكوك الغفران هجوما عنيفاً.وأعلن عن استعداده لمناقشة أى فرد فيما جاء فيه .

لم يكن مارتن لوثر يعلم بأن مهاجمته لتلك الصكوك ستنقلب إلى حركة خطيرة ، ستؤثر إلى حد بعيد فى سياسة أوربا فى العصر الحديث ، وستكون محور المناقشات السياسية والحروب الأهلية والدولية التى نشأت فى هذا العصر .

وسنتعرض الآن للخطوات التى سارت فيها الحركة والتى أدت إلى نموها ونجاحها فى آخر الأمر .

أولا : كانت ألمانيا من الناحية الزمنية خاضعة لحكم الامبراطور شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكان شارل يحكم أكبر امبراطورية موحدة عرفها التاريخ منذ عهد شارلمان ، ولكنها بطبيعة الحال لم تكن خاضعة لنظام حكم واحد ، بل كانت مقسمة إلى ولايات وإلى وحدات صغيرة يقوم على حكم كل منها أمير طبقا لظروفها الخاصة . ولهذا فقــــد اقتصرت سلطة

الامبراطور على الناحية الاسمية فى معظم أجزائها . وأصبحت المشكلة المتعذرة الحل بالنسبة لأباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة هى إيجاد نوع من الحكم الموحد وضمان سلام نسبي لهذه الامبراطورية المتسعة الأرجاء .

وإن كان شارل الخامس من المخلصين للمذهب الكاثوليكى ، ولكنه لم يكن متعصبا له ، ولهذا فقد نشأت مقاومته لمذهب لوثر على أساس سياسى أكثر منه دينى ، وذلك لاعتقاده بأن تلك الحركة الدينية ستعمل على زيادة التفكك وعدم الوحدة مما قد يؤدى إلى انفصال تلك البلاد سياسياً عن الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ولكنه فى نفس الوقت لا يميل إلى استخدام الشدة والعنف ضـــد لوثر وأعوانه ، ويؤثر استخدام اللين والتفاهم ، على أمل أن تلك الحركة لن تلبث أن تموت بمضى الوقت . وقد ساعد هذا الموقف من قبل شارل الخامس على تهيأة الجو الملائم لنمو الحركة واشتدادها .

هذا من ناحية ظروف ألمانيا السياسية ، أما من ناحية شخصية مارتن لوثر والدور الذى قام به للسير فى دعوته الاصلاحية ، فنلاحظ أن مارتن لوثر كان فى نظر الشعب الألمانى المثل الأعلى للخلق الألمانى ، ففيه الجرأة والصراحة وقوة التعبير والقدرة على اجتذاب قلوب الناس حوله . وفيه أيضا الخلاص من تدخل الكنيسة الدينى ومن سيطرة الامبراطورية الضعيفة فالتفاف الألمانيين حوله فيه أكثر من معنى واحد ، ففيه اصلاح شئونهم الدينية ، وأهم من هذا وذلك تخليصهم من سيطرة البابوية الايطالية الدخيلة ومن خضوعهم لسيادة الامبراطور الاسبانى شارل الخامس .

وقد استغل مارتن لوثر الأوضاع الداخلية السائدة فى الولايات الألمانية فى السير بدعوته خطوات واسعة إلى الامام . فوجد أن سلطة الامبراطورية ضعيفة وأن الأمراء يتمتعون بسلطات واسعة فى إدارة شئون ولاياتهم . فإذا فكر الامبراطور فى القيام بعمل حربى للقضاء على تلك الدعوة ، فلا يمكنه ذلك إلا بموافقة الأمراء الألمـــان . وكان من الصعب على الامبراطور شارل الخامس الحصول على هذه الموافقة .

كذلك لم تكن الظروف المحيطة بالامبراطور شارل الخامس تسمح له بأن يتخذ خطوات حاسمة ضد تلك الحركة نظراً لمشاغله المتعددة فى ذلك الوقت ، فكان بينه وبين فرنسا حروب كثيرة . بالإضافة إلى مشاكله فى ايطاليا وفى الأراضى المنخفضة وفى محاربته للبربر فى شمال افريقيا ، ومقاومته للنفوذ العثمانى وذلك لوجود ممتلكات له فى شرق أوربا .

ومن الأسباب التى أدت إلى نجاح دعوة مارتن لوثر ، أنه نادى بأن ألمانيا يجب أن تكون للألمان فقط ، وهذه دعوة سياسية وجدت آذانا صاغيا من قبل الألمان ؛ نظراً لما عانوه من التدخل الاجنبى فترة طويلة من الزمن وقد كره الألمان البابا لأنه ايطالى قبل كل شىء ، وكرهوا الامبراطور لأنه اسبانى ، وقد ساعد هذا الكره على التفاف العناصر الألمانية حول مارتن لوثر ، فلم يعد لوثر فى نظرهم داعية دينيا فحسب ، ولكن زعيما قوميا أولا وقبل كل شىء . ولهذا فقد نجحت دعوته لأنها دعوة إلى التحرر من قيد السيطرة الأجنبية .

وظل الامبراطور فى تفكير مستمر بين الأحجام والاقدام ولم يتدخل تدخلا فعليا لمقاومة الحركة إلا بعد مضى ثلاثين سنة على قيامها ، وبعد أن اشتد عودها وكثر أتباعها .

أخذت الدعوة إذاً إلى إصلاح أحوال الكنيسة تنتشر ويتسع نطاقها ، وفشلت البابوية فى أن تضع حداً لهجمات لوثر فأصدر البابا ليو العاشر ضده قرار الحرمان ، فقابل لوثر هذا القرار بالسخرية وأحرقه على مرأى من الناس فى وتنبرج ورأى الامبراطور شارل الخامس عقد مجمع فى ورمز Wormes سنة ١٥٢١ للنظر فى تلك المشكلة ودعى لوثر لحضور هذا المجمع . وحاول بعض أصدقائه أن يحولوا بين لوثر وبين حضور هذا المجمع خشية أن يفعلوا به ما فعلوه فى جون هس من قبل . ولكن لوثر رفض الاذعان لرجائهم وذهب الى المجمع بعد أن أمنه الامبراطور ، وأخذ فى مناقشة الأعضاء والدفاع عن آرائه بقوة وحزم وانفض المجمع دون الوصول الى إتفاق بين الطرفين ودون أن يتراجع مارتن لوثر أو يعدل من آرائه .

وإزاء تلك النتيجة أصدر الامبراطور حرمان لوثر من حماية القوانين والسياسية . كما صدر اليه الامر بمغادرة ورمز . وفى ذلك الوقت تقدم فردريك منتخب سكسونيا لحمايته باعتباره استاذا فى جامعة وتنبرج . وفى قصر هذا الأمير ،أو فى قلعته على أصح تعبير ،عكف مارتن لوثر على ترجمة الأنجيل إلى اللغة الألمانية وسيكون لتلك الترجمة أثر واضح فى نمو الأدب الألمانى .

ولم تقف مجهودات الأمبراطور عند هذا الحد ، بل دعا إلى عقد مجلس آخر فى مدينة نورمبرج سنة ١٥٢٢ لنفس الغرض . ورفض أعضاء مجلس الدايت الألمانى الخضوع لرغبات الامبراطور والوقوف ضد الحركة اللوثرية ، بل لقد أبدوا استياءهم من تدخل البابوية فى شئون الولايات الألمانية .

وفى ذلك الوقت بدأت تظهر فى الأفق بعض العوامل التى أثرت على مجرى الحركة ، فحدث أن قام الفرسان الألمان بهجوم شديد على الأمراء ورجال الدين ،

وكان هدفهم من القيام بمثل هذا العمل ادخال بعض الاصلاحات بالقوة كمنـــع تداول صكوك الغفران ،ومنع البابا من التدخل فى الشئون الالمانية ،وانقاص عدد رجال الدين. وقد قامت تلك الحركة بطبيعة الحال كرد فعل لثورة مارتن لوثر الدينية، ولو أن مارتن لوثر لم يحرض هؤلاء الفرسان على القيام بتلك الحركة ، إلا اننا لانستطيع أن نغفل الدور الذى قامت به ثورة مارتن لوثر فى تهيئة الاذهـان للقيام بمثل تلك الأعمال ، فالحركة اللوثرية فى طبيعتها خروج على الـكنيسة وعـلى الأوضاع القائمة ، وما قامت حركة هؤلاء الفرسان إلا لتحقيق هذا الغرض أيضا .

بل لقد كان من رد فعل تلك الحركة الاصلاحية قيام ثورة الفلاحين الالمان فى جنوب غرب ألمانيا ، إذ ظن هؤلاء الفلاحون أن حركة مارتن لوثر هدفهـا الحرية والتخلص من كل القيود الدينية أو السياسية . ولما كانت تلك الطبقة تعانى من سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية الشىء الكثير فقد علقت آمالا عريضة على مارتن لوثر ، واعتقدت فيه الزعيم الروحى والمصلح الاجتماعى الـكبير الذى سيستطيع اخراجها من قيود الذل والعبودية . فقاموا بثورتهم الشهيرة فى جنوب وجنوبى غرب ألمانيا مطالبين بإلغاء حقوق الاقطاع التى أثقلت كـاهلهم .وكذلك إلغاء الضريبة العشرية التى كانت تفرض على المواطنين لحساب الـكنسية الكاثوليكية. كما طالبوا أيضا بتعليمهم مبادىء الدين الصحيحة المستمدة من الـكتاب المقدس .

واشتعلت نار الحرب الأهلية فى سنة ١٥٢٤ ووقف مارتن لوثر فى حيرة ، فهو بعاطفته يميل الى تحسين حالة تلك الطبقة الكادحة المظلومة . ولـكنه فى نفس الوقت لايقر مطلقا الخروج عن طاعة الحـكومة . فالطاعة للسلطة الحاكمة من الأسس الجوهرية التى قامت عليها دعوته.

هذا من جهة ،ومن جهة أخرى فقد اعتمد مارتن لوثر فى محنته بعد صدور قرار الحرمان من حماية القوانين المدنية ضده بعد إرفضاض مجمع ورمز عـلى حماية أحد الأمراء ، فهو إذاً مدين فى حمايته وحماية دعوته عـلى مساندة الأمراء الألمان . ولذا فمن مصلحة الدعوة تأييد الأمراء ضد ثورة الفلاحين ، وهـذا ما حدث بالفعل ، فوقف مارتن لوثر موقفا عـدائيا من تلك الثورة وحث الأمراء عـلى إخضاعها . فلا غرابة إذا ما خسر مارتن لوثر الزعامة الشعبية وتأييد الفلاحين . ولكنه لم يهتم كثيراً بهذه الخسارة لأنه لم يكن يعتمد فى نجاح دعوته على طبقة العامة بقدر إعتماده على تأييد بعض الامراء وعلى سلطة الحكومة وعطف الطبقة الوسطى .

وفى مدينة (سبير) Speier وفى عام ١٢٥٦ عقد مجلس الديت اجتماعه للنظر فى تلك المشكلة وقرر بعد بحث طويل ترك حرية إختيار المذهب الدينى لكل أمير من حكام الإمارات الالمانية حسب رغبته . وكان صدور هذا القرار المعقول نصراً جديدا لحركة لوثر ، فأقيمت الكنائس اللوثرية فى بعض الإمارات الالمانية مثل هس وبراندنبرج وهلشتين .

ولكن حدث فى سنة ١٥٢٩ أن اجتمع فى مدينة سبير مجمع آخر يقرر سحب القرارات السابقة التى اصدرها المجلس الاول . فاحتج أتباع لوثر عـلى هذا القرار الجديد فسموا بالبروتستنت (المحتجين).

واضطر لوثر وأتباعه أن يكونوا جبهة متحدة من الامارات البروتستنية للدفاع عن مصالحهم عرف بحلف شمالكلد Schmalkald Leage وذلك فى عـام ١٥٣١ .وبإنشاء هذا الحلف تنتقل الدعوة من مرحلة سلبية اعتمدت فيها على قوة الحجة والاقناع إلى مرحلة أخرى جديدة تقوم عـلى إستخدام القوة والعنف فى

الدفاع عن المذهب الجديد.

ويعتبر إنشاء هذا الحلف أيضا تحديا صريحا لسلطة الامبراطور ، ولكنه لم يقابل القوة بمثلها فقد آثر سياسة التفاهم واللين ريثما ينتهى من مشاكله المتعددة فى ايطاليا ومع فرنسا من جهة والاتراك العثمانيين من جهة أخرى . أى أنه أجل الاحتكام الى السلاح لحل هذا النزاع الى فرصة أخرى تكون أكثر ملائمة بالنسبة اليه . وقد واتته تلك الفرصة بعد عقد صلح كرسبى مع فرنسا فى سنة ١٥٤٤ ، فأخذ فى إعداد قوات حربية كبيرة لمهاجمة ألمانيا ، وخصوصا بعد أن أخذت الدعوة فى الإنتشار السريع ، وبعد أن دخلت إمارات ألمانية كثيرة فى المعسكر اللوثرى ، ومعنى هذا ضياع النفوذ الامبراطورى من ألمانيا وفشل تكوين الوحدة الالمانية التى كانت من أهم أهداف الامبراطور .

وفى عام ١٥٤٦ هاجمت قوات الامبراطور الاراضى الالمانية بعد أن غادر مارتن لوثر الحياة الدنيا ، وحدثت بين الطرفين معركة حربية على نهر الالب فى سنة ١٥٤٧ أطلق عليها أسم موقعة مهلبرج Muhlburg انتصرت فيها قوات الامبراطور وقضت على كل مقاومة لها فى ألمانيا وكان فى إستطاعة الامبراطور فى ذلك الوقت أن يفرض الحل الذى يراه ، ولكنه آثر حل تلك المشكلة بشىء من التفاهم . فعقد مجلس الديت بمدينة أوجزبرج Augsburg وأصدر هذا المجلس ما يسمى بالنظام المؤقت ريثما تحل المشكلة حلا نهائيا . وقد شمل هذا النظام الجديد بعض العناصر من المذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى . أى أنها محاولة للتوفيق بين تعاليم المذهبين الدينيين .

ولكن هذا الحل لم يرضى الطرفين المتنازعين ، فلم يقبل الكاثوليك أن

يعامل البروتستنت بمثل هـــذا التسامح ، كما عارض البروتستنت أيضا فى إقامة الشعائر الدينية الكاثوليكية داخل الولايات البروتستنتية . وقد كانت الظروف هـــذه المرة فى غير صالح الامبراطور ، فلم يجرؤ على استخدام القوة من جديد لظهور مشاكل جديدة وجهت نظر الامبراطور إلى خارج حدود ألمانيا .

فمن هذه العقبات التى ثارت فى وجه الامبراطور مقاومة الأمراء الألمان لزيادة نفوذه ولتدخله فى الشئون الألمانية ، فهو حاكم أجنبى أولا وقبل كل شىء سواء فى نظر الأمراء البروتستنت أم الكاثوليك ، وأن تدخله فى المسائل الألمانية سيضر بهم على السواء . ولذا فقد قاوموا هذا التدخل بكل قوة مستغلين فى ذلك الظروف العصيبة المحيطة بالامبراطور . ففى ذلك الوقت ساءت العلاقات بينه وبين أخيه فردنند حاكم النمسا بشأن وراثة عرش الامبراطورية . فقد كان من المسلم به أن يخلف فردنند أخاه شارل الخامس وقد وجد هنرى الثانى ملك فرنسا فى الأمراء الالمان فرصة ذهبية للدخول معهم فى مفاوضات بشأن إمدادهم بالمعونة اللازمة ضد شارل على أن يحقق مطامعه فى ضم المدن الألمانية الثلاث متز وتول وفردان .

وفى عام ١٥٥٢ قام حاكم سكسونيا بهجوم مفاجىء على قوات الامبراطور وأنزل بها هزيمة مفاجئة إلى حد أن الامبراطور نفسه كاد يقع فى الأسر .

وقد حاول الامبراطور شارل أن يستعيد نفوذه من جديد وفى أن ينتزع متز من أيدى الفرنسيين فلم ينجح ، وأخيراً اضطر إلى التنازل عن العرش فدعى مجلس الديت الالمانى للانعقاد فى أوجسبرج Augsburg فى عام ١٥٥٥ لوضع حل عملى لتلك المشكلة . وقد أصدر المجلس قرارات متعددة أهمها :

أولا : لم يهتم المجلس بفكرة توحيد ألمانيا من الناحية الدينية ولكنه ترك لكل ولاية حرية إختيار المذهب الذى ترتضيه . أى أنه لم يمنح الحرية الدينية للفرد بل أعطيت للولاية ، وبناء عليه فمن لا يتفق مذهبه مع مذهب الولاية التى يعيش فيها فعليه أن يرحل عنها إلى ولاية أخرى تتفق معه فى المذهب .

ثانياً : اعترف المجلس بالمذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى ، ولكنه لم يعترف بمذهب كلفن الذى أخذ ينتشر فى ذلك الوقت خارج حدود ألمانيا .

وسيستغل الكاثوليك عدم اعتراف البروتستنت بمذهب كلفن فى إذكاء نار العداوة بين الطرفين إضعافا لكلا الجانبين .

ثالثاً : اتفق أعضاء المؤتمر على إبقاء ولايات الكنيسة التى تحولت إلى المذهب البروتستنتى قبل عام ١٥٥٢ فى يد أمرائها البروتستنت . أما الولايات الأخرى التى تحولت بعد هذا التاريخ فتعود ثانية إلى الكنيسة .

هذه هى أهم الشروط التى اتفق الطرفان على احترامها والسير بمقتضاها حقنا للدماء ولحاجة الامارات إلى الهدوء بعد هذا الصراع الطويل .ولم تحقق قرارات مؤتمر أوجزبرج بطبيعة الحال كل ما كانت تصبوا اليه الإمارات الألمانية من أهداف . وستضطر ألمانيا الى خوض حرب طويلة فى النصف الأول من القرن السابع عشر وهى حرب الثلاثين عاما لتضع حداً نهائياً لتلك المشكلة بمقتضى معاهدة وستفاليا .

ويمكننا القول بأن تلك الحركة قد أدت الى نتيجتين هامتين الأولى : أنها استطاعت أن تقضى على وحدة أوربا الدينية التى استمرت قرون طويلة .

نفس أصل المصدر

ثانياً : أن تلك الحركة قد عملت على ايجـــاد الكنائس المحلية الحكومية الخاضعة لسلطة رأس الدولة .وكان مارتن لوثر متأثراً فى ذلك بالمصلح الانجليزى جون ويكليف .

كما ترتب أيضا على قرارات مؤتمر أوجزبرج ان بدأت الكنيسةالكاثوليكية تتنبه للخطر المحدق بها ، وأخذت تحاول إصلاح عيوبها فنشأت جماعة الجوزويت تقوم بحركة اصلاحية حفاظا على كيان الكنيسة .

حركة الاصلاح الدينى فى سويسرا وفرنسا

وقامت فى سويسرا حركة اصلاحية أخرى تزعمتها شخصية سويسرية عرفت بحبها للدراسات الدينية والسياسية تدعى تسفنجلى Zwingly ، وقد ظهر هذا المصلح الدينى فى مقاطعة عرفت باستقلالها الدينى والسياسى ، تلقى دراسته بجامعة بال ، واهتم بصفة خاصة بدراسته لتعاليم القديس أوجستين وبالدراسات الإنسانية . وكغيره من المصلحين لم تعجبه حالة الكنيسة ولا ما تردى فيه رجال الدين من فساد . فطالب بالحرية الدينية والفكرية كأساس لفهم الدين الفهم الصحيح .

وعندما عين تسفنجلى بمدينة زيورخ ، وكانت مستقلة عن البابا من الناحيتين الدينية والسياسية ، اتسع نشاطه وأخذ فى مناقشة المسائل الدينية والسياسية . وهاجم الكنيسة لبيعها صكوك الغفران .

وفى عام ١٥٢٣ نشر خمس وستون رسالة تعتمد فى أساسها على الكتاب المقدس، نادى فيها بوضع حد لعبث رجال الدين وذلك بإشراف الحكومة على الكنيسة . كما طالب أيضا بحل الأديرة .

وقد انتشرت مبادئه هذه بين طبقة الفلاحين ، كما أيدتها الحكومة لما تضمنته من المطالبة بإشرافها على الكنيسه . فهذه الحركة إذاً قد حظيت بتأييد الطبقة العامة والحكومة على حد سواء ، وقد منحها هذا الصفة الشعبية الديمقراطية ، شأنها فى ذلك شأن حركة مارتن لوثر قبل قيام ثورة الفلاحين . أما بعد حدوث

تلك الثورة أصبحت حركة مارتن لوثر حركة أوتوقراطية فبينما كانت الحركة اللوثرية محافظة كانت الحركة التسفنجلية ثورية ديمقراطية ٠وهذه نقطة خلاف بين الحركتين .

وقد أحدث إنتشار هذا المذهب الجديد فى زيورخ خــــلافا وانقساما فى التحالف السويسرى ،فبعض الولايات انضمت إلى تسفنجلى وأيدته والبعض الآخر عارضته . ولم تظهر الفوارق واضحة بين المذهبين التسفنجلى واللوثرى من بادىء الأمر ،ولـكن عندما بدأ تسفنجلى تحديد مذهبه تحديدا دقيقا ، بـدأت الفوارق تبدوا واضحة بعض الشيء ، إلى أن إنتهى الأمر بوجود خلافات أســاسية بين المذهبين ٠

أدى الخلاف بين الولايات المؤيدة لمذهب تسفنجلى وبين الولايات الكاثوليكية الأخرى إلى نشوب حرب بين الفريقين ، إنضمت فيه فرنسا إلى جانب إتبــاع تسفنجلى .ولم يحل هذا الأنضمام بينهم وبين الهزيمة فى موقعة كابل kappel فى سنة ١٥٣١ حيث قتل تسفنجلى نفسه فى تلك المعركة وعقد بين الطرفين صلح كابل وهو يشبه إلى حد كبير صلح أوجزبرج الذى عقد بين الكاثوليك واللوثريين، فقد اعترف صلح كابل بالوضع الراهن فى سويسرا . أى أن تبقى المقاطعات التى أيدت الحركة كما هى دون أى تغيير . وكذلك ترك لـكل مقاطعة الحـق فى إدارة شئونها كما تشاء دون إكراه .

على أن محاولة تسفنجلى نشر مذهبه فى سويسرا وفشله فى تحقيق هذا الهدف الى انتقال الزعامة الروحية من زيورخ الى جنيف الـــتى ستكون مركزا لنشاط حركة كلفن .

اذا تركنا سويسرا وانتقلنا الى فرنسا لوجدناهــا مسرحا لحركـة اصلاحية

أخرى هى حركة كلفن Calvin . ولد جون كلفن فى مقاطعة بكاردى Picardy الفرنسية وفى الشمال الشرقى من فرنسا فى ١٥٠٩ من أسرة فرنسية ، وتلقى دراسته الدينية والقانونية بها وكان لدراسة القانون أثره العميق فى تعاليمه الدينية وفى مذهبه الدينى . وقد اعتنق كلفن المذهب البروتستنتينى ، واستفاد من تعاليم القديس أغسطين ومن مذهب لوثر .

وفى عام ١٥٣٢ قام بنشر كتاب التسامح De Clemintea لسنيكا الفيلسوف . ولما كانت فرنسا تضيق الخناق على الخارجين على الكنيسة الكاثوليكية وجد كلفن أن من الأفضل مغادرة فرنسا الى سويسرا لعلمه بأن الحالة هناك مهيأة لدعوته وبالفعل فقد كانت مدينة جنيف تابعة للسيادة الاسمية لدوق سافوى ، وكانت مركزاً هاماً للثقافة نظراً لقربها من الثقافة الفرنسية والايطالية والألمانية، فهى اذاً ذات صبغة عالمية . وككل المراكز العالمية لاتهتم كثيراً بالنواحى الاخلاقية . أما من الناحية السياسية فكان النزاع على السلطة فيها قائما على أشده بين ممثل الكنيسة والحاكم الإدارى والسكان ودوق سافوى .

ولهذا فقد كانت مركزا صالحا لتعاليم كلفن وسياسته . وفى أثناء اقامة كلفن بمدينة بال السويسرية نشر كتابه الشهير Christianae Religioni Institutio وفيه أعلن بجرأة وبصراحة ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس كمرجع نهائى فيما يتعلق بالمسائل الدينية . كما نادى أيضا بأن تكون حرية الاعتقاد مكفولة للجميع .

وعاش كلفن فى جنيف مايقرب من الثمانية والعشرين عاما كرسها فى توطيد دعائم مذهبه الجديد . ولقد حاول أثناء اقامته بتلك المدينة أن يضع قانونا

لإصلاح الحالة الاخلاقية . ونظرا لشدة وطأة هذا القانون غضب عليه أهل المدينة وتقرر نفيه خارجها ولكنه أعيد اليها مرة ثانيا .

وقد عمل كلفن على انشاء كنيسة مستقلة وفقا لمبادئه ذات صبغة عسكرية ولها صلة وثيقة بالإدارة السياسية كى يضمن لها النجاح . وكما كان تسفنجلى الحاكم لمدينة زيورخ ، أصبح كلفن أيضا حاكما أوتوقراطيا لمـــدينة جنيف ، ولكن اصلاحات كلفن ستكون أبقى أثرا وأعم من اصلاح زميله تسفنجلى .

وفى اصلاحاته العديدة حاول كلفن أن يسد النقص الموجــود بالمذهب البروتستنتى ووضع قوانين صارمة لايحيد عنها . فمن اصلاحاته الكثيرة وضع قانون لمدينة جنيف لارشاد أهلها من الناحية الروحية . كما كون كذلك نقابة لاتباعه من رجال الدين وفرض عليهم نظاما عسكريا صارما . وأنشأ نظاما تعليميا يعتمد فى أساسه على دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية . وأصر عـلى ضرورة حضور اجتماعات الكنيسة ، وراقب الأخلاق فى المدينة بكل شدة ، وعاقب عـلى الزنا والخروج على الدين .

وبهذه القوانين الصارمة استطاع كلفن أن يسيطر على المدينة سيطرة تامة .

ومـــع أن مذهب كلفن جاء ليكمل ما فى البروتستنتية من نقص ، إلا أن هناك فوارق جوهرية بين المذهبين نتيجة الاختلاف فى كلا الشخصيتين وكذلك الاختلاف فى الظروف السياسية ، فبينما كان لوثر ينادى بضرورة سيطرة الدولة على الكنيسة كان كلفن يرى عدم سيطرة الدولة على الكنيسة. كما كان كلفن أكثر إهتماما من لوثر بالنظام والقوانين .

ولكن الدعوتين تتفقان فى أن كلا منهما قد أدت خدمات جليلة للغة ، فكان لترجمة

كلفن الانجيل إلى اللغة الفرنسية نفس الأثر الذى تركه ترجمة لوثر الانجيل الى اللغة الالمانية .

ويمكننا القول بأن مذهب كلفن قد أدى خدمات كبيرة للبروتستنتية وكان بمثابة الدم الجديد الذى أحياها وجدد نشاطها وحدد عقائدها ودافع عنها . واليه أيضا يرجع الفضل فى استقلال القسم الشمالى من الأراضى المنخفضة

وإذا كانت البروتستنتية قد جاءت إلى فرنسا من جنيف ، فإن فرنسا قد لعبت دورا هاما فى حركة الاصلاح التى بدأت فى أوائل القرن السادس عشر على أيدى نفر قليل من الانسانيين من أمثال لوفيفر Le Fevre و بريكينيه Briconnet ومرجريت Margarette أخت الملك فرنسوا الأول .

قام لوفيفر le Fevre بترجمة خطابات القديس بطرس، وكذا الكتب المقدسة الأربعة ، واهتم تلميذه بريكنيه بالناحية العلمية لحركة الاصلاح . وكان هؤلاء المصلحون يرون اصلاح شئون الكنيسة دون الرجوع إلى روما فى هذا الشأن.

وقد أثار انتشار مذهب لوثر فى فرنسا مخاوف المسئولين فيها من ضياع الوحدة الدينية التى تمتعت بها البلاد . ولذا فقد قامت حركة مضادة لوقف هذا التيار ومصادرة كل الكتب اللوثرية . ولكن اتفاق فرنسوا الأول مع اللوثريين كان يؤدى إلى فترات تسامح ، وذلك لرغبته فى إبعاد البابوية عن التدخل فى شئون فرنسا .

ثم أعقب الحركة اللوثرية حركة أخرى ظهرت فى فرنسا بظهور كلفن ونشره لكتابه أسس العقيدة المسيحية Christianae Religioni Institutio وكان البرلمان الفرنسى من أشد المعارضين لحركة الاصلاح الدينى والمضطهدين للبرتستنت ولكننا سنجد أن هذا الاضطهاد يحدث رد فعل قوى فى نمو البروتستنتية إلى

الحد الذى ترى فيه الملكية فى فرنسا ضرورة التدخل لوقف الحركة والقضـاء عليها فى عهد هنرى الثانى . وترتب على ذلك إنشاء محاكم لمحاكمة المارقين. وفى سنة ١٥٥١ صدر منشور شاتوبريان بحرمان البروتستنت من بعض الحقوق المدنية.

وستكون الفترة فيما بين ١٥٥٨ و ١٥٩٨ مملوءة بحروب دينية طويلة شغلت فترة غير قصيرة من تاريخ فرنسا إلى صدور مرسـوم نانت Nantes فى سنـة ١٥٨٨ الذى أباح للهجونت (اتباع كلفن) حرية العقيدة فى فرنسا .

وكما انتصرت العقيدة اللوثرية فى المانيا بعد حروب طويلة انتصرت الحركة الكلفنية فى فرنسا بعد حروب مماثلة .

وفى نهاية الأمر سيقضى ريشيليو عـلى استقلال الهجونت وسيطردهم لوى الرابع عشر من فرنسا بعد سحب مرسوم نانت .

حركة الاصلاح الديني في انجلترا واسكتلندة

كان الشعب الانجليزي بطبيعته لا يهتم اهتماما كبيراً بالمسائل الدينية أو الفقهية كغيره من الشعوب الأخرى . فالانجليز مشهورون بميلهم إلى المحافظة في جميع شئونهم سواء منها السياسية أو الدينية ، فهم يؤمنون بالتطور التدريجي ولا يميلون إلى الحركات الانقلابية أو المفاجئة .

فإذا نظرنا إلى الكنيسة الكاثوليكية في انجلترا في أوائل القرن السادس عشر لوجدنا أن هذه الكنيسة كانت تتمتع بنوع من الاستقلال عن كنيسة روما . ولم يكن هذا وليد القرن السادس عشر ، بل لقد حرصت الكنيسة الانجليزية طوال العصور الوسطى على أن تحتفظ بنزعتها القومية .

ولهذا نجد أن معظم الشعب الانجليزي قد وقف إلى جـــوار ملكه هنري الثامن في صراعه مع البابوية ، لأنه وجد في هذا الصراع دفاعا عن قومية الكنيسة الانجليزية واحتفاظا بمركزها القديم . ولذا لم يبد الشعب الانجليزي اهتماما كبيراً عندما خطا هنري الثامن خطوته الجريئة بفصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما ، لأن هذا الانفصال لم يصحبه أي تغيير في أسس العقيدة الدينية .

وهناك فارق هام بين حركة الاصلاح الديني في انجلترا وحركات الاصلاح الأخرى التي نشأت في أوربا ، وهو أن حركة الكنيسة الانجليزية لم تتحقق عن طريق المنادين بالاصلاح الديني من أمثال جون ويكليف وغيره ، وإنما جاءت عن طريق رغبة شخصية تتعلق بالملك هنري الثامن قبل أن تتعلق بالكنيسة

الانجليزية نفسها . كما أننا نستطيع أن نعتبر تلك الحركة خطوة سياسية أكثر منها دينية .

فالاصلاح الدينى فى انجلترا مرجعه إلى الخلاف الذى حدث بين الملك هنرى الثامن ملك انجلترا والبابوية بشأن رغبة الملك فى طلاق زوجته ليتزوج من أخرى ومعارضة البابوية فى ذلك . واستطاعت الملكية الانجليزية بمعاونة توماس كرومويل Cromell وسمرست من فصل كنيسة انجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية . وقابلت البابوية تلك الخطوة باصدار قرار الحرمان ضد الملكية الانجليزية .

وفى سنة ١٥٣٤ أعلن البرلمان الانجليزى بأن الملك هـو الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية التى أطلق عليها اسم الكنيسة الانجليكانية . وتبع ذلك القضاء على الأديرة ومصادرة أموالها وممتلكاتها ، وقد أثار هذا العمل غضب أغلبية الشعب الانجليزى على دين الدولة الجديد . ولكن الملكية الانجليزية أخذت على عاتقها اسكات جميع الأصوات التى ترتفع بمعارضة إرادتها وبهذه الوسيلة استطاع الدين الجديد أن يأخذ طريقه فى الانتشار ، حتى إذا ما وصلنا إلى أواخر أيام حكم الملكة اليصابات نجد أن أغلبية الشعب الانجليزى قد تحولت الى البروتستنتية ، أى إلى مذهب الكنيسة الانجليكانية نتيجة لنمو فكرة القومية .

أصيبت حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا بنكسة شديدة بتولى الملكة ميرى Mary عرش انجلترا . فما أن اعتلت هذه الملكة عرش بريطانيا إلا وقامت بالغاء كل التشريعات التى وضعها توماس كرومول وسمرست مما لا يتفق مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذت فى اضطهاد العناصر الغير كاثوليكية وسادت فى انجلترا موجة من القتل والإرهاب ضد هؤلاء المخالفين .

واعتبر الشعب الانجليزى تلك السياسة الرجعية من وحى زوج الملكة فيليب الثانى ملك اسبانيا التى تعتبر من معاقل الكنيسة الكاثوليكية . وفى ذلك الوقت بدأ التنافس الاستعمارى يشتد بين اسبانيا وانجلترا حول استعمار القارة الأمريكية، ووجد الانجليز أن فى مقاومة نفوذ ملك اسبانيا ما يؤكد قوميتهم .

وقد كان لضروب الارهاب والاضطهاد أثر بعيد فى انتشـــار المذهب البروتستنتى بين الشعب الانجليزى . وفى مقاومته وعـدم خضوعه للاضطهاد أيا كان نوعه .

خلف الملكة ميرى على عرش انجلترا الملكة اليصابات . ولم تكن تعنى بالمسائل الدينية عناية تذكر . ولذا فقد وقفت موقفاً معتدلا من حركة الاصلاح، فارجعت الكنيسة الانجليزية إلى حالتها التى كانت عليها أثناء حكم والدها هنرى الثامن ، ولأنها كانت تؤمن بأن ما قدم عليه والدها من فصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما عمل سياسى له أهميته .

ولقد سارت اليصابات على سياسة عـدم المجاهرة بالعداء ضـــد الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، ولكن عنـدما حرم البابا على الكاثوليك إقامة شعائرهم الدينية فى الكنائس الانجليزية فى عام ١٥٦٢ بدأ بينها صراع طويل ، اتخذ شكل نزاع قوى مع اسبانيا.

وفى عام ١٥٥٩ أصدر البرلمان الانجليزى قانونين هامين هما الدعامة التى قام عليها النظـام الكنسى الانجليكانى . القانون الأول ويطلق عليه اسم Supremacy وينص على رئاسة العرش الانجليزى للكنيسة . والقانون الثانى هو Uniformity الذى أجبر الناس على الذهاب إلى الكنيسة الانجليكانية واتباع تعاليمها. وبهذين القانونين تميزت الكنيسة الانجليزية عن غيرها وأصبح لها طابع خاص .

فى أثناء هذا الاضطراب الذى ساد الناحية الدينية فى انجلترا ظهر كلفن بمذهبه الجديد وأخذت مبادئه تنتشر فى ربوع أوربا وانتقلت منها إلى اسكتلندة عن طريق أحد مريديه جون نكس John Knox حيث بدأت تنتشر فى تلك البلاد وتسرب منها إلى انجلترا . ولكن الملكة اليصابات أخذت تقاوم هذا المذهب الجديد لما يتضمنه من تقديس للسلطة الروحية وجعلها فوق السلطة الزمنية ، فخشيت أن يؤدى إنتشار هذا المذهب إلى انهيار نفوذها .

وقد ظل اتباع كلفن فئة مستضعفة فى انجلترا حتى زالت أسرة تيودور من الحكم فبدأ نشاطهم فى الظهور وعددهم فى الكثرة .

وأما حركة الاصلاح الدينى فى اسكتلندة ، فقد قامت فى نفس الوقت الذى قامت فيه بانجلترا . وساعد على نموها الظروف السياسية التى أحاطت باسكتلندة وتركيز السلطة فى أيدى النبلاء الاقطاعيين .

وكما ذكرنا من قبل ، عرفت اسكتلندة مذهب كلفن عن طريق أحد اتباعه ويدعى جون نكس John Knox عام ١٥٥٥ . وأخذ هذا المذهب فى الانتشار بتأييد من النبلاء الذين أعلنوا فى عام ١٥٥٧ اتبــاع مذهب كلفن والقضاء على الكاثوليكية .

وقد كان لحركة كلفن أثر هام فى انعاش اسكتلندة وفى تحويلها من دولة من دول العصور الوسطى إلى دولة حديثة، لأنها قضت على الصلة التى تربط اسكتلندة بروما وشبه التبعية لفرنسا ، وجعل من الميسور عليها الاندماج مع انجلترا فى أوائل القرن الثامن عشر .

حركة الاصلاح الكاثوليكى

Catholique Reformation

ظهرت تلك الحركة كرد فعل لحركات الاصلاح الدينى ، إذ وجد المهيمنون على شئون الكنيسة والغيورون على العقيدة الكاثوليكية أن من مصلحتهم ومصلحة الكنيسة الكاثوليكية إذا أرادت لنفسها البقاء أن تصلح من شئونها وأن تقوم اعوجاجها وأن تتلخص من الشوائب التى علقت بها والتى كانت مركزاً لهجمات المصلحين أمثال مارتن لوثر وكلفن وغيرهم .

وقد قام بهذه المحاولة فى أول الأمر ارزمس Erasmus فحاول التوفيق بين مبادىء المذهبين والتقريب بين وجهة نظرهما، ولكن محاولته هذه ومحاولات غيره ممن ساروا على نفس الدرب لم يتحقق لها النجاح لإصرار كل من الطرفين على موقفه وعدم رغبتها فى الالتقاء أو التقارب .

وفى عهد البابا بول الثالث Paul III قامت حركة لإصلاح شئون الكنيسة الكاثوليكية وعقد مجلس ترنت لهـــذا الغرض ، وأسفر الاجتماع عن بعض القرارات أهمها الاعتماد على الكتاب المقدس والتقاليد الكنسية ومعارضة الكثير من العقائد اللوثرية . ولم يكن الامبراطور راضيا عن تلك الحركة .

ولكن فى عهد البابا يوليوس الثالث Julius III يستمر انعقاد المجلس فى ترنت ويشتد النقاش حول المسائل المعروضة على بساط البحث، وتقوم الحرب فى ألمانيا وفى أجزاء الامبراطورية الأخرى . وأصبحت مدينة ترنت مهددة

بزحف البروتستنت . ورغم تلك العقبات فقد سارت حركة الاصلاح بخطى واسعة فى عهد البابا بيوس الرابع الذى اتخذ من محاكم التفتيش قوة يعتمد عليها فى التخلص من الخارجين على سلطان الكنيسة . وفى عهده يجتمع المجلس مرة أخرى فى ترنت . وقرر مواصلة الاصلاح وعدم الأخذ بوجهة نظر البروتستنت. إلا أن المناقشة تعثرت عندما بدأوا يبحثون فى سلطة البابا ، ومدى تلك السلطة . وطالت المناقشات دون أن يصلوا إلى رأى قاطع فى هذا الموضوع . وازدادت المنافسات عنفا بين الكاثوليكية والبروتستنتية نتيجة تلك الاصلاحات وأعلنت الحرب صراحة على البروتستنتية .

وكان سبيل الكنيسة الكاثوليكية فى القضاء على منافسيها الاعتماد على طائفة الجزويت JESUITS . وطائفة الجزويت هذه طائفة دينية كاثوليكية متحمسة لكاثوليكيتها ، قام بإنشائها رجل أسبانى الأصل يدعى دون انجو دى ريكولد Don Ingo de Recalde ممن تلقوا ثقافتهم الدينية بجامعة باريس . وقد كرس هذا الرجل حياته لخدمة الكاثوليكية وكون فى عام ١٥٤٠ جمعية دينية أطلق عليها اسم جمعية المسيح . وكان هدف تلك الجمعية خدمة المسيح والبابا والديانة المسيحية ، والعمل على نشرها عن طريق الوعظ والارشاد والتعليم والتدريب :

وقد وجدت تلك الجماعة من تشجيع البابوية ما ساعدها على القيام بمهمتها بنجاح كبير ، فأرسلت البعوث التبشيرية المختلفة إلى جميع بقاع العالم بما فى ذلك الصين واليابان ، واهتمت بصفة خاصة بفتح المدارس وتدريس العلوم الدينية والقانونية .

وإلى تلك الجماعة يرجع الفضل فى وقف انتشار البروتستنتية وإلى انعاش

الكنيسة الكاثوليكية ، فهذه الجماعة فى حقيقة الأمر تعتبر الجيش السلمى للكنيسة الكاثوليكية .

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد لجأت عن طريق تلك الجماعة إلى وقف تيار البروتستنتية بالوعظ والاقناع والتثقيف والتعليم ، فلم يكن هذا هو سبيلها الوحيد فى مكافحة منافسيها ، إذ لجأت إلى سلاح آخر لا يعرف الرحمة أو اللين. وهو إنشاء محاكم التفتيش للقضاء على المارقين والملحدين والبروتستنت. وقد انشئت تلك المحاكم فى بعض الدول الكاثوليكية ، ونجحت تلك الوسيلة فى القضاء على عوامل الفرقة والمحافظة على الوحدة الدينية فى اسبانيا وايطاليا .

وكان من الطبيعى أن تلجأ تلك المحاكم إلى وسائل التعذيب والارهاب وإلى تقييد الحريات ، كحرية التعبير عن الرأى أو حرية العقيـدة ، فوضعت رقابة شديدة على كل ما ينشر من آراء فى الكتب أو المنشورات . كما وضعت قائمة سوداء بأسماء الكتب المحرمة على الناس قراءتها ، وحذف العبارات التى لا تتفق مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية .

وعوقب كل فرد تسول له نفسه قراءة الكتب المحرمة بالطرد من رحمة الكنيسة Excommunication .

وكان لكل تلك الاجراءات التعسفية أثرها الواضح فى تأخير ايطاليا .

الفصل السادس

ثورة الأراضى المنخفضة

تقع الأراضى المنخفضة تقريبا فى المنطقة الواقعة بين نهر الألب وشمال فرنسا وهى تشمل ما نطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم بلجيكا وهولندا . والأراضى المنخفضة عبارة عن جملة ولايات تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد كارل الخامس ثم آلت إلى ابنه فيليب الثانى من بعده عن طريق الوراثة . وهى تتكون من سبع عشرة ولاية : منها سبع شمالية من الجنس التيوتونى وهى زراعية وبحرية ، والجنوبية من الجنس السكلتى ويمارس أهلها التجارة والصناعة .

ولذا فثورة الأراضى المنخفضة وثيقة الصلة بشخصية الملك فيليب الثانى الذى كان يجرى فى عروقه الدم الاسبانى والالمانى . وكانت مملكته تضم أسبانيا وملحقاتها من الأراضى المنخفضة ومستعمراتها .

وإذا نظرنا إلى حالة أسبانيا فى تلك الفترة لوجدنا أنها كانت من أقوى الدول المسيحيه الكاثوليكية ومن أكثرها ثروة وغنى ، وذلك نظرا لتدفق الذهب عليها من مستعمراتها فى الامريكتين . كما كان مركزها كدولة استعمارية ذا أهمية دولية كبيرة ، وقد مكنها هذا المركز الممتاز من إيجاد علاقات ودية وروابط قوية مع غيرها من الدول عن طريق الزواج والمصاهرة مثل انجلترا وفرنسا والبرتغال .

فالملك فيليب الثانى كان من أنشط الملوك الذين وصلوا إلى عرش أسبانيا ،

وكان متحمسا للدين المسيحى وممن يعتنقون نظرية التفويض الإلهى ، وفى وجوب طاعة الشعب للملك . وكثيرا ما كان يلجأ الملك إلى إستخدام وسائل القوة والعنف فى تنفيذ أغراضه؛ ولم يكن هذا بغريب عن روح العصر . كان يراقب الأمور بنفسه، ويشرف على كل شىء بقدر ما يسمح نشاطه ، ولم يكن للكورتيز سلطة حقيقية، لأنه كان قليل الانعقاد ، ولأن أعضاءه كان يعينهم الملك ، فكان فيليب ملكا مستبداً بيروقراطياً ككل ملوك ذلك العصر .

هذا من ناحية الملكية الاسبانية ، أما من ناحية السياسة الخارجية نجد أن الحكومة الأسبانية قد وضعت نصب أعينها تحقيق أهداف ثلاثة وهى :

أولا : الاهتمام بالسيطرة والاستعمار ، ثانيا : الاهتمام بالمسائل الاوربية وما يجرى فى القارة الاوربية.

ثالثا : إتخاذ سياسة دينية معينة هدفها نصرة المذهب الكاثوليكى ، وقد عرضتها تلك السياسة إلى الاصطدام بفرنسا .

وسنرى أن توزيع جهود أسبانيا نحو تحقيق هذه الأهداف الثلاثة سيؤدى بها إلى تشتيت قواها وإلى إخفاقها فى نهاية الأمر .

ولن تستطيع اسبانيا أن تحافظ على ما نالته من مجد وما حققته من كشف نتيجة لسوء سياستها ، حتى اضطرت فى النهاية إلى الاستدانة من بنوك ألمانيا وإيطاليا للصرف على قواتها الكبيرة العدد . ثم إن حصول أسبانيا على مقادير كبيرة من المعدن النفيس سبب قيام أزمة اقتصادية هائلة لم يتمكن العقل الاسبانى فى ذلك الوقت معالجتها .

أما من ناحية الشعور الدينى فكان الشعب الاسبانى متعصبا للكاثوليكية

نظراً للظروف التاريخية التى مرت باسبانيا ، ونشوء الصـــراع الدينى المختلط بالسياسة بين الاسبانيين والعرب . ولذا تتسم السياسة فى أسبانيا بالتعصب الدينى وامتزاج السياسة بالدين . كما كان للمسألة الدينية جانب آخر هو الجانب القومى.

كان هذا هو الحال بالنسبة لاسبانيا ، فاذا انتقلنا إلى الأراضى المنخفضة الخاضعة لحكمها نجد أن الأمر يختلف عن ذلك . فبينما يسود التعصب الديـنى اسبانيا يميل سكان الأراضى المنخفضة إلى الحرية الدينية نظراً لظروفهم الخاصة التى تختلف عن ظروف الاسبانيين .

من هذه الظروف موقع الأراضى المنخفضة بالنسبة لالمانيا وقربها منهـا وانتقال المذهب الجديد اليها سواء مذهب لوثر أو كلفن، وما استتبع ذلك من مطالبة سكان الاراضى المنخفضة بالحرية الدينية ، تلك الحرية التى لم يكن فيليب الثانى على استعداد لمنحها إياهم . بل إن سياسة فيليب الثانى إزاء الاراضى المنخفضة كانت تهدف إلى توحيدها سياسيـا تحت النفوذ والسيطرة الاسبانيـة ، وكذلك توحيدها دينيا تحت سيطرة المذهب الكاثوليكى ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة.

ولم تكن الاراضى المنخفضة بطبيعة الحال على استعداد لقبول مثل تـلك السياسة التى لم يراعى فيها إرادتها أو مصلحتها الخاصة ، والتى لا تتفق مع ماضيها القديم . فاذا رجعنا الى الوراء لوجدنا أن الاراضى المنخفضة كانت خاضعة قبل عهد فيليب الثانى للإمبراطورية الرومانية المقدسة خضوعا إسميا ، فى حين أنهـا كانت تتمتع باستقلال داخلى فى إدارة شئونها الداخلية . ولم تـكن موحدة من الناحية السياسية . وقد رأت تلك الولايات أن من مصلحتها إيجـاد نوع من الرابطه أو الوحدة فيما بينها ، فأنشأت مجلسا يجمع الطبقات الارستقراطية والدينية

والعامة أطلق عليه اسم States General للنظر فيما يهم الولايات جميعها . ولكن هذا ليس معناه توحيد حكومات السبع عشر ولاية في حكومة واحدة . وظلت الولايات مع هذا مستقلة عن الأخرى وتحتفظ بتقاليدها ونظمها .

كما أننا إذا نظرنا إلى حالة تلك الولايات بصفة عامة في عهد كارل الخامس نجد أنها كانت تدين بالولاء له ، ولم يكن التذمر من الحكم الاسباني قد بلغ ما بلغه في عهد خلفه فيليب الثاني . وهذا راجع بطبيعة الحال الى ظهور حركة الاصلاح الديني وإنتشارها في الأراضي المنخفضة ، ومحاولة فيليب الثاني القضاء عليها بالقوة . فأدى هذا إلى ازدياد حركة الكره لكل ما هو أسباني ، وإلى قيام الثـورة في النهاية . ولقد طلب سكان الأراضي المنخفضة حكاما من أنفسهم ، فاذاً المسألة القومية كان لها عامل كبير في ثورة الأراضي المنخفضة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان الاختلاف كبيرا بين كل من الدولتين ، إختلاف طبيعي يتعلق بطبيعة الأرض والموقع الجغرافي ، واختلاف في البيئة ، وفي نظام الحكم وفي المذهب الديني ، وفي مدى تأثر كل منها بحركة النهضـة الأوربية ... الخ . كل هذه العوامل قد ساعدت بطبيعة الحـال على اختـلاف مزاج كل منها ، وفي تباين نظرتها للامور .

فاذا تناولنا طبيعة الارض بالبحث نجد اختلافا بين الاثنين ، فالأراضي المنخفضة سهلة منبسطة ، بينما الأراضي الأسبانية جبلية وتمتد جبالهـا من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي . كذلك نلاحظ أن سكان أسبانيا يشتغلون بالزراعة ، أما أهالي الأراضي المنخفضة فهم يشتغلون بالتجارة ، وكذلك بتربيـة الاغنـام للاستفادة بصوفهـا في صناعة المنسوجات الصوفية . كما أن صغر مساحة الاراضي

المنخفضة جعلت أهلها يهتمون باستغلال كل شبر من أراضيها . ومن ناحية الموقع الجغرافى نجد أن بعد الاراضى المنخفضة عن أسبانيا، وانفصال أراضى الدولتين عن بعضها ، أغرى سكان الاراضى المنخفضة على الثورة، وخصوصا إذا كانت فرنسا وهى الدولة الفاصلة بين الدولتين على صلة عداء بأسبانيا . ولكن أسبانيا كانت تستطيع الوصول إلى الاراضى المنخفضة عن طريق البحر ، إلا أن هذا الطريق كان محفوفا بالمخاطر ، ولاسيما إذا لم يكن هناك اتفاق بين الاراضى المنخفضة وانجلترا .

أما من ناحية نظام الحكم نجد أن أسبانيا دولة موحدة تحكم حكما استبداديا وتتمتع الملكية فيها بسلطة مطلقة فى إدارة شئونها ، بينما نجد أن مدن الولايات المنخفضة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال ، وإن ربط بينها مجلس الطبقات إلى حد ما . وقد عرفت الأراضى المنخفضة نظام المدينة ، وكان بها مدن لها شهرة عالمية . ويسكن المدن بطبيعة الحال الطبقة الوسطى المثقفة المستنيرة ، ومعنى هذا أن تلك البلاد بلاد راقية اشتغل أهلها بالصناعة والتجارة وأثروا من وراء ذلك . فهم إذا ما قورنوا بسكان المدن الاسبانية - يفوقونهم فى المستوى العلمى والعملى. وإذا نظرنا إلى أثر حركة النهضة فى كل من الدولتين نجد أن أسبانيا قاومت الحركة الفكرية تعصبا لكاثوليكيتها ، أما الاراضى المنخفضة فقد قامت فيها حركة فكرية وثقافية . وقد ساعدتها تلك الثقافة على أن تستغل تبعيتها لاسبانيا فى احتكارها للتجارة ، وبذلك أخذت مدنها الشهيرة تنمو وتزدهر .

أما من ناحية المذهب الدينى ، فكل من الدولتين يدين بالديانة المسيحية ، ولكن أسبانيا تعصبت للمذهب الكاثوليكى . بينما تأثرت الاراضى المنخفضة بحركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا ، فعرفت مذهب لوثر ومذهب كلفن، وتمسكت بحرية

العقيدة . وقد أدى اختلاف نظرة كل منها إلى الدين إلى قيام الثورة .

ومن أهم الأسباب التى أدت إلى الثورة هو كذلك الاحتلال الأسبانى للاراضى المنخفضة ، فالاحتلال بغيض إلى النفس مهما كانت المبررات ، وخصوصا إذا كان من دولة أقل مرتبة فى الثقافة وفى الرقى . فالأسبانيون قد أقاموا بتلك البلاد حاميات عسكرية أخذت تعيث فى الأرض فساداً وتعتدى على أعراض الناس وممتلكاتهم دون مبرر لذلك . وقد أساءت تلك الحاميات إلى الأهالى أيما إساءة ، وكانت من الأسباب الجوهرية فى انفجار الثورة .

ويمكننا أن نقسم العوامل التى ساعدت على نجاح تلك الثورة إلى قسمين: عوامل داخلية تتعلق بالأهالى أنفسهم وعوامل أخرى خارجية :

أما عن العوامل الداخلية ، فمنها **أولا** : — الموقع الجغرافى وانفصال أسبانيا عن الأراضى المنخفضة وقد أشرنا اليه من قبل .

ثانيا : ساعدت طبيعة الأرض الأهالى على مقاومة العدو ، وذلك بقطع الترع والجسور وغمر المساحات الواسعة بالمياه مما اضطر الاسبانيين على التراجع وعدم مواصلة الزحف والقتال .

ثالثا : تركيز ثورة الأراضى المنخفضة تحت زعامة وليم أورانج Willam Orange الذى استطاع أن يجمع حوله قلوب كبار الشخصيات الهولندية ، وأن يضم صفوف الشعب ويوحد قواها ضد الحكم الاسبانى .

رابعا : تفوق الهولنديين فى الناحية البحرية ، هذا التفوق الذى مكنهم من مقاومة القوات الاسبانية والبحرية ومن استيلائهم على جزر الهند الشرقية من

الاسبانيين . وظلت تلك الجزر فى أيديهم إلى قيام الحرب العالمية الثانية حيث تمكنت القوات اليابانية من الاستيلاء عليها وطرد الهولنديين وتخليص تلك الجزر من حكمهم.

خامسا : إن الثروة الكبيرة التى تركزت فى أيدى سكان الاراضى المنخفضة نتيجة اشتغالهم بالتجارة مكنتهم من مواصلة القتال ضد الاسبانيين فترة طويلة من الزمن إلى أن كتب لهم النصر .

سادسا : إيمان الهولنديين بعدالة قضيتهم وتصميمهم على التخلص من السيطرة الاسبانية ومن التدخل فى شئونهم الدينية والسياسية .

أما فيا يتعلق بالعوامل الخارجية فيمكن إرجاعها الى مساعدة كل من انجلترا وفرنسا للاراضى المنخفضة فى نضالها ضد اسبانيا . فانجلترا كانت ترى أن من مصلحتها استقلال الأراضى المنخفضة عن أسبانيا حتى لا تتمكن اسبانيا من إتخاذ تلك البلاد المواجهة لانجلترا قاعدة حربية لجيوشها ضد الجزر البريطانية.

كما أن فرنسا كانت ترغب مطلقا فى وجود أسبانيا كدولة قوية على حدودها الجنوبية،فكان من سياستها إذاً العمل على إضعاف أسبانيا رغم اختلاف فرنسا مع الاراضى المنخفضة فى المذهب الدينى . كذلك وجدت فرنسا أن وقوفها هذا الموقف من اسبانيا فيه تحد لسياسة الامبراطورية الرومانية المقدسة . فكان تدخل الدولتين الكبيرتين انجلترا وفرنسا فى هذا النزاع تحقيقا لمصلحتها الخاصة .

كانت ظروف الحرب إذاً فى صالح الاراضى المنخفضة فالجيوش الاسبانية فى حربها لتلك البلاد لم تكن تواجه القوات الهولنديه فحسب، بل كانت تواجه ضغطا آخر من قبل فرنسا ، فكثيراً ما كانت الجيوش الاسبانية تضطر أثناء

الحرب فى الأراضى المنخفضة إلى التدخل فى الحرب الأهلية فى فرنسا لشغل فرنسا عن مساعدة الثوار .

تجمعت عوامل الثورة فى الأراضى المنخفضة نتيجة لسياسة فيليب. وأخذت القوى المعارضة للحكم الاسبانى تستقطب وتتجمع حول شخصية وليم أورانج ومعاونيه الكونت اجمونت Egmont والأميرال هورن Hoorn وكلا الرجلين كاثوليكى المذهب .

حاول فليب أن يخفف من حدة المعارضة لحكمه فسحب الحاميات الاسبانية من هولندا فى سنة ١٥٦٠ ، وسحب أيضاً الكردينال جرنفيلا Granvella صاحب الكلمة العليا فى الأراضى المنخفضة. ولكنه ظل متمسكا بتنفيذ المراسيم الصادرة ضد البروتستنت ، وتأييد محاكم التفتيش .

ولقد وقع خمسمائة من النبلاء على ميثاق للدفاع عن أنفسهم وأموالهم ضد الاضطهاد والاستبداد ، ومناهضة محاكم التفتيش ، وتقدموا بها إلى مرجريت بارما الحاكمة على الأراضى المنخفضة من قبل الملك فيليب ، فرفضت قبولها. وكان ذلك ايذانا باندلاع الثورة فى أغسطس ١٥٦٦ .

قامت الثورة قوية عاتية، وانتشرت الفوضى فى الأراضى المنخفضة، وإزداد الهياج على الحكومة الاسبانية، وقام أنصار كلفن بالهجوم على الكنائس الكاثوليكية وتحطيم الصور والتماثيل ، ثم هوجمت كاتدرائية انتورب. فأغضب هذا العمل الكاثوليك ، وبدأ الانقسام يدب بين أصحاب المذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى .

اضطر فليب إلى التراجع ريثما يتم استعداده ، فألغى محاكم التفتيش ، وأعلن عفواً شاملا عن الثائرين ، واتفق النبلاء على السعى لارجاع النظام إلى البلاد

ثانية ، فعادت إلى البلاد طمأنينتها . ولكن فيليب انتهز فرصة الانقسام الذى حدث بين معارضيه وأرسل حملة اسبانية إلى الإراضى المنخفضة على رأسها الدوق ألفا Alva للقضاء على العناصر الشاغبة . ولقــد استخدم ألفا منتهى الشدة والعنف فى القضاء على الثورة ، فأنشأ ما يسمى بمجلس الدم للقضاء على الفوضى والاضطراب ، ومحاكمة مثيرى الشغب . وحكم على إجمونت وهورن بالاعدام . ثم أخذ يستغل الاختلاف الجنسى والعقائدى بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فى الأراضى المنخفضة لبذر بذور الشقاق بين السكان .

حل ألفا محل مرجريت بارما ، وكان يمثل كل ما هو اسبانى تمام التمثيل ، وكان يرى ضرورة إدخال النظم الاسبانية كلها فى الأراضى المنخفضة ، وكان يرى توحيد البلاد وإخضاعها للملك والكنيسة . ولم يحاول ألفا تـدبير الوسائل التى يستعملها لذلك الغرض .

وحاول وليم أورانج الذى أصبح من أنصار كلفن أن يغزو البلاد فى ١٥٦٨ ولكن حملته أخفقت . فعاود الكرة مرة ثانية بالتعاون مع زعيم الهوجنوت فى فرنسا كولينى Coligny ، وهاجم الاثنان الأراضى المنخفضة فى سنة ١٥٧٢ ولكنهما لم ينجحا .

قام وليم أورانج بمحاولة ثالثة حينما تولى حكم مقاطعتى هولندا وزيلند ، وانضم إليـــه ولايات أوترخت ، وفريسلند ، وجلدرلاند ، وجرونتجن ، وافريسل . ومن هذه الولايات السبع التى ستكون هولندا الحديثة بدأت حركة المقاومة للحكم الاسبانى .

لقد نجح ألفا فى أول الأمر ، ولكن حالة الاسبان أخذت تزداد سوءا ،

فأسرف ألفا فى فرض الضرائب ، ونجـــح فى القضاء على كل مقاومة ظاهرة . ولكن ذلك لا يعنى رضى السكان عن حكمه ، فلقد جرح ألفـا الشعور القومى لهذه البلاد ، وتعرض للحرية الدينية ، بل وتعرض أيضاً للمصالح المالية للسكان. وبذا سينتهز السكان أول فرصة للثورة ، وللانقلاب على الحكم الاسبانى .

عمل على ذلك عدة عوامل أهمها الحالة السياسية الخارجية ، وشخصية وليم أورانج . لقد قاد وليم الحركة البروتستنتية الاستقلالية فى الأراضى المنخفضة ، وكان واثقا من المساعدة الفرنسية . ولو أن فرنسا تخلت عنـــه إلا أنه رأى ضرورة الاستمرار فى الجهاد ضد الأسبان . كان سياسياً أكثر مما كان جندياً ، ولقد كان حازما بعيد النظر . كان يفهم السياسة الدولية جيداً ، وكان يود أن تتحد كل ولايات الأراضى المنخفضة ضد العدوان الأسبانى ، ولـكنه لم ينجح فى مشروعه ، فلم يتمكن إلا من توحيد السبع ولايات الشمالية فحسب .

كان مركز الاسبان الحربى متفوقا والقيادة الاسبانية متفوقـة دون ريب ، ولكن طبيعة الاراضى المنخفضة كانت أكبر عون للحركة الاستقلالية،فالترع والأنهار كانت عقبة أمام الأعمال الحربية . ثم هناك اتصالهـا الدائم بالبحر ، والمساعدة الانجليزية والفرنسية، مع أن لأسبـانيا قوة بحرية قوية . وما كانت اسبانيا تقدر قيمة القوة البحرية تماما .

ثم هناك صعوبات أسبانيا المالية ، وغنى الأرض المنخفضة ، واستخدامها للجنود المرتزقة . هذا بالإضافة إلى نجاحهم فى الاستمرار فى القيـــام بأعمالهم وتجارتهم .

لقد ترك ألفا الأراضى المنخفضة بعد فشل سياسته ليحل محله دى ركوسنس

de Requesens . ولكن ركوسنس لم يتمكن من العمل بسياسة التسامح الدينى . فلم يفلح ، كما لم يفلح الذين سبقوه . ولو أنه ألغى مجلس الدم الذى أنشأه ألفا ، وألغى بعض الضرائب التى كان يشكوا منها الأهلون . حاول ركوسنس المفاوضة ، ولكنها لم تسفر عن أى نجاح . ولما مات هـذا ذلك الحاكم عين فيليب مكانه دون جوان Don John of Austria المشهور بانتصاراته على الترك . ولكن كان لذلك الحاكم أطماع أكثر من استرجاع الأراضى المنخفضة برمتها . إلا أن عدم دفع مرتبات الجنود لمدة طويلة كانت سبباً فى ثورتهم وقيامهم بحركات نهب وسلب واسعة النطاق . وأهم هذه نهب مدينة انتورب وقتل كثير من أهلها .

ولقد حاول وليم أورانج الاستفادة من سوء سلوك الاسبان فكون من الولايات الشمالية والجنوبية اتحادا أطلق عليه اسم سلام جنت The Pacification of Ghent فى نوفمبر سنة ١٥٧٦ لطرد الأسبان والتخلص من الحكم الأجنبى ، مع الاعتراف بسيادة فيليب الثانى وتكوين مجلس من الولايات للقيام بأعباء الحكم ، واتباع سياسة التسامح الدينى .

ولكن الحاكم الجديد دون جوان النمساوى تمكن من الفصل بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية . فالولايات الجنوبية قبلت اصلاحات الدوق ، بينما الولايات الشمالية قابلتها بالشك والرفض . ثم تبع ذلك انهزام وليم الحربى ، وظهور حركة كاثوليكية رجعية فى الجنوب ، أطلق عليها اتحاد أراس Union of Arrass للدفاع عن الكاثوليكية واضطر وليم أورانج إلى تشكيل اتحاد من الولايات السبع الشمالية سمى باتحاد أوترخت Union of Utrecht للدفاع عن مصالح الولايات ضد التسلط الأسبانى ، والعمل على نشر مبدأ حرية العبادة فى كل

ولاية ،وكان ذلك الاتحاد أول تجربة للحكومة التعاهدية . ولكن الولايات التى كونت ذلك الاتحاد ظلت مستقلة .

وقد ضيع نشوء اتحاد كاثوليكى من الولايات الجنوبية كثيرا من ثمرة أعمال وليم ، فلقد عقد الجنوب صلحا فى سنة ١٥٧٩ مع اسبانيا . وبذلك أصبح ملك أسبانيا ملكا على الاراضى المنخفضة الجنوبية .

كانت الحالة السياسية فى الأراضى المنخفضة نوعا من الفوضى ، فلقد كانت كل ولاية مستقلة ،وكان هناك اتحاد الشمال يتحدى سلطة أسبانيا ، واتحاد الجنوب مسالم لها ، وكل منها يكون جزءا من اتحاد جنت الذى ظل موجودا من الناحية الاسمية . وهناك قوة وليم أورانج فى الشمال ، والجيش الكاثوليكى ، والجيش الاسبانى فى الجنوب .

وفى سنة ١٥٧٨ تولى حكم الاراضى المنخفضة وقيادة الجيش الاسبانى الكسندر بارما الذى يعتبر أكفأ جندى فى القرن السادس عشر ,وكان سياسيا ممتازا إلى جانب ذلك .

أراد الأسبان التخلص مرة واحدة من وليم أورانج فأعلنوه خارج القانون ، ومنحوا مكافأة كبيرة لمن يأسره أو يقتله وكان رد الولايات الشمالية على ذلك إعلان الخروج على سلطة ملك اسبانيا فى لاهاى فى يوليو ١٥٨١ . وبدأت الحرب الحقيقية للاستقلال . وأخذت فرنسا على عاتقها مساعدة هذه الحركة ، فلقد استنجد وليم بجيرانه . وكذا فعلت انجلترا ، وكانت كل الدولتين تجد من صالحها عرقلة الأسبان واستقلال الأراضى المنخفضة .

ولكن موقف الأراضى المنخفضة أصبح خطرا حينما ظهر أن المساعدات

الفرنسية والانجليزية ليسع على نطاق واسع ، وحينما قتل وليم اورانج فى ١٠ يوليو ١٥٨٤ . ولكن وبقيام حرب اهلية فى فرنسا، حاولت اسبانيا الانضمام الى أحد الفريقين ، وانهزمت كما انهزمت أسبانيا بحريا أمام انجلترا وحطم الآرمادا.

خلف وليم ابنه موريس نساو Nassau ، ولكنه كان فتى صغيراً ، ولذا استغل الكسندر بارما هذه الفرصة ، وحاصر انتورب ، ودخلها عنوة . وكان وجود قوة أسبانية فى انتورب يقرب الخطر من انجلترا . ولذا أرسلت قوة لمساعدة الولايات الشمالية التى تدين بالبروتستنتية كانجلترا . أرسلت انجلترا قوة بقيادة الدوق ليستر Leicester . ولو أن دوق بارما هاجم ليسستر تقضى على قوته . ولكن بارما كان كسيده يفكر فى غزو انجلترا ذاتها.

ولقد قام الهولنديون بالاشتراك مع الانجليز فى الدفاع عن انجلترا ، فهم الذين أغلقوا مصب نهر شلد Scheldt . ولولا ذلك لانضم الكسندر بارما إلى قوة الاميرال مدينا سيدونيا Medina Sedonia .

ولكن هزيمة الأسبان وتحطيم الآرمادا الاسبانية الشهيرة فى سنة ١٥٨٨ كان مفيدا لهولندا ، كما كان منقذا لانجلترا . ثم أخذ فيليب ينشغل بمطامعة فى فرنسا وكان موت فيليب أكبر منقذ للاراضى المنخفضة فى فرنسا . فالولايات الشمالية كانت سبيلها إلى الوحدة الكاملة ، وعمل على نمو ذلك مهارة موريس الحربية وانتصاراته على قوات فيليب التى أرغمت اسبانيا أخيراً على قبول الهدنة فى سنة ١٦٠٩ على أساس الاعتراف بهولندا. وأخذت اسبانيا منذ ذلك الوقت تسمح للهولنديين بالاتجار مع ممتلكاتها الآسيوية ، ونفضت يدها من مساعدة الكاثوليك الهولنديين. ولكنه لم يعترف باستقلال هولندا إلا فى معاهدة وستفاليا فى عام ١٦٤٨ .

الفصل السابع

حرب الثلاثين عاما

١٦١٨ - ١٦٤٨

نشأت تلك الحرب الأوربية كنتيجة طبيعة لحركة الاصلاح الدينى وما ترتب عليها من انقسام أوربا إلى معسكرين دينيين وسياسيين ولم تكن هذه الحرب محلية كالحرب الدينية التى نشأت فى فرنسا مثلا ، بل كانت حربا أوربية اشتركت فيها دول كثيرة لتحقيق أطماع وأهداف مختلفة ، إلا أنها كانت نهاية لهذا الانشقاق الدينى الذى عانت منه أوربا الشىء الكثير .

استمر هذا الصراع الدينى الذى اتخذ شكل حرب أوربية ثلاثين عاما . وقد اتخذ كل فريق منهم مختلف السبل بما فى ذلك أساليب الوحشية والقسوة للقضاء على الفريق الآخر . فحرب الثلاثين عاما حرب دينية مذهبية متعصبة اشتركت فيها معظم الدول الأوربية وخسر فيهـا الفريقان أموالا كثيرة وأرواحا عديدة وخرجت أوربا من تلك الحرب الطاحنة العمياء مخربة ومنهوكة القوى ، فهى إذاً أسوأ حرب دينية عرفتها أوربا خلال العصور .

ومما زاد فى امتداد أمد تلك الحرب الأطماع الشخصية التى لعبت دوراً هاما فى توجيهها الوجهة التى تراها . بالإضافة إلى عدم تفوق أحدهما تفوقا ظاهراً على

الآخر والانقسام الداخلي في كلا المعسكرين . فقد انقسم البرتستنت على أنفسهم إلى اتباع لوثر واتباع كلفن وعملت عوامل الفرقة والتحاسد بين أنصار المذهبين على اتحاد كلمتيها في أول الأمر إزاء الخطر الكاثوليكي .

وكذلك الحال بالنسبة للمعسكر الكاثوليكي فقد لعبت الأطماع الشخصية بين الزعماء دوراً خطيراً ، وانعدمت الثقة بين الأمراء بعضهم وبعض ، وكذلك بين الأمراء والامبراطور .

ومن عوامل امتداد أمد تلك الحرب أيضاً ، حالة الفوضى الدينية والاضطراب التي سادت تلك الحرب ، فسنجد أن بعض زعماء البروتستنتية يتخلون عن مذهبهم الديني أثناء نشوب تلك الحرب ليقوم بالدفاع عن أنصار المذهب الكاثوليكي وبالعكس . فعدم الثبات على مبدأ معين والتأرجح بين المذهبين جعل من العسير أن ترجح كفة على أخرى ، أو أن يحتفظ الفريق بما أحرزه من انتصارات على الفريق الآخر . فقد ينتصر اليوم لبهزم غدا وهكذا . فالحرب الثلاثينية إذاً سجل حافل بالانتصارات والهزائم المتتالية لكلا الفريقين .

كيف نشأت تلك الحرب ؟ وما هي العوامل التي ساعدت على ظهورها ؟

أولا : لم يكن صلح أوجزبرج Augsburg الذي عقد بين الكاثوليك والبروتستنت في عام ١٥٥٥ إلا هدنة مؤقتة ريثما يستعد الطرفان من جديد لاستئناف الكفاح ، لأن هذا الصلح لم يكن عن رضى الطرفين ، بل كان لحاجتهم في ذلك الوقت إلى فترة من الهدوء والراحة لتنظيم صفوفهم من جديد لمواصلة الجهاد .

ثانياً : إن الكنيسة الكاثوليكية قد استطاعت أن تقوى مركزها من جديد ،

فقامت حركة الجزويت لاستعادة ما كان للكنيسة الرومانية من مركز ممتاز ، وتمكنت تلك الحركة من استرداد الكثيرين من أنصارها ممن تحولوا إلى المذهب البروتستنتى . فحركة الجزويت إذاً فى نظر البروتستنت حركة خطيرة هدفها القضاء على المذهب الجديد .

ثالثاً : تطور الأمور فى أوربا إلى غير صالح البروتستنت ، فقد اعترفت أوربا بما تقوم به جماعة الجزويت من خدمات جليلة للدين فى النواحى الاجتماعية والدينية والثقافية فارتفع بذلك شأن الكاثوليكية ، بينما سادت التفرقة بين أنصار المذهبين البروتستنتين لوثر وكلفن . ولكن هذا الخطر المحدق بكلا الفريقين المتنازعين الكاثوليك والبروتستنت سيدفعهما إلى التكتل والوحدة دفاعا عن النفس والعقيدة ، فسيظهر الاتحـــاد البروتستنتى The Protestant Union وستتكون العصبة الكاثوليكية The Catholice Leage كرد فعل له .

وبتكوين هذين الاتحادين يبدأ الطرفان فى الاستعداد لخوض المعركة الجديدة . وقد نشأ الاتحاد البروتستنتى بألمانيا التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن يضم كل الولايات البروتستنتية فى ألمانيا . أما العصبة الكاثوليكية فقد تكونت من بعض الولايات الألمانية الكاثوليكية واتخذت مدينة بافاريا مقرا لها . ولم تكن المدينة تبعد عن فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة كثيراً ، ولذلك نجد أن الامبراطور يخشى على نفسه من وجود تلك العصبة على مقربة منه ، وخصوصاً وكان على رأسها مكسميليان أحد الامراء الأقوياء ذوى المطامع الواسعة ، فيبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور .

تأسس الاتحاد البروتستنتى فى سنة ١٦٠٨ من البلاتينات وهس وبادن وفرتمبرج ولم تنظم إلى الاتحاد براندنبرج وسكسونى اللوثريين ، ثم سرعان

ما تكونت العصبة الكاثوليكية ، وكان عقلها وروحها مكسميليان دوق بافاريا ، انضمت إليها الولايات الكاثوليكية ، وأيدها الامبراطور . وسعى كل فريق إلى تنظيم ماليته وإلى تكوين حلفاء خارجيين له . ولو أن الامبراطورية فشلت في جعل الامبراطورية حكومة واحدة لها وحدة دينية . إلا أنها لم تفقد الأمل نهائياً .

على العموم لم يكن أباطرة أوائل القرن السابع عشر بالأباطرة العظام ، فمثلا رودلف الثانى Rudolf II (١٥٧٦ - ١٦١٢) كان متتلمذا للجزويت ، اسبانى التربية . وسيجىء بعده ماتياس Mathias . ولقد أحزن الكاثوليك أنهم كانوا أقلية فى الديت الألمانى . وساعد على تحرج الحالة تحول بعض الأمراء من المذهب البروتستنتى إلى المذهب الكاثوليكى وبالعكس . ولكن التحول إلى الكثلكة كان سريعاً فى فينا .

وكانت هناك فكرة ترمى إلى قصر الوظائف الكبرى فى بوهيميا على الكاثوليك ، وعلى العموم أخذ كل من الجانبين ينشر الرسائل للطعن فى الآخر .

وقد يبدو للبعض أن الامبراطور ربما استفاد من ممتلكاته الخاصة الواسعة فى ألمانيا والمجر وبوهيميا ، ومن تأييد اسبانيا للقضاء على الشقاق داخل حدود بلاده الألمانية ، وأن يجعل منها ومن العصبة وحدة وحكومة حقيقية .

فأسباب الحرب سياسية ودينية كما هو ظاهر ، ولكن فى وسط المعمعة عندما شعر الامبراطور أن ألمانيا واقعة تحت أقدامه ، أحس الأمراء الكاثوليك وعلى رأسهم دوق بافاريا أن استقلالهم معرض للخطر . والواقع أن حسدهم لقوة الامبراطور كان من العوامل التى انقذت البروتستنت .

بدأت الحرب فى بوهيميا أولا التى كانت بروتستنتية لوثرية ، ثارت ضد الامبراطورية ، وقامت ثورة محلية فى براج ، وكانت نذير حرب ستكون أوربية عامة ، وقاست منها المانيا ما قاست . ولقد اختار البوهيميون فردريك البلاتيناتى ملكا عليهم ، وبذا بدأت الحرب .

امتازت الحرب بقسوتها وبتدخل عناصر غير المانية فيها ، وبطول مدتها ، وبسوء أثرها على حالة المانيا من الوجهتين السياسية والاقتصادية ، كما امتازت بأن معظم الجنود التى اشتركت فيها كانت جنوداً مرتزقة ، باستثناء الجيش السويدى فى أول الامر . وهذا يعطينا فكرة عن كيفية سير الحرب ، ولأى الاغراض كان يعمل هؤلاء الجنود الذين كانوا ينتقلون من جانب إلى آخر ، ولا هم لهم إلا المال والغنائم واستمرار الحرب .

ولم تقتصر الحرب على القوى الالمانية ، بل يدخل فيها كل جيران ألمانيا . والواقع أن القارة انقسمت إلى معسكرين الاول كاثوليكى ، والآخر بروتستنتى . ولكن هذا لم يمنع من أن بعض الدول الكاثوليكية ، وبخاصة فرنسا انضمت إلى الجانب البروتستنتى ، تشجعه وتعينه بالمال وبالسياسة ، ثم باستخدام قوتها الحربية . وقد انتقل الصراع نتيجة لذلك من مرحلة الثورة الأهلية إلى مرحلة الحرب الاوربية التى توجت بصراع الاسرتين الحاكمتين : أسرة الهابسبرج الالمانية وأسرة البربون الفرنسية من أجل التفوق والسيطرة فى أوربا . ويمكننا أن نقسم الادوار التى مرت بها الحرب إلى أربعة أدوار نجملها فيما يأتى :

١ - الدور البوهيمى البلاتينى (١٦١٨-١٦٢٣)

هو الدور الاول للحرب ، لان البوهيميين الذين ثاروا من أجل استقلالهم

الدينى السياسى على أسرة الهابسبرج لعدم وفائها بوعودها ، ولهدم بعض أماكن عبادتهم . فبدأت عن طريق إلقاء بعض الحكام من نافذة دار الحكومة فى براج .

كانت آمال الثوار معلقة على فردريك البلاتيناتى ، وسرعان ما قامت الحرب ، وفشل البوهيميون لأنهم قاموا بهجوم لم يكونوا مستعدين له تمام الاستعداد ، كما لم يكن لهم حلفاء حقيقيون . ثم لأن اللوثرين أنفسهم لم يدخلوا الحرب .

انهزم البروتستنت فى موقعة التل الأبيض White Hill فى نوفمبر عام ١٦٢٠ أمام قائد المعسكر الكاثوليكى تلى Tilly . وفتحت بلاد فردريك البلاتيناتى ، مما اضطره إلى الفرار .

عمل الامبراطور على إعادة الكاثوليكية من جديد بمختلف السبل ، فإزداد الاضطهاد فى بوهيميا ، وأعدم المعارضون للامبراطور واستولى على أراضيهم ، ونفى عدد كبير منهم ، وهلك عدد أكبر من السكان فى أثناء الحرب ، وتحولت بوهيميا من منطقة بروتستنتية إلى كاثوليكية . وإزداد نفوذ الكاثوليك فى المانيا . ولكن لإنتصار جيوش الامبراطور هددت الولايات البروتستنتية الأخرى التى لم تشترك فى الحرب ، فلقد زادت مساحة الولايات الكاثوليكية على حساب الامارات البروتستنتية .

على أن الخطر المحدق بالبروتستنت ، واقتراب الجيوش الكاثوليكية من الشمال البروتستنتى جعل من الضرورى أن ينضم ملك الدنمرك كرستيان الرابع ودوق هلشتين إليهم .

٢ ــ الدور الدنمركى (١٦٢٥ - ١٦٢٩)

ظهر فى الجانب الكاثوليكى قائد أعظم من تلى Tilly هــو فلنشتين Wallenstein وهو من أصل بروتستنتى ، وبوهيمى من النبلاء ، غير ذلك الرجل مذهبه وانضم الى الامبراطور ؛ فكان أظهر قائد ظهر فى الامبراطورية كان جيشه مكونا من الجنود المرتزقة ، ولقد عمل على حفظ جيشه ببذل العطايا وانزال العقاب بالمقصرين. ولذا انهزمت أمام جنوده جيوش الدنمرك والبروتستنت بفضل سمعة فلنشتين الكبيرة وقدرته وكفاءته والتفاف الجنود حوله وتفــانيهم فى خدمته .

انضم فلنشتين إلى المعسكر الكاثوليكى لتحقيق أهداف معينة ، ليست أهمها مساعدة الامبراطور ، وإنما كان يسعى إلى القضاء على سلطة الحكومات المحلية فى الإمارات الألمانية المبعثرة وتوحيدها ، توطئة لإقامة الدولة الألمانيـة القوية الموحدة ، على رأسها الامبراطور من الناحية الإسمية ، بينما تخضع لسلطانه الحقيقى من الناحية الفعلية . وهذا الهدف ، أكثر من غيره ، دفعه إلى خوض المعـارك بكل قوة وعنف لا لتحقيق النصر للكاثوليكية ، بقدر ماكان لتنفيــذ مآربه الشخصية .

انتصر الكاثوليك على البروتستنت فى موقعتين : الأولى انتصر فيها القـائد الكاثوليكى تلى على جيش ملك الدنمرك كريستيان الرابع فى موقعة لوتر Lutter (أغسطس ١٦٢٦) . والثانية وهى الأهم التى أحرزتهـا قوات الامبراطور بقيادة فلنشتين على الجيش الدنمركى فى موقعة كوزل Cosel ، واحتلت على أثرها مكلنبرج ، وخربت كل من اقليمى شلزويج Schelswig وهولشتين Holstein ،

أعلت تلك الانتصارات من شأن فلنشتين ، وزاد ذلك من خشية الأمراء

الألمان على سلطتهم ، وكراهيتهم لفلنشتين ، سواء أكانوا من البروتستنت أم من الكاثوليك . لا سيما عندما أسس له إمارة على نهر الاودر سميت امارة ساجان . بالإضافه الى دوقية مكلنبرج التى منحه إياها الامبراطور .

كذلك أخذ ... يتطلع إلى إعادة قوة المانيا البحرية الى ما كانت عليه من قبل ، عن طريق السيطرة على سواحل بحر البلطيق لمنافسة المماليك السكندنافيــــة . وبدأ بحصار سترالستند Stralstund من دول اتحاد الهانسا التجارية . قاومت هذه المدينة قوات فلنشتين مقاومة باسلة بفضل شجاعة سكانها من ناحيـة ، ولمساعدة ملـك السويد جوستـاف أدولف Gustavus Odulfus لها باسطول لفك الحصار عنهـا . ومن ناحيـة أخرى لتقاعد قوات الحلف الكاثوليكى بقيادة تلى من مساعدته خشية من ازدياد نفوذه. وهذا الموقف من جانب قوات الحلف الكاثوليكى يدلنا على أن الأحقاد الشخصية والتنافس بين الزعماء قد أعماهم عن رؤية الخطر المحدق بالكاثوليكية ، وأن المسألة الدينية أصبحت فى المرتبة الثانية بالنسبة للأطماع الشخصية .

ولم يواجه فلنشتين بهذه الصعوبات فحسب ، بل إن تهديـد قوى أخرى بالتدخل فى الصراع لنصرة البروتستنتية ، مثل انجلترا وفرنسا وهولندا ، كانت تعترض تحقيق آماله ومشروعاته . وقد أدت تلك الظروف إلى حصول ملـك الدنمرك كريستيان الرابع على صلح مشرف رغم هزيمته . وبالفعل يتم الصلح بين الطرفين فى لوبك Lubeck عام ١٩٢٦ ، بمقتضاها تعود للدنمرك الاراضى التى استولى عليها من قبل فى نظير وعدها بعدم التدخل فى شئون المانيا .

وبهذا تنتصر الكاثوليكية فى المانيا ، وتصبح كل المانيا تقريبا خاضعة لنفوذ

فلنشتين . واليه يرجع الفضل فى إخراج الدنمرك من الحرب . وبهذا اصبح الامبراطور فردنند الثانى سيد المانيا الى حد كبير .

كان معنى ذلك انتصار الكاثوليكية ، وانتصار قوة الامبراطور . وكان الأمراء الكاثوليك يحسدون الامبراطور على زيادة قوته ، كما بدا الحسد بين فلنشتين ومكسيمليان يأخذ مأخذه بين الرجلين .

وفى مارس ١٦٢٩ يصدر الامبراطور فردنند الثانى مرسوما اطلق عليه اسم مرسوم استرجاع املاك الكنيسة The Edict of Restitution . ويقضى هذا المرسوم بأن يتنازل البروتستنت عن املاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذوها من قبل بمقتضى معاهدة بساو Passau عام ١٥٥٢، وصلح أوجزبرج عام ١٥٥٥. وقد أحدث هذا المرسوم ضجة كبيرة ، الى الحد الذى جعل الخلاف يدب بين الكاثوليك ومكسمليان وفلنشتين ، وبين الأخير والامبراطور الذى كان يخاف من زيادة تفوق فلنشتين . هذا فضلا عن غضب فلنشتين من هذا المرسوم الذى أثار النزعات الدينية من جديد ، بينما كان اهتمامه ينصب على المسائل السياسية ، لا سيما مسألة توحيد المانيا وتدعيم سلطة الامبراطور .

وما من شك أن انقسام المعسكر الكاثوليكى على نفسه سيكون من صالح البروتستنت ، الذين سيعملون جاهدين على الإستفادة من هذه الظروف ، ولا سيما جوستاف ادولف ملك السويد .

اتجهت الأمور فى غير صالح فلنشتين فتذمر النبلاء الالمان منه، وتخوف الامبراطور من نفوذه ، وقيام الجيش الذى تحت قيادته والمكلف باسترجاع أملاك الكنيسة بأعمال السلب والنهب التى أغضبت الالمان من الامبراطور ، وفوق هذا

سعى فرنسا الدائب لإثارة كل الأطراف الساخطة على فلنشتين ضده . كل هذه العوامل قربت من نهايته .

وفى يوليو ١٦٣٠ اجتمع مجمع راتزبون Ratisbon بناء على سعى الدوق مكسميليان ، وأرسل ريشيليو وزير فرنسا ممثله بيير جوزيف الذى أخذ يلعب دوراً خطيرا فى السياسة الألمانية . فلقد أخذ ذلك الرجل يثير الخلاف ضد فلنشتين . وبناء عليه طلب الأمراء من الامبراطور عزل فلنشتين ، وتم لهم ما أرادوا . وبذا فقد الامبراطور أكبر نصير له وأكبر قائد عنده . وفى ذلك الوقت يدخل فى الميدان جوستاف أدولف .

٣- الدور السويدى (١٦٣٠ - ١٦٣٥)

كان جوستاف متحمسا للبروتستنتية ، وأجاب داعى البروتستنتية الألمانية حينما دعته . ولكن هناك أسباب أخرى سياسية كانت مهمة جداً ، فلقد كانت السويد ترى إلى السيطرة على بحر البلطيق . وكذلك المسألة الاقتصادية كان لها إعتبار فى سياسة جوستاف . ولكن لا ريب أن الدافع الدينى إن لم يكن أهم الدوافع فهو من أهمها .

والسويد كانت لا تزال دولة صغيرة ، وكان جيرانها مثل الروسيا والنرويج وبولندا أعداء لها ، ومواردها محدودة . ولكن فى عهد جوستاف وصلت إلى مصاف الدول القوية ، وأصبح لها جيش قوى منظم . ومع ذلك فسوف لا يكون لهذه الدولة قيمة إذا نجح الكاثوليك فى إرجاع سيطرتهم على كل ألمانيا وعبروا البلطيق وغزوا السويد . ولذا يسرع إلى غزو ألمانيا قبل أن تقوم هى بغزو السويد .

لم يجد جوستاف مشجعا له فى أول الأمر على التدخل ، نظرا لتقاعد براندنبرج وسكسونيا عن نصرة البروتستنتية . ولكن سقوط مجدبرج فى يد الكاثوليك ، وسلبها ونهبها ، وقمع البروتستنتية فيها ، كل هذا دعا براندنبرج وسكسونيا إلى التدخل لنصرة البروتستنتية . وبذا تشجعت السويد ، وفعلا انتصر جوستاف انتصاراً هائلا فى برايتنفيلد Brietenfield ، وبذلك يزول تفوق الكاثوليكية ومعها تفوق الامبراطوريه .

ولقد اكتسح جوستاف كل شيء فى طريقه ، وسقطت بافاريا وميونخ أمامه ، وقضت على كل مقاومة فى تقدمها من نهر المين إلى الراين والدانوب .

ولذا اضطر الامبراطور الى طلب فلنشتين مرة أخرى ، وفى هذه المرة أعطاه أثناء سلطة مطلقة ، وحرية تامة فى العمل ، وعامله كمساو له .

وجد فلنشتين فى جوستاف عدوا وخصما قويا ، لاسيما فى لتزن Lützen (نوفبر ١٦٣٢) ، وانتهت المعركة بينهما بانسحاب فلنشتين منهزما بعد موقعة عنيفة . ولكن رغم ذلك لم يكن ما ناله البروتستنت انتصارا ، فقد لقى جوستاف حتفه القتال ، ولم يوجد رجل مثله ليحل محله .

لم تنته الحرب بموت جوستاف ، ولو عاش لربما جعل من شمال أوربا اتحاداً بروتستنتيا ، يضم شمال المانيا والدنمرك واسكندناوه . وموت جوستاف لم يجعل الامبراطور بحاجة الى فلنشتين الذى ازداد زهوا وغرورا بنفسه ، وربما فكر فلنشتين فى أن يحل محل الهابسبرج ويكون عائلة حاكمة ، ولذا يلجأ الامبراطور إلى الاغتيال للتخلص من خصمه . ويذهب فلنشتين ضحية على يد بعض الضباط الاسكتلنديين والايرلنديين المستأجرين فى بلدة إيجر Eger (٢٥ فبراير ١٦٣٤) .

وبذا أصبح جيش فالنشتين هو جيش الامبراطور . على أن قوة السويد الحربية قد تضعضعت بموت جوستاف ؛ ولذا لم تجد قوات الامبراطور صعوبة فى الانتصار على قوات البروتستنت فى نوردلنجن Nordlingen (٦سبتمبر١٦٣٤) وعلى ذلك أنقذت الكاثوليكية والامبراطوورية بصفة نهائية .

لم يكن انتصار الكاثوليك فى المانيا فى صالح فرنسا بأى حال ؛ فاذا كان ريشيليو الوزير الفرنسى الذى كان بيده كل شىء ، والذى اتبع أولا الطرق الدبلوماسية للوصول إلى أغراضه ، ثم اتبع طريقة تعضيد أعداء الكاثوليكية بالمال ، بل وإمداد الجنود البروتستنت بالمال ، قد اتبع كل هذا فى أيام جوستاف ملك السويد فانه قد ايقن بأن تلك الوسائل لم تعد مجدية ، وأن التدخل الحربى هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الكاثوليك ، وبالتالى على أسرة الهابسبرج. فأعلن الحرب على اسبانيا فى ١٦٣٥ حليفة للامبراطور ، وبذا دخلت فرنسا الحرب ضد الامبراطور .

٤ ـ الدور السويدى الفرنسى (١٦٣٥ - ١٦٤٨) .

ألقى العبء فى هذا الدور على كاهل فرنسا التى وجد فيها البروتستنت الالمان بديلا عن السويد وملكها جوستاف . على أن الأمراء الألمان كانوا يخشون من تدخل كل من السويد وفرنسا على السواء ، فلم يكن تدخلها مرضيا عنه من قبلهم . فكلا الدولتين قد إتخذت من المسألة الدينية ستارا للتحقيق أطماعها السياسية والاقتصادية على حساب ألمانيا : ولهذا وجد جون جورج منتخب سكسونيا أن أفضل السبل للقضاء على تدخل الدول الأوربية هو الدخول فى مفاوضات مع الامبراطور فردنند الثانى للوصول إلى إتفاق يرضى الطرفين الكاثوليكى والبروتستنتى بخصوص تنفيذ مرسوم إسترجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية .

وبالفعل يتم الصلح بين الطرفين فى براج (مايو يونيو ١٦٣٥) وينص على تحديد سنة ١٦٢٧ تاريخا لإسترجاع الأملاك الكنسية التى أخذت بعد هذه السنة، وليس عام ١٥٥٢ كما حدده المرسوم المشار اليه. ومعنى ذلك أن الأراضى التى إستولى عليها البروتستنت وتكون فى حوزتهم فى يوم ١٢ نوفبر سنة ١٦٢٧ تبقى فى حوزتهم مدة أربعين عاما ، سواء أكان إستيلاؤهم عليها قبل صلح أوجزبرج سنة ١٥٥٥ أو بعده . وفى خلال مدة الأربعين سنة يتم الاتفاق بشأنها بين الطرفين بالطرق الودية. وحذت الإمارات البروتستنتية الأخرى حذو سكسونيا وانضمت إلى صلح براج ، فيما عدا إمارات بادن وهس كاسل وفرتمبرج التى بقيت إلى جانب السويد .

وكان من الممكن أن تستقر الأمور فى ألمانيا بعد ذلك ، لولا تدخل فرنسا لأسباب سياسة لتثير الحرب من جديد ، لا لأهداف دينية ، ولكن لسياسة صرفه. لم تكن الحرب فى صالح الفرنسيين فى أول الأمر ، فاضطرت قواتها إلى الإرتداء داخل الأراضى الفرنسية أمام ضغط قوات الامبراطور . ولكن موجة الانتصار هذه لم تلبث أن تلاشت بفضل القادة الفرنسيين تيرين Turenne و كونديه Condé وراكروا Racroi ولانس Lens .

ولقد مات ريشيليو أثناء الحرب فخلفه مزران ، واستمرت الحرب مدة فى عهده ، وكانت المفاوضات للصلح مستمرة أثناء الحرب ، ولقد عقدت معاهدتان؛ مونستر Munster وأوسنابروك Osnabrück مهدتا لـ[illegible] وستفاليا الذى وقع فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٦٤٨ . لقد أنقذ جوستاف وريشيليو البروتستنت ؛ كما أنقذت العصبة الكاثوليكية وفلنشتين ومكسميليان والامبراطور الكثلكة .

صلح وستفاليا

لمعاهدة وستفاليا أهمية خاصة فى تاريخ أوربا فى العصر الحديث ؛ فهى أولى

المعاهدات الدولية التى نظمت شئون أوربا إلى حد معين . ووضعت حداً لنهاية الصراع الدامى الذى إجتاح أوربا ثلاثين عاما ويعتبر المهتمون بالعلاقات الدولية هذه المعاهدة ، بأولى المعاهدات التى لها الطابع الدولى ، والأساس الذى تستند عليه الدول الأوربية فى علاقاتها بعضها ببعض ، ووفرت لأوربا فترة سلام طويلة استمرت ، بصفة عامة ، إلى حروب الثورة الفرنسية ونابليون .

وقد تناولت المعاهدة المسائل الدينية المختلف عليها ، وكذلك تحقيق أطماع كل من فرنسا والسويد فى بعض الأراضى الأوربية . هذا فضلا عن التعديلات السياسية التى تمت فى ألمانيا . وسنتناول التسوية التى تمت بشأن كل مسألة من هذه المسائل على حدة :

أولا : التسوية الدينية

١ ـ اعترفت معاهدة وستفاليا بما ورد من قبل فى صلحى بساو فى سنة ١٥٥٢ وأوجزبرج فى عام ١٥٥٥ بشأن منح كل أمير الحق فى إختيار المذهب الـديني الذى يريده . أى أن حرية الإعتقاد قد منحت للأمير وليس للافراد .

٢ ـ تمتع أنصار كلفن بالتسامح الدينى الذى منح لأنصار مارتن لوثر من قبل. وبذلك تساوى البروتستنت من اللوثريين والكلفينيين فى التمتع بمبدأ التسامح الدينى.

٣ ـ إنهاء النزاع بشأن أملاك الكنيسة الكاثوليكية ، فاتفق الطرفان الكاثوليكى والبروتستنتى على تحديد يوم أول يناير سنة ١٦٤٢ كأساس للفصل فى الأملاك التى تؤول إلى كل من البروتسنت والكاثوليك . فالأملاك الموجودة بين يدى كل الطرفين حتى ذلك التاريخ تعتبر ملكا له . وبذلك الغيت سنة ١٦٢٧ كـأساس للتسوية كما جاء بصلح براج فى مايو ١٦٣٥ . وترتب عـلى التسوية الجديدة أن تركزت الأملاك البروتستنتية فى الشمال ، والأملاك الكاثوليكية فى الجنوب .

ثانيا : التسوية السياسية

تحكمت السويد فى أجزاء واسعة من شمال ألمانيا ، ولا سيما مصبات أنهار الأودر والإلب والوزر، وكذلك استولت على الأسقفيات البروتستنتية فى برمن Bremen وفردن Verden ، وجزء كبير من بوامرانيا الغربية ، وبـذلك إستطاعت أن تحمى تجارتها وسيطرتها فى البلطيق.

أما عن فرنسا فقد استولت على الألزاس النمساوية وبريساك Breisach ، فيما عدا مدينة إستراسبورج الحرة . وكذلك تدعم وجودها فى متز وفردان وتول . أما فى إيطاليا فقد استولت فرنسا على قلعة بنيرولو Pinerolo فى مملكة بيدمونت .

ثالثا : التعديلات السياسية فى ألمانيا

ما من شك فى أن صلح وستفاليا قد قضى على أمل الامبراطور فى إيجـاد إتحاد ألمانى، فحقوق السيادة التى منحت للامراء الألمـان ، والتى خولت لهم حق عقد المحالفات مع الدول الأجنبية أو مع بعضهم البعض قد عمل على تمزيق ألمانيا.

ولـكننا فى نفس الوقت نجد أن التعويضات التى منحت لمنتخب براندنبرج قد جعلت منه أقوى الأمراء على الإطلاق فى ألمانيا . فاستيلائه عـلى مجدبرج كتعويض عن بوميرانيا الغربية التى أخذتها السويـد ، وكذلك ميندن Minden وهلبرشتاد Halberstadt وكامين Camin ورافنزبرج Ravensburg ، بالاضافة إلى تمتعة بوراثة حكم بوميرانيا الشرقية ، جعله يسيطر عـلى أجزاء واسعة من ألمانيا، مما جعله دون شك الرجل الثانى فى ألمانيا بعد الامبراطور . وسيمهد هذا لبراندنبرج الى أن تصبح أقوى الملكيات فى ألمانيا تحت اسم مملكة بروسيا ، التى

ستأخذ على عاتقها ايجاد الوحدة الألمانية التى عجز عن تحقيقها الامبراطور .

كذلك اعترف صلح وستفاليا بإنفصال سويسرا وإستقلالها عن الامبراطورية. كما احتفظ مكسميليان دوق بافاريا بالبلاتينات العليا مع منحه لقب منتخب . وإذا كانت معاهدة الصلح قد أنهت الحروب الدينية فى أوربا ؛ فإنها أنهت أيضا حروب اسبانيا مع الأراضى المنخفضة الهولندية . واضطرت اسبانيا إلى الإعتراف بإستقلالها بعد صراع حربى طويل .

ومما تجدر ملاحظته على حرب الثلاثين عاما أنها : أولا مع إتخاذها المظهر الدينى إلا أنها كانت فى حقيقتها حرب سياسية ؛ لعبت السياسة والأطماع الشخصية دورا هاما فى توجيه أحداثها والسيطرة عليها .

ثانياً : أن الجنود المرتزقة الذين خاضوا غمار تلك الحرب لم يراعوا فيها غير مصالحهم الخاصة التى لا تتحقق إلا بالسلب والنهب والتدمير والتخريب . ولهذا كان لهذه الحرب أعمق الأثر فيما أصاب أوربا من هدم وتخريب . ويجب أن ندرك أن استخدام الجنود المرتزقة فى الحروب كان شيئا مألوفا ، بل إن أوربا لم تعرف الجيوش الوطنية إلا عند ظهور الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر .

ثالثاً : لعبت السياسة دوراً هاماً فى تقرير مصير تلك الحرب ، فبالرغم من أن فرنسا كانت تدين بالمذهب الكاثوليكى ، إلا أنها وجدت من مصلحتها الوقوف إلى جانب البروتستنت ضد قوات الامبراطورية الرومانية المقدسة ، تحقيقاً لسياستها التقليدية فى معاداة أسرة الهابسبرج الحاكمة ، وللوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية :

وستخوض فرنسا حرباً أخرى ضد الملكية الاسبانية التى تكون فرعا ثانياً

لأسرة الهابسبرج الألمانية . وسيستمر هذا الصراع فترة اثنى عشر عاما دون أن يصل الطرفان إلى حل لهـذا النزاع . وستضطر فرنسا فى النهاية إلى الدخول فى حلف مع انجلـترا نظير تنازلها لهـــا عن ميناء دنكرك . واستطاعت القوتان المتحالفتان من هزيمة اسبانيا وعقد صلح البرانس Pyrences فى عام ١٦٥٨ ، وقـد مكن هذا الصلح فرنسا من الاحتفاظ ببعض المـدن الواقعة على حدودها الشمالية الشرقية . كانصت المعاهدة أيضا على أن يتزوج ملك فرنسا لوى الرابع عشر ابنة فيليب ملك أسبانيا .

نتائج الحرب

كان لصلح وستفاليا نتائج بعيدة المدى بالنسبة لأوربا ، فهـو إلى جانب إتاحته الفرصة لدول أوربا لتتمتع فيـه بفترة سلام طويـلة لإصلاح ما أفسدته الحرب من هدم وتخريب ، فقد أتاحت لفكـــرة التسامح الدينى أن تنمو وأن تعم أوربا . فبعد أن كان هـذا المبدأ قاصراً على الأمراء والهيئـات والطبقات العليا ، بدأ يأخذ طريقه إلى الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا .

انقسمت أوربا إذاً إلى معسكرين دينيين : معسكر البروتستنتية ، ومعسكر الكاثوليـكية ، وقد أثرت تعـاليم كلا المعسكرين فى نظم الحـكم لدول أوربا . فالكاثوليـكية عملت على نشـأة الملـكية المطلقة ، والكلفنية ساعدت على نشأة الدول الديمقراطية بحكم احترامها لحرية الفرد . واللوثرية وقفت من الجانبين موقف الوسط ، وإن كانت أكثر ميلا إلى معسكر الملـكية المطلقة منها إلى معسكر الدول الديمقراطية .

وبطبيعة الحال كانت فرنسا الـكاثوليكية مثال الملـكية الاستبدادية ، وانجلترا وهولندا مثلين للنظام الدستورى البرلمانى .

وإذا كانت المسائل الدينية قد أدت إلى حرب ضروس أصابت دول أوربا بخسائر فادحة ، فإن التمسك بهذه المسائل لم يعد له ما يبرره ، بل إن المصالح التجارية ، والقومية أصبح لها الأولوية على ما عداها من المسائل. ومن ثمة ضعفت سلطة الكنيسة وسيطرتها على دول أوربا ، وأصبحت سلطة الملكية تفوق ما عداها من سلطات بما فى ذلك سلطة الكنيسة ، وأدى هذا إلى نمو الدول فى العصر الحديث .

الفصل الثامن

نمو قوة الملكية فى فرنسا

أثرت حركة الاصلاح الدينى فى نظم الحكم فى فرنسا كما أثرت فى غيرها من دول أوربا التى عرفت تلك الحركة وتفاعلت معها . فـفى فرنسا قاومت الملكية فى أول الأمر الحركة . ولكن مذهب كلفن أخذ ينتشر ، فكلفن فرنسى قبل كل شيء ، وخاصة بين سكان المدن وبين بعض العائلات الارستقراطية الكبيرة التى وجدت فى ذلك وسيلة لمقاومة سلطة الملكية ، ووسيلة للاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية . انتشر مذهب كلفن فى الجنوب والغرب . ولكن باريس وقفت موقفا معارضا للمذهب الجديد من أول الأمر : وهنا يجب أن نعرف أن البروتستنت كانوا قلة دائما فى فرنسا . ولعل السبب فى عدم انتشار مذهب كلفن هو تدقيقه ونظامه .

وعرفنا أن حكم فرنسا فرنسوا الأول ، ثم ابنه هنرى الثانى ، ولما قتل هنرى الثانى جاءت بعده زوجته كاترين دى مديشى الملكة الوالدة وصية على ولدها ، ووجدت فرصتها فى الحكم ، وكانت ذات طموح سياسى كبير ، ومتعصبة للكثلكة ، ومستهترة فى تصرفاتها ، ولكن كانت أمامها قوة النبلاء الذين حاول كل منهم الوصول إلى أغراضه.ففى ناحية نجد عائلة البربون وعلى رأسهم من الناحية العملية كنديه Condé ، وهؤلاء اعتنقوا مذهب كلفن.وفى الناحية الأخرى عائلة

جيز Guise من اللورين ، وهذه تؤيد المذهب الكاثوليكى . وحاولت الملكة الوالدة أن تجد طريقها بين العائلتين المتنافستين .

لم يعمر فرنسوا الثانى طويلا ، وجاء بعده شارل التاسع وسرعان ما قامت الحرب الأهلية بين الارستقراطية الكاثوليكية والبروتستنتية واستمرت تقريبا لمدة ٣٠ عاما تضعضعت فيها فرنسا ، ولكنه بالرغم من ذلك كانت قوة الكاثوليك هى الظاهرة . ولكن الكاثوليكية لم تستطع الإنتصار إنتصاراً حاسما على أعدائها نظراً لضعف الملكية الفرنسية فى ذلك الوقت ، وكانت سياسة كاترين هى إيجاد التوازن بين العنصرين لا القضاء على واحد منهما .

وهنا يجب أن نعرف أن اليصابات ملكة انجلترا قدمت بعض المساعدة لبروتستنت فرنسا أو الهجونوت ، ولكن وجود الأسبان الكاثوليك فى الاراضى المنخفضة سيكون له أكثر من تأثير معادل وقتل عدد كبير من زعماء الكاثوليك والهجونوت فى هذه الحروب . وفى بعض مراحل هذه الحرب عقد صلح سان جرمان فى ١٥٧٠ الذى سمح بحرية المعتقد ، وسمح للبروتستنت بدخول الوظائف .

ولكن ذلك لم يستمر مدة طويلة فستقوم مذبحة سانت بارثلميو . وظروفها هى أن شارل التاسع رأى أن يستصلح كولينى زعيم البروتستنت ، إذ وجد أن البلاد تكاد تمزقها الحرب الأهلية . فوجد كلاهما توحيد فرنسا لكى يستطيع الوقوف أمام الأسبان ولكنه بالرغم من ذلك حدثت المذبحة لأن الملكة الوالدة كانت تغار من السلطة التى يتمتع بها كولينى ، وساعدها على ذلك التفكير فى أصلها الايطالى فتركت غوغاء باريس يهاجمون الهجونوت فجأة فى هذا اليوم ويقتلونهم أينما وجدوهم . فكان هذا العمل جريمة من جرائم التاريخ .

دعا هذا العمل الهجونوت إلى التماسك والصمود وفشلت المذبحة فى القضاء على البروتستنت. ولذا اضطرت الحكومة إلى منحهم صلحا مشابها لصلح سان جرمان فى سنة ١٥٧٣ . ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقامت الحرب من جديد عند مجىء هنرى الثالث المشهور ببغضه للكثلكة إلى حكم فرنسا . ولكنه لم يسر فيها بشكل جدى نظراً لإغراقه فى الشهوات .

وحدث تغير فى الموقف حين أصبح هنرى نافار زعيما للبروتستنت فى جنوب فرنسا ، وقوى من مركزه احتمال توليه عرش فرنسا . فأولاد كاترين لم يتركوا أولادا بعدهم . ولكن الموقف تعقد بتكوين العصبة الكاثوليكية التى ساءها فجور الملك هنرى الثالث وأطماع فيليب الاسبانى فى عرش فرنسا . واستمرت الحرب بين الفريقين المتنازعين فى فرنسا ، وخفف من حدة الموقف بعض الشىء قتل زعيم العصبة الكاثوليكية الدوق دى جيز ، ثم قتل الملك هنرى الثالث على يد راهب دومنيكانى .

وكانت النتيجة أن أعطى هنرى نافار نفسه لقب هنرى الرابع ملك فرنسا. ولكن كان عليه أن يخضع الكاثوليك أعداءه ، ويفتح باريس معقل الكثلكة فى فرنسا . فحاصرها ولكن وجود الأسبان فى الأراضى المنخفضة بقيادة بارما Parma وهو من أعظم قواد الأسبان زاد فى صعوبة مهمته ، فلقد أنقذ بارما باريس بعد أن كادت تسلم جوعا . كما أنقذ مدينة روان مرة أخرى . لم يستطع هنرى نافار التغلب على أعدائه ، ولم تستطع فرنسا الكاثوليكية قبول الملك الأسبانى ، ولذا كان هنرى يستطيع توحيد فرنسا إذا استطاع تغيير مذهبه وقبول الكاثوليكية ولم يكن لدى هنرى الرابع مانع من قبول ذلك . ولذا حين غير مذهبه سرعان ما خضعت فرنسا له ، وفتحت أبواب مدنها له . ورحب معظم سكان باريس به، واستطاع هنرى دخول باريس وتوطدت دعائم ملكه فى سنة ١٥٩٦ .

ونتيجة لذلك ستنتهى الحرب بسرعة مع اسبانيا وسيتمكن هنرى الرابع من إعادة تنظيم فرنسا ومن إصدار مرسوم نانت المشهور فى ١٥٩٨ . وأعلن أن ذلك المرسوم أبدى ولا يستطاع الرجوع فيه ، واعترف فيه بمركز البروتستنت ، فلهم حق العبادة ، ولهم حق الدخول فى الجامعات ووظائف الدولة ، ولهم محكمة خاصة بهم فى باريس بها قضاة من البروتستنت ، وأعطيت لهم بعض المدن والحصون تحت إشرافهم . وبذا يستطيع البروتستنت المحافظة على حرياتهم .

كذلك طرد هنرى الرابع الجزويت من فرنسا نظراً لإعتداء بعضهم على حياته ، ولكنه لتسامحه عادوا مرة أخرى إلى فرنسا .

قويت قوة الملكية فى فرنسا وزاد استبدادها . فلقد عملت الحرب الأهلية على تقوية الملكية فى فرنسا ، واستمرت الحال كذلك فى فرنسا إلى حين . وفى عهده أدخلت صناعة الحرير فى فرنسا ، وستكون من أهم صناعاتها . ولقد انضم هنرى الرابع بطبيعة الحال فيما يختص بالسياسة الخارجية إلى جانب البروتستنت .

الحروب الدينية فى فرنسا

لما كان خليفة هنرى الثانى ولدا صغير السن أصبحت كاترين دى مديتشى صاحبة النفوذ، وكانت نفسها تواقة للحكم متأثرة بعوامل منها إهمال زوجها لها فى حياته. وكان أكبر دافع لسلوكها السياسى هو الطموح لا التعصب للكاثوليكية إذ أنها ماكانت تأبه كثيراً للدين .

وكان أمام كاترين هؤلاء النبلاء الذين يتنازعون للتفوق والذين أدخلوا الدين كعامل فى منازعاتهم السياسية . فهناك عائلة البوربون متحمسين للمذهب الكلفنى . ثم بجانب هذه العائلة عائلة جيز Guise لورينية الأصل ؛ ولكنها كانت بعيدة الطموح . وكانت مصلحتهم السياسية والدينية تربطهم ربطا وثيقا بالكثلكة . وعلى رأس هذه الأسرة الكاردينال دى جيز ، وله شهرته الذائعة كرجل دينى كبير .

الشخصية التى وجدت كاترين ضرورة الاعتماد عليها أمام هاتين العائلتين المتنافستين هى شخصية الوزير L'Hôpital وهو يأخذ بفكرة التسامح الدينى. لقد وجدت كاترين أولادها يموتون الواحد تلو الآخر . فبعد موت زوجها بقليل مات ابنها فرنسوا الثانى وخلفه شارل التاسع . ولقد حاولت الحكومة إعطاء نوع من الحرية الدينية لكل من الطرفين المتنازعين ، ولكن ذلك لم يضع حداً للخصام بين الطائفتين المتناضلتين .

ولقد بدأت الحرب الدينية الأهلية فى فرنسا نتيجة لعناد كل من الطائفتين .

ولقد أثار ضرامها مهاجمة بعض رجال دى جيز لطائفة من الكلفنيين تقوم بشعائر دينها فى فاسى Vassy ، وكان نتيجة لهذه الحرب أن الحالة الداخلية فى فرنسا لم تستقر ، كما لم يعد لفرنسا مركز خارجى ممتاز .

كان الكاثوليك ممتازين فى قوتهم ، ولكن ذلك الإمتياز لم يمكنهم من القضاء على أعدائهم البروتستنت ، ولقد كان لدسائس كاترين دى مديتشى أثر فى الحالة ، فما كانت كاترين تود انتصاراً حاسما للنبلاء الكاثوليك ، وبذا تقع تحت رحمتهم، وكان مهمها دائما حفظ التوازن بين الفريقين المتخاصمين. كان عدد كبير من نبلاء ومدن فرنسا الجنوبية والغربية شديدى التحمس للبروتستنتية ، وعلى رأسها كندية وأمير نافار . ولكن أظهر شخصية هى شخصية كولينى Coligny . وكان يساعد البروتستنت الفرنسيين ملكة انجلترا اليصابات ، وأحيانا بعض الأمراء الألمان . كما كان الكاثوليك الفرنسيون يعتمدون اعتماداً كبيراً على معاونة اسبانيا لهم ، فنرى إذاً تدخل الدول الأوربية فى المسألة الدينية الفرنسية . ولذا كان الكاثوليك فى فرنسا يعضدون اسبانيا والبروتستنت انجلترا والأراضى المنخفضة فى ثورتها على اسبانيا ، ولقد عمل على تعقيد المسألة الدينية الفرنسية وجود قوات اسبانية قوية فى الأراضى المنخفضة على حدود فرنسا من ناحية الشمال .

قامت الحرب الدينية بين الفريقين وحوصرت المدن وفك حصارها ، وكان هناك تفوق محلى لهذا الفريق على ذاك لمدة ، ثم تنقلب الآية وهكذا . وأخيراً عقد صلح سان جرمان وبه منحت الحرية الدينية والمساواة فى الحقوق لكل من الفريقين .

ولقد وجدت الملكية من صالحها أن تضع حدا لنمو قوة اسبانيا على حساب

فرنسا التقرب من البروتستنت ومن انجلترا بصفة عامة ومن كـــوليني بصفة خاصة . ولقد أصبح عقد تحالف مع انجلترا قاب قوسين أو أدنى ، لولا الهياج والتغيير الذى احدثته مذبحة سانت برثلميو فى ٢٤ أغطس ١٥٧٢ .

دبرت كاترين هذه المذبحة لحسدها لنفوذ كوليني ، ولذا انضمت إلى الفريق الكاثوليكى وحرضت شعب باريس على الانتقام من البروتستنت . ولقد اشتركت الملكية نفسها فى المؤامرة ونجحت المؤامرة فقتل عدد كبير من البروتستنت من بينهم كوليني .

ولكن البروتستنت زاد تحمسهم ، كما قويت رغبتهم فى الدفاع عن أنفسهم مهما كلفهم الأمر . ولذا لم تتمكن الحكومة من الانتصار عليهم إنتصاراً حاسمـــاً ، واضطرت إلى عقد صلح معهم فى ١٨٧٣ . مات شارل وجاء بعده أخوه هنرى الثالث ، وكان متحمسا للكاثوليكية ، مشتركا فى المؤامرات ضد البرتستنتية ، فكان توليه معناه قيام الحروب الدينية من جديد . ولكن انهماك الملك فى الشهوات لم يكن نتيجته إنتصاراً حاسما للكاثوليك .

لا سيما وقد ظهرت طائفة السياسيين Politiques ، وقد اشترك فيها عـدد من الكاثوليك أنفسم . هذه كانت ترى ضرورة إتباع سياسة التسامح الدينى ، ثم وإن هنرى النافارى تولى زعامة البروتستنت وكان زعيما ممتازاً . ثم له حقـه فى العرش الفرنسى لأن أولاد كاترين لم يعقبوا ذكوراً .

بجانب ذلك نعى الكاثوليك على أنفسهم ذلك الضعف أمـام البروتستنت ، ووجدوا ضرورة وضع قيادتهم فى يد الدوق جيز ، وتكوين عصبة كاثوليـكية تتعاون على القضاء على قوة البروتستنت ولمنع هـنرى البروتستنتى النـافارى من

الوصول إلى العرش . ولقد اختاروا زعيما لهم الكاردينال دى بوربون عم هنرى النافارى . ولكنه كان عجوزا ولا عقب له .

كثر المتنازعون على العرش الفرنسى إذاً، فهناك هنرى النافارى الوريث الشرعى ولكن الكاثوليك كانوا ضده ، وهناك فيليب الأسبانى . ولكن الشعور القومى الفرنسى كان ضده. وهناك الفكرة القائلة بوضع الدوق دى جيز على عرش فرنسا.

قامت الحرب بين العصبة الكاثوليكية والهوجونت فانتصر الاخيرون فى أول الأمر ثم انهزموا بعد ذلك .

ولكن الملكية (هنرى الثالث) سرعان ما حسدت دى جيز على مركزه وأرادت منعه من دخول باريس ، وكانت شديد الحب له وكبيرة التحيز للكثلكة. ولذا عمل الملك على محاولة اغتياله ، فأثار ذلك ثورة على الملكية ، واضطر هنرى إلى ترك باريس هاربا وفقد معظم نفوذه فى العاصمة والأقاليم ، وأصبح الدوق دى جيز هو الحاكم الحقيقى لفرنسا ، والمحبوب من الكاثوليك . ولقد أراد هنرى أن يعرف لماذا كان الشعب الفرنسى مستعدا الوقوف بجانب الملكية ووجد النتيجة غير سارة حينما عقد مجلس طبقات الأمة فى Blois . ولذا قرر الملك اغتيال دى جيز وفعلا نجح فى ذلك ، وفى قتل أخيه الكاردينال أيضا . ولكن العصبة الكاثوليكية لم تكن تعترف بغير دى جيز ، ولذا لم تعط أى تأييد للملك ، واضطر إلى الانضمام للبروتستنت وإلى هنرى النافارى ، وحاصر المتحدان باريس ولكن فردا متحمسا للكاثوليكية راهب دومنيكانى طعن هنرى الثالث طعنة مميتة .

هنرى النافارى أعلن نفسه هنرى الرابع ، وأخذ على عاتقه مشكلة الحصول

على العرش الفرنسى . ولقد انتصر هنرى انتصارات محلية على أعدائه أهمها Ivry فى ١٥٩٠ .حاول بعد ذلك حصار باريس وكادت المدينة تقع لولا مساعدة فيليب الثانى الذى رأى فى الحروب الفرنسية وسيلة لتفوق اسبانيا واضعاف فرنسا. طلبت العصبة حينما وجدت الموقف ميؤسا منه مساعدة اسبانيا .ولذا أمر فيليب قائده بالزحف على باريس ،والعمل على فك حصارهنرى عنها . وفعلا نجح بارما فى مهمته . ولقد حاول هنرى بعد ذلك محاصرة روان Rouen ولكن بارما منعه من ذلك .

لم هنرى قادرا على الانتصار على خصومه انتصارا حاسما .كما كانت فرنسا لا يمكنها ان تقبل فيليب ملكا على فرنسا .رأى هنرى مخلصا فى إعتناق الكاثوليكية، لأن ثباته على عقيدته سيحرمه دون شك من تأييد أغلبية الشعب الفرنسى له . ولقد نصحه بعض مشيريه من البروتستنت أنفسهم بإتباع هذه الخطة . ولذا بدأ هنرى يتعلم الكثلكة ، ثم أعلن اقتناعه بها فى ١٥٩٣ . عمل ذلك على سرعة إخضاعه لفرنسا حتى باريس نفسها سلمت . لم يعترف البابا أول الأمر بتغيير هنرى لمذهبه ، ولكنه اضطر فى آخر الأمر إلى الاعتراف .وبذلك توطدت دعائم حكم هنرى الرابع .

ولكن الحرب استمرت بين هنرى الرابع واسبانيا إلى أن ملت الأخيرة الحرب فعقد صلح فرفان Vervins فى ١٥٩٨ .

كان على هنرى القيام بحركة البناء بعد الفوضى والقلق والتدمير الذى نال فرنسا لمدة ثلاثين سنة . كان عليه العمل على إقرار الحالة الدينية ، لأن البروتستنتية مناصريه القدماء أخذوا يقلقون على مراكزهم . ولذا أعلن مرسوم Nantes فى ١٥٩٨ لصالحهم وأعلن أنه لا يمكن الرجوع فيه وبه أعطى البروتستنت مركزا

لا بأس به ، فلهم حرية العبادة فى مدن خاصة ، وفى منازل النبلاء . ولهم جامعتهم وحقوقهم فى الدولة . وتفصل فى خصوماتهم محاكم خاصة بهم ، ومنحوا حكما ذاتيا فى مدن خاصة .

قامت مشاكل بين الملك والجزويت فعملوا على إغتياله ؛ ولما نجا طردهم من فرنسا .

إزداد مركز الملك قوة، فلم يستدع مجلس طبقات الأمة فى المسائل الاقتصادية، وساعده فى ذلك وزيره Sullys البروتستانتى الأمين . حاول إصلاح المالية ، وتحسين حال الزراعة ، وتزوج هنرى من ماريا مديتشى لكى تعقب له لأن امرأته الأولى لم تعقب.

يحاول هنرى إستغلال حالة ألمانيا السيئة وينضم إلى جانب البروتستنت،ولكنه يموت غيلة .

حالة فرنسا بعد موت هنرى الرابع

ترك ريشيليو مشاريعه الخاصة الخارجية واهتم بمسائل فرنسا الداخلية، فمعظم الجيش الذى كان قد كونه لتنفيذ هذه المشاريع قد سرح .

أعلن برلمـــان باريس مارى دى مديتشى وصيته على الملك الصغير لوى الثالث عشر . وكانت الحكومة غير جديرة بالحكم لضعف الملكية . فلقد تآمر أفراد العائلة المالكة على الوصية . ولم يكن من الممكن اتباع سياسة نشيطة أو القيام بأعمال معارضة للهابسبرج . عملت الحكومة على الاتفاق مع أسبانيا وبدأت الوصية تفكر فى عقد زواجات سياسية . وقررت أن يتزوج الملك لوى الثالث عشر من الأميرة الإسبانية آن . ولم تكن هذه السياسة مرضيا عنها من الهوجونت

كانت الحكومة ضعيفة بدرجة تستحق الاحتقار واحتجاج عـدد من الأشراف على ضعفها وعدم جدارتها .

ولقد استمرت معارضة الأشراف للحكومة . ولقد قام برلمان باريس بمعارضة الحكومة ولا سيما إستخدام العنصر الأجنبي . وكان المقصود بذلك أمين المملكة كونسينى Concini . ولقد أظهر النبلاء عداوتهم له .

ولقد أعلن كندية الثورة بينما كان البلاط الملكى فى الجنوب يتبادل الأميرات. ولكن هذه الثورة سكنت عن طريق بالمفاوضة .

اضطر كونسينى Concini أن يولى وزارة على رأسها بربان Barbin وسرعان ما قبضت على أمير كنديه . وأظهر ذلك الرجل حسن معرفة باختيار الرجال حينما اختار ريشيليو Richelieu وزيراً للدولة للأمور الحربية والخارجية.

ينتمى ريشيليو فى الأصل إلى الاشراف من ناحية أبيه ، ومن ناحية أمه كان أبوها محام وعضو فى برلمان باريس . أما تعليمه فكان تعليما دينيا . وكان يشغل منصب أسقف لوسون Bichop of Luçon ، ثم خدم فى البلاط الملكى ، ثم اكتسب ثقة الملكة الوصية وكونسينى .

وكانت حالة فرنسا من الناحية الخارجية حرجة ، كما كانت الحالة الداخلية . بدأ الحكم بنشاط وقوة ، فكون ثلاثة جيوش ، وطبع منشورات توضح سلوك النبلاء المعيب .

ولكن أثناء ذلك سقطت وزارة Barbin وقتل كونسينى . وكان ذلك نتيجة لوقوع الملك تحت تأثير لوين Luynes . ولكن حلول ذلك الرجل محل كونسينى أثار ضده حقد النبلاء وحسدهم له .

بدأ ريشيليو يتقرب من الملكة الوصية ، ولكن كان ذلك التقرب سببا فى نفيه إلى أفنيون . ثم يدعى أخيرا فى مارس سنة ١٦١٩ ليعين مشيرا للملكة الوصية فى Angers . ثم قابل الملك أمه وعادت مياه الصداقة إلى مجاريها بين الملك وأمه .

الهوجونت غير راضين عن الحالة فيثيرون الاضطراب ، ويموت لوين أثناء الحرب معهم . ويزداد نفوذ مارى دى مديتشى ونفوذ ريشيليو مشيرها ، ويزداد نفوذ ريشليو أيضا حينما يعين كاردينالا فى سبتمبر سنة ١٦٢٢ .

نمو سلطة الملكية الفرنسية

لقد كان لموت هنرى الرابع أثر وقتى على السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية.

وضعت الوصاية فى يد مارى دى مـــدتشى ، وكانت لهـا آراؤها الخاصة فى السياسة ، الآراء المختلفة عن آراء زوجها .

وربما كان غرضها إيجاد صلة وثيقة بين العرش الفرنسى والاسبانى ، وكان الرأى العام الفرنسى غير مستعد لقبول هذه السياسة ، فأسبانيا كانت عـــدوة لفرنسا مدة طويلة من الوقت .

وكانت هناك ثورات من جانب النبلاء الفرنسيين والبروتستنت . ولكنها أظهرت نشاطا كبيراً فى تنفيذ سياستها ، وعقدت معاهدات زواج مع اسبانيا ، كان نتيجتها زواج ابنها لوى الثالث عشر بأميرة اسبانية ، وتزوج ولى العهد الأسبانى بأميرة فرنسية .

ثم جاءت فترة فوضى فى فرنسا لا داعى للدخول فى تفاصيلها ، إلى أن تأتى سنة ١٦٢٤ ويصبح ريشيليو شخصية ممتازة فى فرنسا . كانت صحته ضعيفة ، ودوافعه قومية أسرية عائلية ، لا مسيحية ولا كاثوليكية . كان كاثوليكى ولكنه يتحد مع البروتستنت وينصر البروتستنتية فى الوقت الذى أخذت تظهر فيه قوة الكثلكة .

كان يرمى إلى غايتين أحداهما تقوية الملكية إلى أن تسيطر على كل الأمور

فى فرنسا ، ولذا يجب القضاء على سلطة الأشراف والبرلمانات والاستقلال الذى كان يتمتع به البروتستنت داخل حدود فرنسا . كذلك العمل على تفوق فرنسا فى أوربا من الناحية السياسية ، ولو أدى ذلك إلى إهمال الناحية الدينية ، وكانت سياسته الداخلية وثيقة الاتصال بسياسته الخارجية .

أول شىء اهتم به هو مسألة البروتستنت ، فلقد كان نتيجة للامتيازات التى منحهم إياها هنرى الرابع أن أصبحوا قوة ويمثلون دولة داخل دولة ، وكانوا كثيرى الشغب يلجأون إلى الثورة إذا لم ترقهم سياسة الحكومة. لم يكن ريشيليو متعصبا من الناحية الدينية . وما كان يرى ضرورة أن يكون للدولة دين واحد . ولكنه رأى أن وجود البروتستنت كقوة فى الدين معرقل لسيطرة الملكية التى كان يرمى إليها . ولقد وجد أن القوة هى الوسيلة الوحيدة لإرغامهم على قبول فكرته وهى ألا تكون لهم مدن محصنة .

وفعلا هاجم مدنهم المحصنة وكان البروتستنت مستعدين للحرب معتمدين على مساعدة انجلترا والبقاء فى مدنهم المحصنة من أمثال لاروشل ، كما كانوا يؤملون أن يثور النبلاء على ريشيليو ، ولقد تمكن من محاصرة لاروشل وإبعاد المدد الانجليزى وارغام المدينة على التسليم بعد أن دافع أهلها دفاعا مشهودا .

وفى ١٦٢٩ تم اخضاع البروتستنت أو الهجونوت. ولقد عقد معهم ريشيليو صلحاً جدياً هو صلح آليه Alais ، سمح لهم فيه بالحرية الدينية ، ولكنه أزال ما كان لهم من قوة حربية ، وتركهم يعتمدون على شرف الملك ، وكلمته فى المحافظة على هذه الحريات .

بقيت مسألة الأشراف أو النبلاء ، ولو أن ما كان لهم من إمتياز كبير فى

العصور الوسطى ، وقد قل خلال الحروب الصليبية والقرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر إلا أنهم ظلوا قوة محترمة لا تزال تحتفظ بملكيات أرضية كبيرة ، وبغنى كبير ، وبنفوذ واسع وكانوا لا يزالون إلى حد كبير محتفظين بروحهم العسكرية الحربية وامتيازات طبقتهم ، مستعدين للدفاع عنها إذا ماحاولت الملكية العبث بها . ولذا لم تزل سلطتهم منافسة لسلطة الملك .

ولقد قاموا بسلسلة من المؤامرات والدس لريشيليو ، ولقد وجدوا حلفاء لهم من بين أعضاء القصر الملكى أنفسهم . ولذا كانت حياة ريشيليو وحياة فرنسا محوطة بالدسائس والمؤامرات ، ومن ثم اضطر ريشيليو إلى التخلص ممن يقدر على إبعادهم ، وفعلا تخلص من أم الملك ، فلقد أبعدها إلى انجلترا ثم إلى بلجيكا . أما جاستون أرليان Gaston d'orleans فلقد هزم فى الحرب مرارا ، واضطر إلى العفو عنه مرارا ، لأنه يجرى فى عروقه الدم الملكى . ولما ثار مونتمورنسى Montmorency حكم عليه بالاعدام ، وقتل كونت دى سواسون Comte de Soissons فى حرب كان قد أشعل نارها الأخير .

وأما سانك مارس Cinq Mars الذى كان يحيك دائماً الدسائس فى القصر ، إذ كان مقربا للملك ، فلقد استعمل ريشيليو القسوة فى معاملته وأعدمه .

ولقد استعمل رجل الدين الكردينال ريشيليو الوسائل المعروفة فى عصره للتخلص من أعدائه . ولقد منع المبارزة ، وهدم كثيراً من حصون الأشراف ، ثم قضى على سلطة النبلاء باستعماله حكاما على الولايات Intendants ممثلين للملك منفذين لأوامره . ولم يخترهم من الأشراف ، ولكن من الطبقة الوسطى ويشرفون على الأمن والمالية . ولذا لم تعد للنبلاء سلطة حقيقية بجانب ممثلى الملك الذين تؤيدهم الحكومة المركزية ، وأصبح لهم سلطان كبير فى الأقاليم ويرمون

إلى جعل سلطة الملك غير منافسة .

ولقد رأى ريشيليو أن يستغنى عن النظم البرلمانية التى كانت موجودة فى فرنسا لعدائها للفكرة التى كان يسعى إلى تحقيقها مثل مجلس الطبقات . كذلك لم يعطف على البرلمانات الفرنسية ، ولم يجعلها تتدخل فى سياسته ، وقيد من سلطتها. فكان ريشيليو يلجأ إلى جمع مجلس من عظماء الأمة يسمى The Nobles . وهؤلاء لا يمكنهم معارضة إرادة الملك . واهتم بتنظيم نظام الملكية وأصبح الملك يحكم خلال مجلس الملك The King's Council .

لم يكن اهتمام ريشيليو بالسياسة الخارجية أقل من اهتمامه بالسياسة الداخلية، والواقع أن نفوذه على سير حرب الثلاثين ، وعلى المس , الدولية الأوربية لا يقل عن نفوذ أى شخصية ممتازة فى ذلك الوقت، والواقع ان نفوذه كان أعظم من نفوذ أى شخص آخر ، وأن نفوذه كان حاسما .

كان يرمى إلى اضعاف قوة الهابسبرج وقوة اسبانيا والنمسا . ولقد عمل على الفصل بين قوتى الدولتين ، وراقب الحالة فى المانيا بدقة حتى يمكنه الاستفادة من الظروف ، وعمل على التأثير فى الموقف .

ولقد ساعد البروتستنت بسياسة وبمال فرنسا . كما عقد حلفا مع جوستافس للدفاع عن البروتستنتية واستأجر الجيش السويسرى .

ولما انهزم البروتستنت فى نوردلنجن Nordlingen طلبوا مساعدة فرنسا الفعلية. ولقد أمدهم ريشيليو بالمال وتدخلت فرنسا فى الحرب فى الحدود الشمالية والشرقية لفرنسا ، وعمل على إثارة الثورات داخل الحدود الأسبانية ذاتها ، فثارت البرتغال كما ثارت كتالونيا . ولما مات ريشيليو كان لفرنسا الجانب الظاهر.

ولقد مات بعده بقليل لوى الثالث عشر .

ولكن يخلف ريشيليو مزران مساعده وهو من أصل ايطالى ، ولم يفهم جيداً العقلية ولا اللغة الفرنسية ، ولما كان لوى الرابع عشر طفلا لا يزال فى المهد فقد أصبحت الوصية آن النمساوية ، وأخذت على عاتقها تأييد مزران . ويظن البعض أن الكردينال مزران كان متزوجا منها سراً . وكان اهتمامه من أول الأمر مركزا فى إنهاء الحرب . وفى عهده نالت الجيوش الفرنسية ظفرا تاما .

فظهر الأمير والمركيز دى كنديه Condé ، وظهر القائد العظيم تيرين Turénne ، وهو من أعظم القواد الفرنسيين والعالميين . ولقد انتصر كنديه Condé فى Rocroi (١٦٤٣) ، وفيها انهزمت قوة المشاة الأسبانية المشهورة انهزاما تاما . ولقد بدأت مفاوضات الصلح بعد هذه الموقعة . ولكنها كانت بطيئة ، نظراً لأن النمسا كانت تريد الاستمرار فى الحرب . ولكن انتصار كنديه Condé مرة ثانية فى Lens فى ١٦٤٨ جعل الصلح أمراً محققاً .

وكان صلح فستفاليا من عمل مزران ، ولكنه لم يفلح فى ضم الرأى العام الفرنسى إلى جانبه ، فبدأت عوامل الاستياء تظهر ، العوامل الناشئة من سوء الحالة المالية نتيجة الحرب .

ولقد كان على رأس حركة الاستياء النبلاء الذين وجدوا الفرصة سانحة للتخلص من مزران ، والذين كانوا يظنون فيه شخصية أضعف من شخصية ريشيليو .

وبذا بدأت حرب الفروند ، كانت حربا ضد سلطة الملك . سببها سوء الحالة المالية واحتجاج برلمان باريس على نظام الضرائب الموجود ومطالبته بالإصلاح . كذلك كان النبلاء متمسكين بنفوذهم وعلى رأسهم كنديه ، ولم يكن

برلمان باريس فى حالة تمكنه من القيام بالاصلاح المنشود . فلقد كان محكمة قضائية قبل كل شيء ، ينال أعضاؤه وظائفهم بالشراء والوراثة

وكان اتصاله بالتشريع ناشئاً من أنه كان عليه أن يسجل قرارات الملك التى لاتصبح قوانين إلابعد تسجيل البرلمان لها .ولذا رفض البرلمان تسجيل قرارات الملك ، وطلب تخفيض الضرائب ، ومنع السجن دون محاكمة، وإزالة نظام حكام الولايات Intendants .ترددت الحكومة أول الأمر ولكن تشجعت بالانتصارات الخارجية لمقاومة هذه المطالب ، وقبضت على أعضاء البرلمان . وأخذت تستعد للقضاء على أعدائها ، فجمعت القوات تحت قيادة كنديه وحوصرت باريس . ثم عقد اتفاق بين الفريقين،ووعدت الحكومة بإصلاحات مالية وبذلك انتهت معارضة البرلمان .

وبذا انتهت حرب الفروند الأولى ولكن حرب الفروند لم يكن أساسها المطالبة باصلاحات ، ولم تكن للمدافعة عن حقـــوق الفرنسيين ، ولكنها كانت حركة النبلاء المستائين الذين يطمحون فى الوصول إلى القوة .

وكان على رأس المستائين الأمير كنديه فقبض عليه هو وبعض النبلاء . فظهرت حركة استياء كبيرة ، وانضمت باريس إلى الثائرين الذين طالبوا باطلاق سراح كنديه ونفى مزران. ولقد انحنى مزران أمام هذه العاصفة مؤقتاً، وأجيبت طلبات الثائرين . ولكن من موضعه خارج الحدود أشرف على الحكومة وعلى أعمال القضاء على الثائرين .

قامت منازعات كبيرة مصحوبة بفوضى وحروب،ولقد انضم تيرين إلى الحكومة فهزم كنديه فى ١٦٥٢ وهرب وانضم إلى الأسبان، ورجع مزران وحرم على البرلمان التدخل فى الأمور العامة ، ورجع نظام حكام الولايات Intendants ، وعاد

كل النظام الذى بناه ريشيليو .

بقيت الحرب مع اسبانيا ولكنها طالت بعض الشىء ، ولو أن الجيوش الفرنسية كانت منتصرة إلا أنها لم تنل نصراً حاسما .

ولكن ظهور كرمويل Cromwel فى انجلترا والخطر الذى أصبح يهدد الكثلكة ، جعل فرنسا واسبانيا تتفقان لحقدهما عليه . ولكن كلا من الدولتين جعلت تعمل للوصول إلى اتحاد معه ، ونجح مزران فى عقد تحالف معه ضد اسبانيا ، وفعلا انتصرت قوات الحليفتين الفرنسية والانجليزية بقيادة تورين Turenne ، ولوكهارت Lochhart على الجيوش الاسبانية التى كان يقودها كنديه ، وأخذت انجلترا دنكرك فى ١٦٥٩ وعقد صلح البرانس . وضمت فرنسا بعض الأراضى ، أهمها أرتوا فى الشمال . وبذا تمكنت فرنسا من إملاء إرادتها على الامبراطورية وعلى اسبانيا ، وعفى عن كنديه ورجع إلى فرنسا التى خدمها باخلاص منذ ذلك الحين .

وعقد زواج بين لوى الرابع عشر وماريا تريزا الاسبانية ، وبه تنازل لوى عن مطالبه الاسبانية ، على أن تدفع اسبانيا مهراً كبيراً للوى . ولكن اسبانيا لم تكن قادرة على الدفع ، وبذا ظل لوى محتفظا بمطالبه . وقد مات مزران فى ١٦٦١ .

الفصل التاسع

الملكية المطلقة فى فرنسا

فى عهد لوى الرابع عشر

إلى قبيل عهد لوى الرابع عشر كانت المسائل الدينية هى التى ينحصر فيها اهتمام أوربا . بدأت اسبانيا تبتعد عن لعب الدور الأول فى المسائل الأوربية وبدأ الملوك الانجليز يهتمون بمصالحهم الشخصية فحسب ، وكذا أمراء براندنبرج.

حالة فرنسا

كانت فرنسا متعبة من الحرب ، و مستعدة لإطاعة أى شخصية يمكنها العمل على إقرار الأمور فيها ، فالنبلاء ليسوا فى مركز يساعدهم على تحدى الملكية ، وكان الجيش منظم وتسوده الطاعة ، والإدارة فى حالة لا بأس بها .

وأصبح غرض الملوك السلطة المطلقة فى الداخل والتوسع فى الخارج . وأصبح الملك رمز الشعب، وأصبح رمز الملكية الحقيقى لوى الرابع عشر.

فى عهد ريشيليو ومزران كان حكم الملكية رسميا ، والسلطة الحقيقية كانت فى يد الوزراء .

كان لوى مصمما على أن يحكم بنفسه ، وفعلا كان طول مدة حكمه الطويلة المسيطر على سياسة فرنسا الداخلية والخارجية ، فلقد تولى العرش وهو فى الخامسة من عمره . ولكن حكم مزران جعله يستكمل قوته ، ولقد كانت فرنسا فى عهده

أقوى دولة فى أوربا ، وذلك لأنه أظهر معرفة بالموقف الدولى ومهارة سياسية ممتازة ، وإن لم يكن ذات كفاية ظاهرة كجندى.

لم يكن لوى شخصية مبتكرة بقدر ما كان شخصية مستفيدة مما وجدت ، فلقد ورث كل شىء مكنه من أن يصير عظيما ؛ ولكنه لم يترك شيئا عظيما بعده . فمعظم كبار رجال دولته هم من عصر ريشيليو ومزران . وسبب ذلك واضح أن عصر لوى لم يكن يسمح بتدريب شخصية عظيمة ، فوزراء الملك كانوا أشبه بخدم له وبموظفين عنده .

لقد كانت فرنسا فى عهده أقوى دولة فى أوربا ، وذلك نتيجة لأنه أظهر معرفة بالموقف الدولى ومهارة سياسية ممتازة .

ولقد أصبحت الملكية فى عهده أقوى ملكية فى أوربا ، وصارت المثل الذى تتعلق به دول أوربا الملكية ، ولقد كان بلاطه أفخم وأجمل وأعظم بلاط عرفته أوربا ، ولقد كان حكمه فترة ممتازة من التاريخ الفرنسى من كل النواحى السياسية والعلمية والأدبية والفنية .

كانت ملكية لوى ملكية مستبدة تجمع كل السلطة فى يدها وذلك بفضل أعمال ريشيليو ومزران. فلقد كان الملك رأس الدولة ومركز السلطة. أما النظم النيابية أو البرلمانية ، فلقد استغنى عنها أو وضعت تحت رقابة الملك .

ولقد كان مجلس الملك هو العون الحقيقى للملك ، وينظر فى أمور الدولة المختلفة ، وينوب الحكام فى الأقاليم عن الملك .

ولو نظرنا إلى السياسة الداخلية لوجدنا أن رجالا عظاما فى كل النواحى من

أمثال كولبير فى الناحية الإدارية؛ ومن الناحية الحربية كنديه Condé ، وتيرين Turenne القائدين العظيمين . ثم وزير الحربيـة لوفوا Louvois ، وربمـا كان أقدر وزير للحربية فى عصره .

ولقد ورث لوى الرابع عشر فرنسا ذات مركز ممتاز من الناحيـة السياسية الدولية ، كما عمل ريشيليو ومزران على استقرار الحالة الداخلية بالقضاء على قوة البروتستنت الحربية وعلى قوة الأشراف كمنافس للملكية .

ومن الناحية الداخلية كان على فوكيه Fouquet وزير الشئون المـالية ، إيجاد المال اللازم للحرب ويظهر أن نزاهته كانت مسألة مشكوكا فيها ، ولـكن مزكرة القوى وأنصاره الـكثيرين لم يجعلا من السهل طرده من الحـــكم ، ولذا اضطر لوى للدس لوزيره للتخلص منه . وفعلا تم ذلك وحل محله كولبير ، وهو شخصية ممتازة ذات كفاية ودراية بأمور الحكم والمالية، وكان تلميذا لمزران الذى كان يعده ليخلفه .

لقد اهتم كولبير باصلاح الحـالد المالية والاقتصادية لفرنسا بنشاط هائل ، ولقد نجح فى سياسته نجاحا كبيرا، ولقد أشرف كلبير على الأمور المالية . بعـــد القضاء على فوكيه Fouquet الذى اشتهر بفساد أخـــلاقه ورشوته وفخامته ، اهتم بمسألة جمع الضرائب ومراقبة ذلك مراقبة دقيقـــة ؛ وتشديد الرقابة على الموظفين ، وبذا إزداد دخل الدولة ، بعد أن كان الموظفون يجمعون ما يشاءون دون أن يصل لخزانة الدولة إلا القليل .

ولقد اهتم كلبير بإيجاد ثروة جديدة للدولة ، وعمل على تنمية الصـــناعة فى فرنسا عن طريق استيراد الصناع المهرة من بقية أجزاء أوربا لتعليم طرق الغزل

والنسج وصناعة الخزف . ثم عمل على تشجيع الصناعات المحلية ، ولم يكن كلبير يهتم كثيراً بالوسائل التى يستعملها ما دامت توصله إلى غايته . ومن هذا نرى أنه منذ موت مزران صمم لوى على عدم إتخاذ وزير له ، فأصبح بمفرده الاداة المحركة للدولة، وقام ببذل مجهود هائل لم يبذله ملك من قبل فى إدارة شئون الدولة. ولذا لم تظهر شخصية عظيمة فى عصره ، ولا يمكن أن يسمح لها بالظهور ، لان لوى لم يرد من خدامه سوى إطاعة أوامره ولايكونون أكثر من كتاب، ولذا استخدم رجال ريشيليو ومزران .

ولكن لوى نبغ فى فن السياسة وظلت فرنسا محتفظة بذلك النبوغ الى نهاية القرن السابع عشر . وبالرغم من كل ذلك فلوى يستحق لقب الملك العظيم Le Grand Monarque ، فشخصية لوى عظيمة كملك تتوافر فيه كل الصفات اللازمة للملك العظيم. فلم يفقد لوى يوما من الايام احترام أوربا ولاحب شعبه، وأن عهده ترك طابعه فى كل أوربا ، وأصبح لبلاطه أثر يزيد على الأثر الذى تركته جنوده ، فالعادات الفرنسية والملابس الفرنسية واللغة الفرنسية والفن والأدب الفرنسى أصبحت المثل الذى يحتذى فى كل أوربا .

There are few kings to whom it has been given to dictate to Civilisation for a Century the principles by which she is to live .

ونجاح لوى يرجع إلى حد بعيد إلى اهتمامه الشخصى ، والى هؤلاء الرجال الذين ورثهم من عهد ريشيليو ومزران ، ولقد كان كثيرا ما كتب تعلىماته إلى وزرائه وممثليه بنفسه وبخطه .

nothing was too great, nothing small for his personal care.

ثم عمل على تشجيع التجارة الداخلية بإزالة كثير من الحـواجز التى كانت تقف فى سبيلها ، أى منع منافسة البضائع الأجنبية . ثم عمل كذلك على تشجيع التجارة الخارجية، وكان معظمها فى يد الانجليز والهولنديين ، ولذا أسس شركات للتجارة مع البلطيق والبحر المتوسط والمحيط الهندى وأمريكا .

كما اهتم بالعناية بكل وسائل المواصلات من طرق وترع وبناء سفن ، ولاسيما بناء بحرية تنافس البحريتين الانجليزية والهولندية . كذلك عمل كولبير على منع استيراد الغلال من الخارج حتى لا تصبح فرنسا معتمدة على الخارج فى خبزهـا . ولكى يجعل ثمن الخبز رخيصا فيصبح فى متناول الجميع .

أما سياسة لوى الدينية فهى مهمة . لم يكن لوى فى حياته الخاصة يهتم كـثيرا بالمسائل الدينية ، ولقد كانت حياته الاولى مملوءة بالاستمتاع ، ولكنه كان يريد أن تكون له السيطرة على كل الأمور الدينية وانتهز فرصة نزاع البابا لإعلان Gallican Liberties أى حقوق الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وفيها أعلن أن البابا لا يسيطر إلا على المسائل الروحية ، وليس له الحق فى عزل الملوك . ولقد احتج البابا، ولكن لوى لم يأبه لذلك كثيرا وقام بتنفيذ سياسته

هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى اهتم لوى بأن تكون الكثلكة هى المذهب المتفوق الرسمى فى فرنسا ، ولذا نجده يضطهد طائفة Jansènists وهى طائفة دينيه كاثوليكية . وقد انضم الى هذه الحركة عدد كبير من الادباء مثل راسين Racine وباسكال Pascal . ولكن لوى اعتبرها خارجة على سلطان الكنيسة وسلطانه ، ولذا حاول القضاء على هذه الحركة . أما علاقته مـع البروتستنت فتتلخص فيما يلى .

لم يعد البروتستنت هذه القوة العظيمة التى كانت تهدد سلطة الملك ، كذلك انقطعت صلتهم بالارستقراطية ولجأوا الى الدعة وحياة الاهتمام بالتجارة والصناعة وبذا أدوا خدمة جليلة لفرنسا . لم يحاول لوى فى أوائل عهده التدخل كثيرا فى شئونهم ، ولو أنه كان هناك ميل للتضييق عليهم . ولكن فى الجزء الثانى لحكمه لا سيما حينما ماتت زوجة الملك ماريا تريزا وتزوج الملك بمدام دى مانتنون ، Maintenon وكانت متدينة ، وكانت تشرف على تربية أولاد الملك غير الشرعيين تأثر الملك بتدينها فأصبح دينا يجد فى البروتستنتية إلحادا وخروجا على سلطة الملك ، ولقد شجعه على اتخاذ وجهة النظر هذه أعضاء الكنيسة الكاثوليكية الكبار.

ولذا بدأ فى إعادة النظر فى امتيازات البروتستنت والتقليل منها ، ثم روقبوا مراقبة شديدة، وكانت كنائسهم تدمر لأتفه الأسباب. ثم تصيدتهم الحكومة كالوحوش تماما ، وبذل المال والارغام لتحويلهم عن دينهم. ثم ختمت الكارثة بسحب مرسوم نانت، وادعت الملكية بأنه لما كان عدد كبير من البروتستنت قد تحول الى الكاثوليكية ، فلا داعى إذاً لأن يبقى الملك متمسكا بذلك المرسوم ، وبذا لم يعد للبروتستنت أى حقوق . وحرم على الهوجونت مغادرة البلاد ، ولكن عدداً كبيرا منهم تمكن من الهجرة الى انجلترا وهولندا وبروسيا حيث أسسوا الصناعة والنشاط التجارى فى برلين . كما أن عددا منهم تحول عن دينه واعتنق الكثلكة وكان لهجرة الهوجونت أثر كبير إذ حرمت فرنسا من طائفة ممتازة فى الصناعة والتجارة استفادت منها الدول الأخرى .

من هذا نرى أن المجال كان مفتوحا أمام فرنسا فى عهد لوى الرابع عشر للتفوق فى أوربا وتركيا ، كذلك كان المجال مفتوحا أمامها للتجارة الفرنسية وأمام إنشاء امبراطورية واسعة . وفى منتصف القرن السابع عشر كان لا ينازع فرنسا فى

تفوقها منازع . ولقد ظهرت فرنسا على حساب ضعف جيرانها المحيطين بها . وخصوصا هولندا ، وكانت الحروب التى قامت بينها وبين أوربا ترمى إلى تحقيق هدفين : الأول إختبار مدى تفوق نفوذها وسيطرتها على أوربا . والثانى لحفظ التوازن فى القوى فى القارة الاروبية .

أفادت فرنسا من تمركز السلطة فيها ، وبذا تمكنت من السير فى غمار الحروب الكثيرة التى خاضتها ، وأصبحت بعد كل الحروب الكثيرة أقوى مما وجدهالوى الرابع عشر .فكان له الفضل فى جعل هذا العصر عصرا ممتازا من جميع نواحيه حتى من الناحية الأدبية والفنية،فوجدراسين Racine ، كورنى Cornelle ومولير Molière .

وارتقت الدراما والروايات التمثيلية . وهناك أيضا دكارت Decart ، وباسكال Pascal ، وبوسيه Bousset ، وتنلون Tenelon ، ثم هناك مذكرات سان سيمون Saint-Simon عن حياة البلاط .

سياسة لوى الرابع عشر الخارجية

كان يرمى لوى الرابع عشر الى الاستمرار فى سياسة ريشيليو التى تسعى للوصول الى التفوق فى أوربا . وفعلا كانت فرنسا متفوقة ، ولكن الاستمرار فى الحرب لا تجنى منه فرنسا فائدة كبيرة ، لان مركزها كان متفوقا . ولكن لا يجب أن ننسى أنه الى جانب ذلك أصبحت اسبانيا وفرنسا يحكمها البيت البربونى .

ولو أن لوى اهتم بالسياسية الاستعمارية والتفوق التجارى ، إلا أن سياسة فرنسا التقليدية كانت دائما متجهة نحو القارة لا خارجها ، وكان استعدادها متجها نحو الحرب لا نحو السلم . من الناحية الحربية والسياسية فموارد فرنسا هائلة ،

وقوتها الحربية عظيمة ، وذكاؤها وقاد وحاد . كان على فرنسا النظر فى المشاكل الاوربية وحلها على طريقتها . وكما أصبح لوى سيد فرنسا عول على أن يكون سيد أوربا .

وأول مسألة تنازعت فيها فرنسا واسبانيا كانت بسبب التنازع على أيهما له الاسبقية، التاج الفرنسى أو التاج الاسبانى، وقد تم له ما أراد .

ومثل ذلك حدث مع البابا ، فلقد اضطره لوى إلى تقديم الاعتذار ،وكذلك اشترى ثغر دنكرك من الانجليز وجعلها ميناء حربيا . وأرسل يساعد البرتغال ضد اسبانيا ، التى تم بها إستقلال البرتغال فى ١٦٦٥ ، ولما أهانت تركيا سفيره أرسل يساعد أعداءها ضدها .

الحرب مع اسبانيا

نشأت الحرب مع اسبانيا من انه لما تزوج لوى ماريا تريزا الأسبانية كان قد اشترط التنازل عن بعض مطالبه إزاء اسبانيا إذا وافقت الأخيرة على ان تدفع له مهرا ضخما . ولما كانت اسبانيا فى حالة لا تمكنها من أن تدفع له مهرا أعلن لوى انه أصبح فى حل من العهد الذى أخذه على نفسه ، فلما مات ملك اسبانيا فيليب الرابع ، طالب لوى بجزء من الاراضى المنخفضة كنصيب لزوجته ، فلما رفضت اسبانيا قامت الحرب وأرسل تيرين Turenne على رأس حملة أخذت أجزاء من الاراضى المنخفضة .

لم يكن لاسبانيا قبل بلوى الذى له جيش منظم ، وقيادة حربية حسنة، وأصبح من السهل على الفرنسيين اكتساح الأراضى المنخفضة الاسبانية إذا ما أرادوا .

ولقد أخذ الهولنديون على عاتقهم تكوين المعارضة ضد الفرنسيين لخوفهم من أن يغير الفرنسيون على حقوقهم، ولأن الاراضى المنخفضة ما هى إلا حاجز أمام تقدم الفرنسيين، فاذا زال ذلك الحاجز تعرضت الولايات الهولندية للخطر. وكان دى وت De Witt - وله نوع من الرئاسة فى هولنـــدا - يعرف ذلك الخطر. ولقد تمكن لوى من مقابلة خطط أعدائه السياسية بمثلها فرشا الامبراطورية بالاتفاق معها على تقسيم الممتلكات الاسبانية ، وكذلك رشا الأمراء الألمان وهدد السويد .

أثار تفوق الفرنسيين حسد اوربا وتكون حلف من انجلترا وهولندا والسويد لمنع تقدم الفرنسيين ، ولقد أوقف لوى تقدمه ، وارجع إلى اسبانيا معظم الأراضى التى أخذها فى ١٦٦٨ .

أما انجلترا فكان مركزها خطراً فالملك تشارلز لا يريد قطع علاقته بفرنسا وحرمانه من المعونة المالية التى كان يتقاضاها سراً من لوى، ولكن الشعب الانجليزى وأفراد الحكومة كانوا موالين للهولنديين ، ولذا اضطر إلى عقد تحالف مع هولندا. وبعد انضمام انجلترا انضمت السويد . ولما علم لوى من تشارلز الانجليزى برغبات الحلف أظهر الاعتدال ، واقتصر على احتلال فرانش كونتيه Franche Conté وعقد صلح اكس لاشابل فى ١٦٦٨ . وفيه تنازلت فرنسا عن فرانش كونتيه وأخذت شالروا وتورناى وليل . وبذا ضمنت فرنسا خط دفاع شمالى منيع . أظهرت هذه الحرب قوة لوى الحربية ومهارته السياسية ؛ وعملت على زيادة حقده على الهولنديين ، لأنهم كانوا قوة وروح التحالف الثلاثى ، وأعداء فرنسا الحقيقيين . وإزدادت رغبة لوى فى عقاب الهولنديين ، وكان البلاط راغبا فى الحرب لأن النبلاء الذين لم تصبح لهم قوة سياسية أرادوا الظهور فى ميدان

الحرب . وكان لوفوا الذى نظم الجيش الفرنسى يريد الحرب لاظهار مهـــارة الجيش ، وكانت موارد فرنسا كبيرة بفضل اصلاحات كلبير .

الحرب مع هولندا

ثارت الحرب فى ١٦٧٢ لأسباب تجارية واقتصادية،كان غرض فرنسا منها القضاء على مزاحم قوى . ثم هولندا كانت جمهورية ، ومثل هذا النظام من نظم الحكم لم يكن مرضيا عنه فى البلاط الفرنسى ، لا سيما وأن هولندا كانت ملجأ المضطهدين الفرنسيين ، وكانت تنشر هناك الكتب التى تسىء إلى سمعة الملكية الفرنسية . ثم هولندا اشتركت فى الحلف الماضى ، ثم هى قريبة من فرنسا . وكان الهولنديون يملوؤن قوة وحيوية ونشاطا وايمانا بوحدتهم واستقلالهم ، ويزدادون عنادا كلما تقدمت جيوش لوى فى أراضيهم . واستعملوا غناهم وثروتهم وقوة أسطولهم فى سبيل ذلك، ولقد اعطوا لبيت أورنج نوعا من الزعامة السياسية والحربية والبحرية وكان حق هذه الاسرة غير متوارث ولكنه انتخابى ، وكانت لها بحريتها القوية، وموارد ثروتها الهائلة ، فكان لا ينافسها فى التجارة الخارجية غير انجلترا . ولكن انجلترا وفرنسا لم يكن لهما مركز هولندا لانشغال انجلترا وفرنسا بالمسائل الداخلية والاوربية ، إلا أن هذه القوة وهذه الموارد كانت داعية إلى حقـــد وحسد انجلترا وفرنسا . ولكن الخطر على هولندا هـو الذى أضعف الفكرة الجمهورية التى كان يمثلها De witt الذى كان قد أظهر قوة ونشاطا كبيرين ، وقوى من مركز ولهلم الثالث .

ولذا يمهد لوى لحربه مع هولندا بعقد معاهدة دوفر السرية مع تشارلز الثانى ملك انجلترا ، كذلك تمكن من رشوة السويد ، ويعقد معاهدة مع الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبذا وجدت هولندا نفسها وحيدة أمام القوة الفرنسية الهائلة

التي أخذت تكتسح أراضي هولندا حتى قربت من امستردام . ولم يكن لوى يرضى إلا بأن يسلم الهولنديون أنفسهم . ولكن الحالة سرعان ما تغيرت ، فلقد وصل إلى الحكم وليم أورنج حفيد وليم الهادىء لإنقاذ هولندا ، وكان وليم جيز رجل يمكنه القيام بهذه المهمة الخطيرة .ولقد عمل على إنقاذ هولندا من الناحية الحربية أولا بقطع السدود وغمر الأراضي بالماء ، ثم ثانيا عمل على تكوين حلف أوربي ضد فرنسا .

اشتركت في هذا الحلف أسبانيا ، وبراندبرج ، وانجلترا وأعلنت الامبراطورية استعدادها للانضمام إلى ذلك الحلف . وبذلك أنقذت هولندا.

انتصرت الجنود الفرنسية وأثبتت تفوقها ، ووصلت إلى الرين بفضل تيرين Turenne ولكن لم يعد القضاء على هولندا أمراً سهلا ، لاسيما بعد موت تيرين. وبناء عليه عقد صلح Nimwegen في ١٦٧٨ ضمت فرنسا بعض الأراضي على حدودها الشمالية ؛ لاسيما مقاطعة فرانش كنتيه Franche Conté على الحدود الشرقية ، ولم تخسر هولندا شبرا واحدا من أراضيها. على العموم معاهدة نموجن تمثل فترة نالت فيها فرنسا أقصى عظمتها .

حاولت فرنسا أن تسيطر على أوربا ولكنها لم تنجح ، ولقد عرف لوى أن كل محاولة ستقف أمامها أوربا ، لأن مصالحها كلها ضد مصالح فرنسا . لا سيما وأن الشخصية التي وقفت أمامه كانت من أقوى شخصيات أوربا ، بل أقوى شخصية من حيث المواهب السياسية والتدريب على مشاق الحكم وأعمال السياسة ، فلم يكن يقبل الهزيمة أو يعترف بالفشل .

لجأ لوى إلى اتباع السياسة الاعتدائية مرة أخرى ، وعمل على تقوية الجيش

والبحرية بدرجة أن أصبحت للاسطول الفرنسى السيادة فى البحر المتوسط ، على أن هذه السياسة ستكون مثيرة لمخاوف الدول الأوربية الأخرى.

وبهذا الصلح سجل تفوق فرنسا ونفوذها الكبير ، وفى الفترة التى تلت هذه الحرب أثارت فرنسا لصالحها بعض شروط معاهدة وستفاليا الخاصة بحدودها . ولقد كون لوى لجنة فرنسية لتفسير هذه الشروط . وبذا ضمت لفرنسا مناطق كبيرة من الالزاس ، بما فيها استراسبورج ، وكذا لكسمبرج وكاسال Casale فى ايطاليا .

لم ترض المانيا عن ذلك واجتمع مندوبوها فى مجمع Ratisbon فى ١٦٨٤ ولكن لوى أرسل اليها انذارا بالحرب إذا لم تقبل المطالب الفرنسية فنزل المجمع على رغبة الملك .

كان هناك صداقة وتحالف بين فرنسا وتركيا ، ولطالما ساعدت تركيا فرنسا عن طريق تهديد الهابسبرج . ولكن تنازع فرنسا مع البابوية وتحالفها مع الاتراك كان من العوامل التى أضاعت سمعة فرنسا مع أوربا ، وأضاع أيضا تحالف بولندا مع فرنسا . وتكون تحالف فى ١٦٨٦ من الامبراطورية واسبانيا والسويد وأمراء شمال المانيا وهولندا للوقوف ضد محاولات فرنسا فى بسط سيادتها على أوربا. وانضم إليه فى ١٦٨٩ بافاريا والبابا وإمارات ايطالية .

ولكن انهزام تركيا أمام فينا ١٦٨٣ وإنحلالها التدريجى لم يجعل لذلك التحالف قيمة كبيرة .

كذلك لم ينجح لوى فى سياسته مع انجلترا ، بالرغم من أن تشارلز الثانى وجيمس الثانى كانا مؤيدين للكثلكة . على العموم نجح لوى إلى حد منع انجلترا

من أن تلعب دورا ايجابيا ضده ، ولكنها لم تقدم له مساعدة ذات بال .

ولم يقم لوى بعمل ضد ذلك التحالف ، ولم تكن دوله قد استعدت بعد للحرب . ولكن لوى كان يدرس الحالة فى انجلترا باهتمام ، لأن سخط الانجليز على ملكهم كان آخذا فى الزيادة ، ولو كان تشارلز محله لعضد لوى ، لأن المثل الأعلى لتشارلز هو حياة ترف وسلام وإسراف داخل انجلترا ، ولكن لجيمس أطماع سياسية كبيرة ، وكان اهتمامه مقصورا على إرجاع المذهب الرومانى إلى انجلترا وجعل الملكية قوية مستبدة ولم يكن يهتم بتفوق فرنسا .

وكان لوى يرغب فى مساعدة الأسطول الانجليزى له ، ولا يريد أن يصطدم الملك بالبرلمان ولكن جيمس سار بنشاط فى سياسته الداخلية . أراد لوى أن يعطى جيمس درسا ، وكان يعرف بأطماع وليم فى العرش الانجليزى ، ويعرف أن كل المستائين فى انجلترا فى جانب وليم وعلى اتصال به . ولذا لم يرد مهاجمة هولندا ذاتها حتى يعبر وليم إلى أنجلترا . وكان يظن أن ذلك سيدعو إلى قيام أهلية وأن جيمس سيضطر إلى طلب معونة فرنسا . ولكن خاب ظنه ، لقد عرض لوى المساعدة على جيمس الثانى ، ولكن نظراً لكبره وغروره ووطنيته وعدم بعد نظره السياسى ، لم يقبل هذه المساعدة ولذا يوجه لوى نظره إلى الحدود الشرقية .

مسألة انتخاب اسقف كولونى

قيمة كولونى الاستراتيجية هى فى كونها تقع على معبر عند نهر الرين توصل للأراضى المنخفضة . وفرنسا ترى ضرورة انتخاب رجل صديق لفرنسا فى تلك البلاد ولكن ظهر لها ضرورة استعمال القوة إذا كانت تريد أن تصل إلى نتيجة موافقة لها .

فى ذلك الوقت طلب زعماء الثورة وليم اورانج من هولندا ليكون ملكا عليهم. ولكن هولندا ذاتها كانت فى خطر من جيوش لوى ، ولذا لم تكن ترى أن يتركها وليم فى ذلك الوقت الحرج ولكن هجوم الفرنسيين على كولونى خلص الهولنديين من هذا الخوف .

ووصلت للوى الاخبار بأن جيمس لم يقاوم مقاومة كبيرة بل هرب مسرعا إلى فرساى ووجد نفسه بغير حلفاء ، لكن خطوطه الدفاعية القوية هى التى أنقذت فرنسا .

ولقد وجد الحلفاء أنفسهم مضطرين إلى إقامة مثل هذه الحصون واتباع سياسة حرب دفاعية . ولقد حدثت حرب محلية لا تقدم ولا تأخر كبير فيها ، فكانت المدن يفقدها البعض ثم يستردها ، وبذا وجدت فرنسا نفسها انجلترا على رأس كل تحالف ضد لوى .

نشأ ذلك التحالف نتيجة لهجوم الفرنسيين على كولونى ، وتكون من انجلترا وهولندا والامبراطور، ثم انضمت إليه اسبانيا . وكانت الحرب قاسية واستمرت مدة طويلة .

تدل هذه الحرب على مدى ما كانت فرنسا عليه من قوة حربية عظيمة وتفوق فى القيادة . وترجع أهمية هذه الحرب الى التطاحن البحرى بين فرنسا وانجلترا ولقد ظهرت البحرية الفرنسية فى أول الأمر على البحرية على البحرية الانجليزية والهولندية معا فى موقعة Beachy Head ، ولكن لوى لم يعرف كيف يستغل ذلك الموقف . وعلى العموم انتصر الأسطول الفرنسى أولا فى Tourville ، وقد عادت البحرية الانجليزية بقيادة Russell وانتصرت فى موقعه La Hagne . وبذلك

زال الخطر الذى كان يهدد بغزو انجلترا .

ظلت ايرلندا مخلصة لجيمس الثانى . وفيها أخذ جيمس يجهز قوة لغزو انجلترا . ولكن وليم قاد جيشا دوليا فى الواقع ، وقضى على قوة جيمس فى موقعة The Boyne فى ١٦٩٠ .

استمرت الحرب وكانت تستلزم مجهودا ماليا كبيراً . ولذا عقد صلح Byswich فى ١٦٩٨ . وبه تنازلت فرنسا عن بعض الأراضى التى كانت قد استولت عليها فى الحروب السابقة ، ولكنها ظلت محتفظة بالألزاس ، بما فيها استراسبورج . ووعد لوى بألا يساعد آل استيوارت على الرجوع إلى العرش الانجليزى ، كذلك وافقت فرنسا على أن تحتل الجنود الهولندية القواعد الحربية المهمة فى الأراضى المنخفضة ، ولم يصبح التنازل مجرد تطاحن بين شخصيتين وإنما أصبح صراعا بين شعبين .

والذى جعل لوى يقبل ذلك الصلح هو أن اهتمامه أصبح مركزاً فى اسبانيا . فملك اسبانيا شارل الثانى كان فى حالة صحية سيئة ، وكان لوى قد وضع عينه على اسبانيا .

حالة أسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر

كان الاضمحلال ظاهرا نظراً للحروب الكثيرة التى خاضتها ، ولنظمها الحكومية والاجتماعية والمالية ، كما كانت حالتها المالية سيئة للغاية ، وحرية الفكر مقيدة ، ثم لاهتمامها بمشاريعها فى أوربا وفى المستعمرات فى وقت واحد . وكانت مشاغلها الأمريكية كبيرة ، فهى شاملة للامريكتين . ومشاغلها الأوربية كبيرة فهى شاملة لمسائل اسبانيا والأراضى المنخفضة أيضا ، قد استنزف نشاطها فى كل ذلك .

كان ملكها تشارلز - هو آخر ملك من أسرة هابسبرج يتولى العرش الأسبانى - أشبه بمعتوه · النفوذ لزوجه ولم يكن له ولد .

الدول الاوربية كانت تنظر لاسبانيا كغنيمة جديدة، وفى الواقع اصبحت المشكلة الاسبانية من أعقد المسائل الاوربية التى تحتاج إلى شيء كبير من الحزم والسياسة وبعد النظر لحلها سلميا ·

أصبح عرش اسبانيا مشكلة دولية ، فكل الدول الأوربية الكبرى لها مطامع فى اسبانيا، وفى ممتلكاتها فى الامريكتين وفى ايطاليا، وكل دولة تحرص على ألا يكون للأخرى نفوذ متفوق فى اسبانيا . فكانت هناك المصاعب القانونية والمصاعب السياسية ·

كان هناك ثلاثة مطالبون بالعرش : بيت البوربون ويمثله لوى الرابع عشر الذى تزوج بأميرة اسبانية ، وهو يطالب بالعرش لأنه كذلك من بيت الهابسبرج، والامبراطور ليوبولد كان ابنا لأميرة اسبانية ، ثم هناك منتخب بافاريا الذى يتصل بصلة قرابة بالعائلة المالكة الاسبانية ، لم يكن هؤلاء المرشحون قابلين لتحكيم أية دولة أخرى أو لقبول حكمها .

ولكن انجلترا وعلى رأسها وليم أورنج كانت تبذل جهدها على ألا يكون هناك ملك فرنسى على العرش الاسبانى ، وكذا هولندا. ولكن الشعب الانجليزى لم يكن ميالا للدخول فى حرب جديدة ، ولذا لجأ إلى استعمال السياسة ، فبدأ فى مفاوضة لوى الرابع عشر . ومن الغريب أن لا الاسبانيين انفسهم ولا ملك اسبانيا قد استشيروا فى المسألة .

حل المسألة من الوجهة القانونية متعذر ، ومن الذى يفصل فى المشكلة

القانونية ؟ من الحكم الذى يستطيع الجميع قبول آرائه ؟ وهل هؤلاء المتنازعون بعد ذلك ميالون إلى الإلتجاء للتحكيم ؟

وجد لوى ووجدت انجلترا أنه لا مناص من الاتفاق لحقن الدماء من ناحية، ومن ناحية أخرى لحل المشكلة الحل الذى يوافقهما . وفى أثناء هذه المفاوضات تظهر عظمة لوى كسياسى بارع ومفاوض لا نظير له . وكان اهتمام الانجليز مركزا فى الأمور الدولية البحرية للموضوع لا الناحية الاوربية الصرفة منه .

كان غرض لوى إحراز العرش الأسبانى وجزائر الهند الغربية وتأمين حدود هولندا الجنوبية ، ويحرص فى نفس الوقت على عدم زيادة نفوذ الهابسبرج . وكان غرض انجلترا ألا يساعد لوى آل ستيوارت للرجوع إلى الحكم .

عقدت معاهدتان بين انجلترا وهولندا وفرنسا . ولقد اتفق الفريقان فى المعاهدة الأولى على أن يكون العرش الاسبانى بمعظم الممتلكات الاسبانية لمنتخب بافاريا ، وتأخذ فرنسا نابولى وصقلية . وبذا لا يتزعزع النظام الاوربى أى التوازن الاوربى ، وربما كان من السهل أن يتم ذلك إذا علمنا أن ملك اسبانيا أوصى بعرشه لمنتخب بافاريا . ولكن منتخب بافاريا مات فى ١٦٩٩ .

وبذا بدأت المشكلة من جديد ، وزاد تعقد حلقاتها . فانجلترا لا يمكنها الموافقة على حفيد لوى كملك على اسبانيا ، وكان لوى مقتنعا بضرورة المحافظة على صداقة الدول البحرية ، ومن ثم عقدت المعاهدة الثانية وبها يذهب العرش الاسبانى إلى الأمير النمسوى الامير كارل Prince Karl ثانى ابن للامبراطور ، وتأخذ فرنسا الممتلكات الاسبانية فى ايطاليا وتضيف اليها اللورين . وبينما كانت هذه المفاوضات تكاد تكون شبه منتهية إذ بالسفير الفرنسى يحاول أن يؤثر على الملك

الاسبانى وبلاطه بأن يحمل العرش لفرنسا ، ولذا لما مات الملك وجد بأنه قد أوصى بعرشه وبكل ممتلكاته إلى فيليب دوق انجو Philip of Anjou حفيد لوى الرابع عشر .

حرب الوراثة الاسبانية

جاءت هذه الأخبار بسرعة إلى باريس ، وحار لوى ماذا يعمل لأن أوربا لن تسمح له بذلك قبل ان تقهر فى ميدان الحرب . وكان على فرنسا أن تعلن موقفها بسرعة لأن اسبانيا أرسلت سفيرا ومعه الوصية إلى باريس ليرى رأى فرنسا ، فإذا رفضت الاخيرة عليه أن يسافر إلى فينا لترشيح الأمير النمساوى . ولقد عقد اجتماع كبير فى قصر فرساى ، وبعد فترة خرج الملك متكأ على حفيده وقدم حفيده للجماهير المحتشدة فى الخارج كملك لأسبانيا .

قبل لوى ترا الوصية الاسبانية ، ولكن كان عليه الدخول فى حرب . ولذا اعترف بحفيده ملكا على اسبانيا تحت اسم افيليب الخامس .

ربما كان من الممكن أن يتجنب لوى حربا أوربية عامة إذا أظهر أمام الدول أن العرش الاسبانى منفصل تمام الانفصال عن العرش الفرنسى ، وأن تبقى اسبانيا منفصلة عن فرنسا .

ولكن لوى تسرع فاحتل الممتلكات الاسبانية فى الأراضى المنخفضة ، فثارت انجلترا ، لا سيما حينما اعترف لوى بابن جيمس الثانى ملكا على انجلترا ، وبذلك خلف وعده ، فلا عجب إذا أيد الشعب الانجليزى وليم فى سياسة الحرب .

كون وليم التحالف العظيم Grand Alliance للحرب ضد فرنسا ولكنه مات قبل أن تقوم الحرب ، فأخذ الدوق ملبرو على عاتقه اتباع سياسته .

ومولبرو سياسى ظاهر ، ولكنه كان من أكبر القوادّ الانجليز الذين ظهروا فى التاريخ قاطبة ، ويليه ولنجتون الذى انتصر فى واترلو . جون تشرشل الذى سيصبح الدوق مولبرو نشأ فى خدمة القصر الملكى، نتيجة للنفوذ الذى كان لأخيه فى البلاط ارتقى مولبرو سريعا حتى أصبح القائد الأعلى للجيش الانجليزى والجيش الهولندى ، وظهرت كفايته وجدارته فى حرب الوراثة الأسبانية . تعلم الحرب من مدرسة تيرين الفرنسى .

ابتدأت الحرب بين فرنسا واسبانيا وبالفاريا فى جانب (وإن كانت أسبانيا لم تساعد مساعدة قيمة لسوء حالتها) وبين انجلترا وهولندا الامبراطورية ومنتخب براندبرج التى أخذت فى سنة ١٧٠٠ لقب مملكة بروسيا من جانب آخــــر .

ولم تكن هناك وحدة فى العمل ولا فى الرأى بين المتحالفين ، ولكن كانت هناك صداقة متوطدة الدعائم بين الأمير يوجين Eugen وملبرو .

تولى يوجين Eugen القيادة فى ايطاليا ومولبرو القيادة فى منطقة الأراضى المنخفضة، وكانت الحرب أوربية وتسمى حرب الوراثة الاسبانية، وكانت ميادينها الأراضى المنخفضة.

فى ايطاليا حاول النمساويون طرد الفرنسيين والأسبان .

أهم المواقع فى هذه الحرب موقعة بلنهايم Blenheim فى سنة ١٧٠٤، وهى أول موقعة فاصلة انهزمت فيها قوات فرنسا ، نتيجة تعاون جيش ملبرو وجيش يوجين . كذلك انتصر الأسطولان الانجليزى والهولندى بقيادة Sir George Rooke انتصاراً تاما على الأسطولين الفرنسى والأسبانى. وتمكن الانجليز بعدها

من أخذ جبل طارق وبذا أصبح مدخل البحر المتوسط فى يد انجلترا

طرد الفرنسيون من ايطاليا واكتسح ملبرو الأراضى المنخفضة ، وتمكن الأرشيدوق النمسوى من الدخول فى مدريد حيث أعلن ملكا تحت اسم تشارل الثانى.

ولكن انقذ لوى عاملان أولا : ظهور القومية الاسبانية مرة أخرى. وبذلك تمكنوا من الظهور ، وانهزم الحلفاء . ورجع فيليب الخامس منتصرا إلى مدريد . ثانيا : غرور الحلفاء بقوتهم فحينما طلب لوى الرابع عشر شروط الصلح قدمت له شروطاً مذلة بدرجة لا يمكن للوى قبولها . ولذا صمم على الاستمرار فى الحرب ، وبدأ الموقف يتحسن فى صالح فرنسا . وأنقذ فرنسا تغير الموقف فى انجلترا ، فلقد كان الاستمرار فى الحرب سياسة الويجز أما التورى فيريدون الصلح وبدأت الملكة آن Anne تميل عن الويجز . ولخلاف بين الملكة وملبرو سقطت وزارة الويجز وتقلد حزب التورى الحكم ، ففتحوا مفاوضات الصلح . وبدأوا ينسحبون من الحرب . وأصبح حمل الحرب على عاتق النمسا التى انهزمت فى Denain.

ولقد عقد الصلح بين فرنسا وانجلترا فى معاهدة اوترخت Utrecht فى سنة ١٧١٣، وكانت شروطها أن يبقى فيليب الخامس على العرش الاسبانى على شرط ألا يتحد العرش الاسبانى مع العرش الفرنسى ، ولكن انكمشت الممتلكات الاسبانية ، إذ أخذت الامبراطورية الأراضى المنخفضة وميلان ونابولى وسردينا . ، وانجلترا احتفظت بجبل طارق وبورت ماهون فى منورقة . وسافوى أخذت صقلية . اعترفت فرنسا بوراثة البروتستنت للعرش الانجليزى وطرد المطالب بالعرش من فرنسا ، وتركت نيو فوندلند ونوفا سكوشيا وخليج هدسن لانجلترا ، وتنازلت عن بعض الأراضى على حدودها الشمالية . خرجت فرنسا من الحرب مجهدة حالتها المالية سيئة. وبدأت تظهر المعارضة للملك . وبسلام أوترخت ينتهى القرن السابع

عشر فى أوربا ، وانتهى بفشل فرنسا فى تكوين دكتاتورية مسيطرة على أوربا ، وكذلك بتقدم انجلترا فى طريق التفوق التجارى .

وانتهى القرن السابع عشر بانتهاء المنافسة بين عائلتى البوربون بتقدم انجلترا وتدهور الاتراك .

انتهى القرن السابع عشر بنمو بروسيا وظهور روسيا .

ولقد مات لوى بعد عقد سلام أوترخت وبسنتين قضاهما فى التوبة الى الله من الذنوب العديدة التى ارتكبها ، وكانت تحثه على ذلك مدام Maintenon .

ولقد عاش لوى ومات أعظم ملك ظهر فى أوربا فى التاريخ الحديث .

الفصل العاشر

التطور الدستورى فى انجلترا

انجلترا فى القرن السادس عشر

من الناحية السياسية انجلترا جزء من القارة ، ومن ناحية أخرى هى تكون وحدة منفصلة عن القارة . فهى جزء من القارة خلال العصور الوسطى، وحتى قبل العصور الوسطى خضعت للدولة الرومية وتمتعت بالسلام الرومى وفى العصور الوسطى أغار عليها الجرمان والنورسمن والدنمركيون والنورمنديون .ولم تتعرض انجلترا فى العصور الحديثة لغارات أجناس غريبة عن الجزر البريطانية . وبينما كانت أوربا معرضة لتيارات الاستبداد وبدأت تظهر فيها الناحية الإستبدادية وأصبح الملوك ممثلين للوحدة القومية ،كانت نظم الحكم تتطور فى انجلترا بعيداً عن الاستبداد. فلقد ظهرت فى انجلترا طبقة وسطى قوية ،وستكون العصور الحديثة فى انجلترا فترة تطور كبير فى اتجاه انجلترا نحو النظم البرلمانية الحرة .

توحدت انجلترا وإن كانت لا تزال الجزائر البريطانيـــة منقسمة إلى ثلاثة أقسام سياسية هى انجلترا واسكتلندا وإيرلندة .

لقد كان نتيجة لحرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) فى انجلترا أن أخـذ الانجليز يتجهون نحو الأسرة الجديدة التى بدأت تحكم انجلترا ووضعت حداً للفوضى وللحرب الأهلية . هذه الأسرة أو العائلة هى عائلة التيودور التى تمكنت

من حكم انجلترا حكما مركزيا . ولكنها لم تحكم انجلترا حكما إستبداديا ، لأنها حكمت لصالح الشعب وبرضا الشعب . فهى التى أنقذت البلاد من الفوضى وأعادت اليها الطمأنينة والنظام مرة أخرى . فكان حكم هنرى السابع حكما محبوبا لسياسته الداخلية الاصلاحية . فلقد كان حكم هنرى السابع مهتما بالسياسة الداخلية ، سياسة البناء . وكان حكم ابنه هنرى الثامن محبوبا لشخصيته المرحة ، ولسياسته الخارجية النشيطة . وإن حركة الإصلاح الدينى التى قام بها ذلك الملك لم تلق من الشعب معارضة ، لأنه كان يثق فى الملك ، ولأن إصلاحات الملك كانت تمثل إلى حد كبير رغبات الشعب الانجليزى الذى مل تدخل البابوية الأجنبية فى شئونه الدينية .

ولكن حكم ادورد السادس ومارى لم يكن محببا للشعب الانجليزى ، لاسيما الأخيرة لتحالفها مع أسبانيا لمصالح كبيرة لها بانجلترا . ثم لأنها كانت تعبر عن رأى الكاثوليك فقط .

الملكة اليصابات محبوبة لإنها كانت تحكم وفق رغبات الشعب الانجليزى ، كانت تعمل على تحقيق المصالح الانجليزية قبل كل شىء ، ولاحترامها لممثلى الشعب الانجليزى .

كانت الملكية قوية فى عهد هذه العائلة لأسباب أن الشعب الانجليزى أخذ يميل إلى وضع معظم السلطة فى يد شخص واحد حتى يحول دون عودة البلاد إلى حالة الإنقسام والفوضى القديمة . ثم لأن انجلترا مرت فى أزمات خطيرة الشأن مثل أزمة الاصلاح . وهذه أثارت الدول الكاثوليكية على انجلترا ، ولاسيما أسبانيا . فأصبحت البلاد معرضة للغزو الخارجى ، فدعا هذا إلى تركيز السلطة حتى يبتعد ذلك الخطر .

ثم لأن انجلترا بدأت حياتها الاستعمارية والتجارية الحقيقية منافسة

بذلك البرتغال وأسبانيا . وهذا يدعوا الى اعتماد الشعب على سلطة الملك .

ولذا كان حكم التيودور حكما دكتاتوريا إلى حد ما ولكنه مؤقت . وكان إلى جانب الملكية البرلمان ، مركزه محترم ولايهمل آراء أعضائه . ولذا كان البرلمان من أعوان الملكية لا من خصومها فى عهد هذه الأسرة . وبينما تضاءلت سلطة الأنظمة فى القارة لم تضعف فى انجلترا بل أخذت تنمو .

ماذا كانت السياسة الخارجية لأسرة التيودور فى انجلترا . يمكن تلخيص تلك السياسة فى النقط الآتية :

١ - لم تتبع انجلترا سياسة خارجية نشيطة فى عهد هنرى السابع الذى كان همه توطيد مركز العرش والنظام . عمل هنرى على تحسين علاقاته مع اسكتلندة وأسبانيا بطريق التزويج السياسى .

٢ - فيما يختص بعلاقة انجلترا مع القارة الاوربية ، فقد اتبعت سياسة خارجية نشطة فى عهد هنرى الثامن . وعملت على الخروج من العزلة السياسية واشتركت فى المسائل الاوربية عن طريق دخول المحالفات . فيدخل هنرى فى محالفة مع كارل الخامس ضد فرنسوا الأول .

وكان يساعده فى سياسته سياسى لبق هو ولسى Wolsey . وربما كان هنرى الثامن يؤمل فى التربع على عرش الامبراطورية الرومية المقدسة .

٣ - علاقة الملكية مع البابوية حيث ساعدت الملكية البابوية ضد حركة الإصلاح الالمانية. ثم تفصم علاقاتها بالبابوية نتيجة لتردد البابوية فى تطليق هنرى من زوجته كاثرين .

فاذاً نجد المسألة الدينية تختلط بالمسألة السياسية .

٤ - الملكية فى عهد مارى تحسن علاقاتها بالبابوية وبالكثلكة وتعقد تحالف مع اسبانيا .

٥ - فى عهد الملكة اليصابات تأخذ الملكية على عاتقها العطف على البروتستنت ومساعدتهم فى أوربا، ومناصبة الدول الكاثوليكية العداء ، كأسبانيا مثلا التى جاهرت بعدائها لانجلترا .

على أن هذا لم يمنع الملكية من التحالف مع فرنسا الكاثوليكية فى آخر الأمر ضد اسبانيا الكاثوليكية لعوامل دينية وسياسية واقتصادية .

هذا من حيث علاقة انجلترا بالقارة الأوربية . وهناك نقطة مهمة فى علاقات انجلترا الخارجية هو علاقتها باسكتلندة وايرلندة .

علاقات انجلترا فى أوائل عهد التيودور عدائية مع اسكتلندة ، فلقد كانت لاسكتلندة علاقات بالقارة الاوربية لا يمكن لانجلترا التغاضى عنها بأى حال من الأحوال . ولقد حاول هنرى السابع إنشاء اتحاد من انجلترا واسكتلندة ، أو على الأقل إيجاد علاقات وثيقة بين الدولتين عن طريق الزواج السياسى ، بتزويج ابنته من جيمس الرابع الاسكتلندى . ولكن يظهر أن الزواج لم يثمر الثمرة المطلوبة ، فلقد قامت الحرب شديدة بين ابنة هنرى الثامن واسكتلندة .

وانهزمت اسكتلندة نتيجة لقلة مواردها وصغر عدد سكانها . ولقد مات جيمس الخامس ملك اسكتلندة تاركا وراءه أميرة هى مارى استيوارت ، وكانت لاتزال فى المهد صبية، ولو تمكنت انجلترا من تزويج هذه الأميرة لأمير انجليزى لتم التحالف والاتحاد بين الدولتين وفعلا بذلت محاولات فى هذه المسألة ولكنها فشلت، واضطرت مارى إلى التزوج من ولى العهد الفرنسى . وبذا أصبحت انجلترا فى

خطر محدق بها من الشمال ومن الجنوب .

فإذاً الطرق الدبلوماسية لم تفلح فى إيجاد وحدة من الدولتين ، ولكن نجاح حركة الاصلاح الدينى فى كلا الدولتين كان عاملا مشتركا ومساعدا على إيجاد هذه الوحدة ، بالرغم من أن الحركتين مختلفتان .

أما مارى فلم تكن سعيدة الحظ ، فلقد مات زوجها صغيراً ، وعندما رحلت إلى اسكتلندة كانت حركة الاصلاح قد انتشرت فيها وأصبح الأمر بيد الاشراف . وكانت مارى متمسكة بعقيدتها الكاثوليكية إن لم تكن متعصبة لها . ولذا اصطدمت بالأشراف نتيجة لعوامل سياسية، لأن الأشراف كانوا يريدون المحافظة على نفوذهم السياسى . ثم لعوامل دينية ، لأن الأشراف يكرهون مارى لكثلكتها . وانتهى الأمر بانتصار أعدائها عليها ، وتولى العرش ابنها جيمس السادس الذى سيصير جيمس الأول ملك انجلترا فيما بعد ، أى بعد وفاة اليصابات . جاءت مارى إلى انجلترا ولم تلبث أن سجنت وأعدمت لاتهامها بالتآمر على حياة اليصابات . وبموتها انهار أمل الكاثوليك الانجليز .

أما علاقة انجلترا بأيرلندة فهى قصة أخرى مختلفة عن هذه تمام الاختلاف . كانت انجلترا تحكم ايرلنده فى أوائل عهد التيودور ولكن حكما اسميا . ولذا لما ثبت مركز التيودور فى انجلترا أخذوا على عاتقهم تثبيت سلطانهم فى هذه الجزيرة، فقضوا على سلطة النبلاء الايرلنديين . لم تنتشر حركة الاصلاح الدينى فى ايرلنده، وإن كانت الكنيسة الانجليزية قد فرضت بالقوة هناك . ولقد حاولت الزابث استعمال القوة فى اخضاع الايرلنديين لسلطانها السياسى والدينى . ولكنها فشلت فى الناحيتين، وقامت الثورة هناك، وعم الخراب والدمار ايرلندة . وأصبحت الكثلكة رمز الأيرلنديين القومى .

انجلترا فى القرن السابع عشر

كان تاريخ انجلترا منفصلا عن تاريخ أوربا خلال ذلك القرن، وكانت له ميزاته الخاصة التى تميزه عن تاريخ الدول الأوربية الأخرى .

هذا ليس معناه أن السياسة الانجليزية لم تكن لها صلات بالقارة . فلقد كانت هناك علاقات مهمة بفرنسا ، وكانت الملكية الفرنسية مؤثرة على الملكية الانجليزية . فلقد حاول استراتفورد Stratford فى انجلترا ما حاوله ريشيليو فى فرنسا . كان هناك دائما النموذج الفرنسى أمام أنظار الملك تشارلز . ولكن الثورة المجيدة أحدثت تغييرا هاماً فى السياسة الانجليزية .

إذا نظرنا إلى القارة الأوربية نجـــد أن الميل كان متجها صوب النظم الاستبدادية والملكية والمركزية . ولقد كانت هناك الفكرة التى تقول بضعف الدولة إذا اشترك الناس فى الحكم . ولكن نجاح البرلمانية الانجليزية فى الداخل ونجاح سياستها فى الخارج سيعدل من هذه الفكرة .

حكم جيمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥) انجلترا بعد اليصابات ، وكان طبيعيا أن يتبع سياسة مغايرة لسياستها ، ولم يكن له حكمتها ولا حيطتها وكان يؤمن إيمانا أعمى بنظرية حق الملوك الالهى . أى أن الملوك قد استمدوا سلطانهم من الله ، ولا يمكن للرعية التدخل فى أعمال الملك ، وأن الملوك خلفاء لآدم لهم حق السيطرة على البسيطة .

كذلك حدث تغيير فى موقف البرلمان . والبرلمان الانجليزى أخذ بنصيب

كبير فى الحياة الانجليزية . لم تكن له سلطة محددة ، ومع ذلك فكان من المتعذر إبعاده أو القضاء عليه ، وكان نفوذه يزداد كلما كانت الملكية ضعيفة ، وكلما بعد الخطر عن البلاد . وأخذ البرلمان يحس بأنه شيء فى انجلترا ، وبأنه مصدر الحكم .

ولقد ساعد البرلمان على الوقوف ذلك الموقف كون انجلترا جزيرة لا تحتاج إلى جيش قائم على أهبة الاستعداد . فلم يجد الملوك سلاحا قوياً يستغلونه ضد البرلمان .

وعملت المسألة الدينية على سوء العلاقات بين الملك والبرلمان . فكان هناك من يقولون بالاستفادة من الكلفنية أو البرسبتيريانية .

ولقد حاول البرلمان أن يفرض إرادته على الملك بضرورة الرجوع إليه فى كل ما يختص بنظام الضرائب ، ثم انتقد سياسة الملك .

على أى حال تولى جيمس الاول العرش فى ظروف مواتيـــة بالنسبة له ، فانجلترا قد نجت من خطر محقق كان يتهددها من جانب أسبانيا بانتصـارها على الارمادا الأسبانى فى سنة ١٥٨٨ . كذلك استقرت الأوضاع الدينية باتبـــاع المذهب الانجليكانى ، مذهب الكنيسة الانجليزية ، بعد أن ضم البيورتان . وكان من الممكن أن تسير الأمور الدينية بشيء من اليسر والسهولة لو أن جيمس الأول أحسن التصرف فى معالجة الخلافات الطفيفة بين البيورتان والانجليكانيين . لاسيما وأن تلك الخلافات لم تكن تمس جوهر العقيدة . ولذا فشل المؤتمر الذى عقد فى هامتون كورت **Hampton Court** (يناير ١٦٠٤) للتوفيق بين الطائفتين .

وكان فشل المؤتمر مدعاة لغضب الملك على البيورتان وعلى كل من يخالف

سياسته الدينية ، ومنهم الكاثوليك الذين كانوا يتوقون إلى التخلص من القيود الدينية التى فرضت عليهم .

وإذا كان البيورتان لم يتخذوا موقفا شديداً من الملك ، فإن الكاثوليك قد صمموا على الانتقام ، فدبروا مؤامرة لنسف البرلمان والإطاحة بالحكومة ، فوضعوا داخل أقبية البرلمان مواد متفجرة لنسفه فى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥ . ومن حسن حظ الحكومة أن اكتشفت المؤامرة قبل حدوث الانفجار ، وقبضت على المتآمرين وقدمتهم للمحاكمة وقضت بإعدامهم . وقد أحدث هذا النبأ صدى عميقا لدى الرأى العام الانجليزى والملك ، فأخذوا يتوجسون خيفة من نوايا الكاثوليك وينظرون إليهم نظرة شك وريبة ، وأصبحوا موضع اضطهاد حوالى قرنين من الزمان

واجه جيمس الأول مشكلة ثانية لا تقل خطورة من المسألة الدينية ، إن لم لم تزد عليها ، وهى المشكلة الدستورية . كان من حق البرلمان الموافقة على فرض الضرائب . ونظراً لحاجة الملك الشديدة إلى المال ، ونظراً لميله إلى ممارسة الأسلوب الاستبدادى فى الحكم ، فقد لجأ إلى جمع الضرائب من الأهالى دون موافقة البرلمان أو عرض مشروعها عليه . وعندما عرض مشروعه عليه رفض البرلمان التصديق عليه ، فأمر بحله . وفعل ذلك فى عدة مجالس فى الفترة ما بين عامى ١٦١١ و ١٦٢١ .

لم تصبح المشكلة مسألة فرض ضرائب على الشعب ، وإنما أصبحت مسألة مبدأ دستورى هام ، وهو حق الملكية فى فرض الضرائب دون الرجوع إلى البرلمان . وكان لابد من الوصول إلى اتفاق بين الطرفين حول هذا الموضوع بأية وسيلة من الوسائل .

على أن سياسة جيمس الخارجية زادت من غضب الشعب عليه ، فمحاولته إيجاد سلام فى أوربا دفعته إلى التحالف مع أسبانيا الكاثوليكية من أجل ذلك الهدف . ونظراً لكره الشعب الانجليزى لأسبانيا فقد جرت عليه تلك السياسة حنق الأهالى .

وعندما نشبت حرب الثلاثين عاما فى عام ١٦١٨ ، ودخل صهره فردريك أمير البلاتينات فى حرب مع الكاثوليك فى ألمانيا ، وقف جيمس على الحياد فى هذا الصراع إرضاء لأسبانيا ، وكان نتيجة هذا الموقف الذى أغضب الشعب طرد فردريك وضياع ملكه .

وقد دفعه الشعب فى الدخول فى حرب مع الكاثوليك لإرجاع صهره إلى عرشه مرة ثانية . ولكنه تردد فى ذلك ، وآثر حل المشكلة عن طريق المفاوضات أو التصاهر . ولكن فشلت تلك المحاولة . ومات جيمس قبل أن يصل إلى حل هذا الموضوع .

خلف جيمس الأول لابنه تشارلز الأول Charles I تركة مثقلة . فلم تكن السياسة الخارجية ناجحة كما كانت سياسة ريشيليو أو مزران . فكانت السياسة الفرنسية والأسبانية متفوقة على السياسة الانجليزية .

كان تشارلز الأول صورة من أبيه يؤمن بحق الملوك الإلهى وفى حكم البلاد حكما إستبداديا مطلقا . ومن ثم تمسك بموقف أبيه من كفاحه للبيورتان ، ومقاومته للبرلمان .

ومما زاد من غضب الشعب الانجليزى عليه زواجه من هنريت ماريا Henriette Maria شقيقة لوى الثالث عشر ملك فرنسا ، ولم يكن الشعب مرحبا

بهذا الزواج أو راضيا عنه . وليت الامر وقف عند هذا الحد بل تجاوزه عندما وافق تشارلز على إدخال الكاثوليك الانجليز تحت حماية ملك فرنسا .

وما لبث تشارلز أن دخل فى صراع مع البرلمان الذى إتهمه بالتفريط وعدم التمسك بالعقيدة الانجليكانية ، وتحرره الدينى إلى حدما .

لقد فشل تشارلز الاول فى سياسته الخارجية أمام فرنسا وأسبانيا ، وأصبح مكروها لتأييده لدوق بكنجهام Buckingham الذى أسند إليه قيادة القوات الانجليزية المرسلة لحرب أسبانيا على غير رغبة البرلمان . ونظراً لعدم كفاية بكنجهام العسكرية فقد فشلت الحملة . وبذلك تمسك البرلمان بموقفه فى عدم منح تشارلز أية مساعدات مالية ما لم يتخلص من بكنجهام أولا ، فرفض الملك.

غامر تشارلز بدخول حرب جديدة مع فرنسا لانقاذ الهوجونت المحاصرين فى مدينة لاروشيل . ولما كان فى حاجة إلى مال لإعداد الحملة ، ونظراً لرفض البرلمان ذلك ، فقد قام بالضغط على الاغنياء لامداده بقروض إجبارية . ثم أعد حملة أسند قيادتها إلى بكنجهام أيضا ، كان مصيرها الفشل كذلك . فأدت تلك النتيجة إلى زعزعة مركز الملك ، وإلى طلبه عقد البرلمان مرة ثالثة لحاجته للمال. وكانت حاجة الملك للمال دائما لا تجعله فى غنى أبداً عن البرلمان .

أصر البرلمان على عدم الموافقة على المعونة المالية ما لم يوافق الملك أولا على مطالب البرلمان فيما عرفت بملتمس الحقوق Petition of Right فاضطر الملك إلى قبولها فى عام ١٦٢٨ . وقد نص الملتمس على عدم أحقية الملك فى فرض ضرائب دون موافقة البرلمان ، وفى عدم امكان سجن أى فرد دون سبب ودون محاكمة . وأنه لا يمكن إرغام الاهالى على ايواء الجنود . وهذا

يعتبر أساس من أسس الحرية الانجليزية .

ولكن ليس معنى ذلك أن الخصومة بين الملك والبرلمان قد انتهت ، فأسس الخلاف ما زالت قائمة ، وأن قبول الملك ملتمس الحقوق لم يكن إلا تحت ضغط الظروف وحاجته إلى الأموال .

وعندما انعقد المجلس مرة أخرى لإقرار الضرائب الجديدة التى جرت العادة على فرضها عند تولية كل ملك جديد ، رفض البرلمان ذلك ما لم يعطى الملك ضمانات جديدة تتعلق بنظام الحكم . ولكن الملك لم يستجب الى رغبات البرلمان ، وسار فى سياسة التحدى إلى نهاية الشوط . فلجأ إلى الانفراد بالحكم بمساعدة وزيره توماس ونتورث T. Wentworth (الذى سيصير فيما بعد ايرل استرافورد Earl Stratford دون برلمان مده أحد عشر عاما من ١٦٢٩ - ١٦٤٠ .

أما فى الشئون الدينية فقد استعان بأحد رجاله من الأساقفة ويدعى وليام لود William Laud الذى عين رئيسا لأساقفة كانتربرى ، ومن ثم رئيسا للكنيسة الانجليكانية.

ولقد عمل الملك على إيجاد طرق للحصول على المال دون الرجوع الى البرلمان، كما حاول أيضا ضغط مصروفاته وايقاف حروبه الخارجية بالصلح مع أسبانيا وفرنسا فى عام ١٦٣٠ .

ورغم كل وسائل الضغط ظهرت حاجة الملك واضحة الى المال ، وأخذ يتحايل بمختلف السبل لجمع المال ضاربا عرض الحائط بمبادىء العهد الاعظم وملتمس الحقوق . وعندما ثار أحد الأشراف على هذه الإجراءات غير القانونية

فى جمع المال ، قدم للمحاكمة فقضت بسجنه ومصادرة ممتلكاته .

كانت فترة الحكم المطلق كافية لتعبئة الشعور للثورة ضد الملك عندما تلوح أول فرصة لذلك . وقد واتت البرلمان حينما ثار البيورتان فى اسكتلندة ضد الملك لتدخله فى شئونهم الدينية ، وصمموا على غزو انجلترا لارغامه على احترام شعائرهم وطقوسهم . واضطر الملك أن يواجه هذا الغزو غير المتوقع بقوات غير كافية لعدم توافر الأموال لديه . وأطلق على هذه الحرب اسم الحرب الأسقفية الأولى First Bishop's War (١٦٣٩) . وكانت النتيجة المنطقية لمثل تلك الحرب هزيمة قوات الملك وعقد هدنة بين الطرفين .

لم يقبل الملك تشارلز الهزيمة وصمم على خوض حرب كبيرة انقاذا لشرفه العسكرى . ونظراً لأن خوض مثل تلك الحرب يتطلب أموالا كثيرة لا تتوافر لديه ، فقد اضطر مرغما إلى دعوة البرلمان لأخذ موافقته على الأموال المطلوبة .

فانعقد البرلمان القصير The Short Parliament - إذ أن عمره لم يزد عن ثلاثة أسابيع (١٣ ابريل - ٤ مايو ١٦٤٠) - لمواجهة هذا الموقف . وقد وجد الأعضاء أن هذه فرصتهم لفرض ما يرونه من شروط . وتتلخص فى الاستجابة إلى مطالب الأمة التى نص عليها ملتمس الحقوق أولا ،وقبل أن يبت فى موضوع الإمدادات المالية المطلوبة . ونظراً لتشبث الملك بموقفه انفض البرلمان دون الموافقة على الاعتمادات المالية .

لم يحل ذلك دون قيام الحرب الأسقفية الثانية The Second Bishop's نظراً لتعطش الملك للانتقام من الاسكتلنديين ، ولم تكن نتيجة هذه الحرب بأفضل من سابقتها .

وأخيرا اضطر الملك الى دعوة البرلمان الذى سمى بالبرلمان الطويل The Long Parliament لايجاد مخرج لهذا الموقف الحرج الذى تورط فيه الملك . وفى أثناء الانعقاد ووجه استرافورد بعاصفة من الاتهامات . ورأى الملك فى ذلك الوقت أن يضحى بسترافورد وأن يقدمه كبش فداء تهدئة لثورة المجلس وكسبا لموافقته . ونتيجة لذلك تم إعدام استرافورد دون أن يتمكن الملك من انقاذه . وكذلك فعل المجلس بالمساعد الأيسر للملك رئيس أساقفة كانتربرى وليام لود.

خشى المجلس أن يحاول الملك الانتقام منه ، ولذا رأى من الحكمة أن يحيط نفسه بضمانات خاصة ، فقرر حرمان الملك من الهيئتين اللتين يستمد منها الملك سلطانه ونفوذه ، وهما الهيئة القضائية التى يطلق عليها اسم Star Chamber والهيئة الدينية المسماه بمجلس الكنيسة الأعلى . وكذلك عدم جواز حل المجلس إلا بإرادة أعضائه ، وإلغاء الضرائب التى فرضت فى غياب المجلس ودون موافقته .

لم يستمر الوئام طويلا بين الملك والمجلس ، إذ سرعان ما حاول الملك أن يستغل الانقسام الموجود بين أعضاء المجلس بشأن بعض المسائل الدينية ، بانشاء حزب جديد له من أنصار المذهب الانجليكانى . وعندما اطمأن الملك إلى قوته وقوة أتباعه قبض على بعض معارضيه من أعضاء المجلس رغم مخالفة ذلك للقوانين، نظراً لتمتعهم بالحصانة الدبلوماسية . ولكن زملاءهم فوتوا عليه فرصة الانتقام منهم ، فثارت ثائرة الملك ، وغضب الأهالى ولا سيما سكان لندن الذين أعلنوا الثورة ضده . وخشى الملك عاقبة الثورة ففر من لندن الى نوتنجهام حيث أخذ يعد جيشه لضرب الثورة .

انقسم الشعب الانجليزى إلى معسكرين : معسكر الثورة وكان يضم المناصرين

للبرلمان ، والذين أطلق عليهم اسم أصحاب الرؤوس المستديرة The Round heads . وكان هؤلاء يعتصمون فى الشرق والجنوب بما فى ذلك مدينة لندن .
أما المعسكر المضاد للثورة ، أى معسكر الملك ، فكان يضم الأشراف وأنصار الكنيسة الانجليكانية ، وهؤلاء يتمركزون فى الشمال والغرب ويطلق عليهم اسم الفرسان Cavaliers.

لم تكن الحرب فى دورها الأول فى صالح معسكر الثورة . ولم يتغير الموقف إلا حينما ظهر أوليفر كرمويل Oliver Cromwell فى معسكر الثورة فى سنة ١٦٤٤ ، فقلب ميزان القوى لصالح ذوى الرؤوس المستديرة أنصار البرلمان .

هذا بالإضافة إلى أن إتفاق البرلمان مع الاسكتلنديين جعل الجيوش الاسكتلندية تغزو إنجلترا . كذلك تجهيز كرمويل لجيش منظم حسن التدريب تدفع مرتباته بإنتظام أدى إلى إنهزام تشارلز الاول فى موقعة مرستون مور Marston Moor فى يوليو ١٦٤٤ ، وموقعة نازبى Naseby .

قبض الجيش بقيادة كرمويل علـى ناصية الحال ، ولم يأبه كثيراً لمطالب البرلمان . ولو أن الملك اتفق مع البرلمان فى ذلك الوقت لربما أنقذ الموقف .
ولكن الملك اتفق مع الاسكتلنديين على غزو إنجلترا لصالحه ، فقامت حرب داخلية ثانية ستؤدى إلى إعدامه لأن كرمويل تمكن من هزيمة جنود الملك وحلفائهم الاسكتلنديين فى برستون Preston. وبذا أصبح الجيش متفوقا لا ينازعه أحد . وقام بعملية بتطهير المجلس من المعارضين سميت بتطهير بريد Pride's Purge.
ثم قدم تشارلز إلى المحاكمة وقضت المحكمة العليا التى شكلت لهذا الغرض بإعدامه فى ٣٠ يناير سنة ١٦٤٩ .

وبعد ذلك بقليل تمت تصفية النظم الملكية ، فألغى مجلس اللوردات ، وأعلن

البرلمان إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية ، أى حكومة الكمنولث Commonwealth

حكومة الجمهورية

قامت حكومة الجمهورية أو الكمنولث ولم تكن أغلبية الشعب الانجليزى تؤيد رجال الجمهورية ، وكانت اسكتلندة وإيرلندة معارضة لهم . ولكن هؤلاء الرجال تمكنوا من القضاء على أعدائهم . ويرجع الفضل فى ذلك إلى شخصية كرمويل ودرايته بأمور الحرب والسياسية والادارة . فكان رجلا متدينا وعمليا وفى نفس الوقت يهتم بتنظيم الأمور المالية والادارية .

تمكن ذلك الرجل من القضاء على ثورة إيرلندة بكل عنف وصرامة . وبذا قامت - بشكل واضح - مشكلة إيرلندة التى لم تنته إلى اليوم .

كذلك قضى على المعارضة الاسكتلندية فى موقعة دمبر Dumber فى عام ١٦٥٠

لقد أصبح كرمويل هو الحاكم الفعلى ، ولم تكن البلاد مشتركة معه فى الحكم . ولقد طرد كرمويل البرلمان العاجز The Rump Parliament الذى حكم بالاعدام على تشارلز . وكون مجلسا واحدا للبرلمان على رأسه حامى الجمهورية Protector Lord وهو كرمويل ، ويشغل وظيفته مدى الحياة .

ولكن ذلك النظام لم يستمر إلا فى عهد كرمويل ، لأنه لم يكن يتفق ورغبة الشعب الانجليزى ، التى كانت تفضل رجوع الملكية .

لقد قام حكم كرمويل بالسيف ، وكان عليه أن يحكم بالسيف . وبالرغم من ذلك كانت الدول تعمل على كسب عطف إنجلترا ، ولقد اتفق كرمويل مع فرنسا فى عام ١٦٥٧ ضد أسبانيا ، فانتصرت فرنسا بفضل ذلك الاتفاق . وبذلك أخذ إسم إنجلترا

يعلو مرة ثانية فى القارة الأوربية .

وفى ٣ سبتمبر سنة ١٦٥٨ يموت كرمويل ويخلفه فى الحكم ابنه رتشارد Richard ولكن لم تكن له شخصية أبيه القوية فاستقال .

عودة الملكية The Restoration

رجع البرلمان القديم الذى كان يطلق عليه إسم البرلمان العاجز ، وسادت البلاد حالة من الفوضى والاضطراب ، وأنقسم الجيش على نفسه إلى فريقين : فريق يضم الجيش الاسكتلندى تحت قيادة جورج مونك G. Mok وهو من كبار قواد كرمويل ونائبه فى حكم اسكتلندة . والفريق الآخر يضم جيش إنجلترا تحت قيادة لامبرت Lambert .

ورأى مونك أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الفوضى والإنقسام هى عودة الملكية مرة ثانية . فهاجم قوات لامبرت وقبض عليه ، وأصدر أوامره بحل البرلمان . وأعلن أن على إنجلترا أن تقرر نظام الحكم فيها فى برلمان منتخب إنتخابا حرا وتم له ذلك بانتخاب البرلمان الجديد الذى كانت أغلبيته ملكية . وأعلن هذا البرلمان الجديد أن :

The Government is, and ought to be, by King, Lords and Commons .

ودعى تشارلز الثانى لاعتلاء عرش والده ، ورجع وقوبل مقابلة حماسية هائلة . وبذا صارت إنجلترا ملكية كبقية الملكيات الأوربية . وكان تشارلز الثانى يود لو إنتهجت إنجلترا السنن الفرنسى . فأصبح الملك مسيطرا على الشؤون السياسية والدينية .

ولو أن شعور الناس كان ضد سيطرة الجيش والبيوريتانيين . ولكنه لم يكن

ميالا للاستبداد الملكى فكانت الرغبة فى إسترجاع الملكية لاتقل عن الرغبة فى إعادة البرلمان إلى ما كان عليه .

أصبح الملك مواجها للبرلمان من جديد وبدأ النزاع بينهما على السلطة ،عـــلى الأمور السياسية والدينية .

ولكن أوقف ذلك النزاع عند حد عدم رغبة تشارلز الثانى فى أن يرجع إلى الهجرة مرة ثانية . ولقد كانت شخصيته وعدم إهتمامه تساعده على ذلك .

كان هناك نزاع بين الملك والبرلمان ، فالبرلمان إنجليكانى متعصب للبروتستنتية بينما كان الملك ميالا للكنيسة الكاثوليكية فى روما ، ويريد إتباع سياسة تسامح دينى .

وكانت سياسته الخارجية غير موفقة ، فلقد دخل فى حرب مع هولنده لأغراض تجارية واستعمارية . إذ اشتد التنافس بين الدولتين الهولندية والانجليزية حول جزر الهند الشرقية . ولكن الحرب لم تكن فى صالح إنجلترا ، فتمكن الأسطول الهولندى من الدخول فى مصب نهر التيمز ومهاجمة Chatham ومحاصرة لندن كذلك كانت الشكوى عالية لإنتشار الطاعون والحريق لندن مما دعا إلى أن يضحى الملك بوزيره كارندن ، ويقبل رقابة مالية من البرلمان .

ولكن دخول تشارلز الحرب فى صالح هولندة والسويد فى حرب لوقف إعتداء لوى الرابع عشر كان مرضيا عنه من الشعب الانجليزى . لأن نتيجة ذلك التحالف كانت معاهدة اكس لاشابل Aix La Chapelle .

ولكن تشدد البرلمان مع تشارلز الثانى ، وعدم تسامح الأول مع الكاثوليك وجاذبية النظام الفرنسى جعل تشارلز يفكر فى عقد اتفاق مع فرنسا يمكنه من أن يكون حاكما حقيقيا لانجلترا . ولذا عقد فى سنة ١٦٧٠ معاهدة دوفر السرية

لمساعدة فرنسا حربيا على مهاجمة هولندة فى نظير مساعدة فرنسا بالمال والرجال لجعل الملكية فى انجلترا مستقلة عن البرلمان لتفرض على الانجليز سياسة التسامح الدينى إزاء الكاثوليك .

وبذا وضع تشارلز أساس السياسة التى ستؤدى الى زوال حكم أسرة استيوارت من إنجلترا نهائيا . ولقد كتمت المعاهدة ،ولكن السر عرف فازدادت معارضة البرلمان ، فاضطر الملك إلى عقد الصلح مع هولندة فى سنة ١٦٧٤ .

توفى تشارلز فى سنة ١٦٨٥ ولم يكن له أولاد شرعيون ، وكان منظورا أن يخلفه أخوه جيمس الثانى الذى كان كاثوليكيا صريحا . كانت المعارضة أو حزب البلاد Country Party كما كان يسمى ، أو كما سمى فيما بعد بحزب الويجز Whigs قد بذلوا جهدهم فى أن يحصلوا من البرلمان على قانون الحرمان Exclusion Bill لحرمان جيمس من تولى العرش .

ولكن تشارلز عارض ذلك الاقتراح بكل ما لديه من قوة . ولذا تخلص من كل البرلمانات التى تقدم ذلك المشروع . ولقد عمل الويجز بزعامة شافتسبرى Shaftesbury على الوصول إلى غرضهم بكل وسيلة . وأصبحت انجلترا على وشك الدخول فى حرب أهلية . ولكن مركز الملك لم يتزعزع .

لقد رشح المعارضون دون منموث Monmouth وهو ابن غير شرعى للملك ، فالتجأ تشارلز إلى لوى يطلب المساعدة المالية . وقام لوى بمساعدة تشارلز ليستغنى عن البرلمان . ولذا لم يدع تشارلز البرلمان من سنة ١٦٨١ إلى موته فى ١٦٨٥ . ولكن ذلك كان سيء الأثر على مركز خصومه الذين استغلوا المؤامرة البابوية ، فهرب شافتسبرى إلى هولنده ، وأصبح وصول جيمس إلى العرش محققا .

كان إنتصار الملك على حساب السياسة الخارجية ، لأن تشارلز لم يكن ليتمكن من اللجوء إلى القوة البرية أو البحرية لتأييد أغراضه دون أن يوافق البرلمان على المال الكافى .

جيمس الثانى ١٦٨٥ - ١٦٨٨

تولى جيمس الثانى والظروف مواتية له فالأحرار ضعاف والبرلمان طيع ، ولو أن جيمس كان بعيد النظر لما حدثت ثورة ١٦٨٨ . ولكن بعد النظر والحيطة لم يكونا من طباعه . كانت سياسته ترمى إلى إتباع سياسة التسامح الدينى . ولكن البرلمان رفض التعاون معه ، وكانت النتيجة حل البرلمان .

ولم تكن هذه بآخر أخطاء ذلك الملك . ولقد كان الشعب غير مستعد لقبول مبدأ التسامح ، لا سيما وقد كان لوى قد سحب مرسوم نانت ، مما دل على أن الكاثوليكية مذهب غير متسامح . وبذا كان تعصب الكاثوليكية فى فرنسا مضرا بمركز الكاثوليكية فى انجلترا .

وزاد الحالة تحرجا فى انجلترا أن الملك ولد له ولد ، مما أوجد الظن فى أن سياسة الملك ستستمر من بعده .

ولذا إستدعى وليم أورانج من هولندة وزعيم البروتستنتيه فى أوربا لينقذ البروتستنتية والبرلمانية الانجليزية . ولقد هرب جيمس إلى فرنسا ، وأصبح وليم ملكا والثورة أمراً واقعيا مقضيا .

كانت الثورة المجيدة The Glorious Revolution سلبية قانونية ، ولم تستدع سفك دماء كثيرة ، وكانت ناجحة وحافظت على حريات الشعب الانجليزى أمام الملكية . ولذا فلا يحق للملك تقرير ضريبة ولا حبس أحد دون موافقة

البرلمان ولا يمكنه أن يسجن أحداًدون محاكمة . وكذلك وضعت سلطة البرلمان على أساس متين . ولم يكن البرلمان قد مثل الشعب الانجليزى تمثيلا حقيقيا ، كان لايزال معقلا للأرستقراطية الاقطاعية وتجار لندن. وقد اختلفت هذه عن الحالة فى فرنسا .

عهد وليم الثالث مركز فى السياسة الخارجية ، وقد أكدت الثورة الصلة ما بين إنجلترا واسكتلندة التى لازالت مستقلة ، وإنما كانت متصلة بإنجلترا عن طريق أن الحاكم فى إنجلترا هو الحاكم فى اسكتلندة ثم ينضم البرلمان الاسكتلندى إلى البرلمان الانجليزى لتكوين البرلمان البريطانى . وفى أواخر عهد وليم وضع قانون Act Settlement يحرم ذرية جيمس الثانى والكاثوليك من إرتقاء العرش قرر نقل العرش الى منتخبة هانوفر .

خلفت الملكة آن Anne الملك وليم فى ، الحكم وفى عهدها قامت حرب الوراثة الأسبانية .

ثم وصل المحافظون الى الحكم وكادوا يرجعون آل ستيورات الى العرش . ولكن الموقف أنقذ بموت آن ، والنزاع بين زعماء المحافظين . وتولى جورج الأول الحكم دون معارضة فى ١٧١٤ .

الفصل الحادى عشر

ظهور روسيا القيصرية

تشمل الأراضى الروسية مساحات واسعة من آسيا وبعض أجزاء من أوربا وقد سكنها العنصر السلافى أو الصقلبى ، واعتنق الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى أى مذهب الكنيسة الشرقية . وخضع هؤلاء للحكم الاستبدادى المطلق الذى كان يتمتع به القياصرة . أى أن الدولة الروسية ورثت فيما ورثته عن الدولة البيزنطية المذهب الدينى والسلطة المطلقة فى الحكم .

قد تعرضت روسيا لإغارات التتار فى القرن الثالث عشر ، فهاجمتها جحافل التتار تحت قيادة جنكيزخان ، وأصيب الجيش الروسى بضربة قاسمة أمام هجمات التتار عند بحر أزوف . ونتيجة لتلك الحرب أن قوى الشعور القومى الروسى ، كما ستقوى القيصرية معتمدة فى ذلك على التلويح بالخطر الخارجى ، وتتمكن من تركيز السلطة فى يديها .

وفى أواخر القرن السادس عشر تسود البلاد فترة من الفوضى والاضطراب نتيجة إنتهاء حكم الأسرة الحاكمة فيها، الى أن تمكن النبلاء فى نهاية الأمر من تشكيل مجلس منهم لإنقاذ البلاد مما تردت فيه.وقد اختاروا واحدا منهم ليكون ملكا على البلاد يدعى ميشيل رومانوف M. Romanof فى سنة ١٦١٣ ، وهو يعتبر أول مؤسس لأسرة رومانوف التى عمرت حتى قيام الثورة الروسية فى مستهل القرن العشرين .

وكانت أولى المهام التى ألقيت على عاتق ميشيل دفع الخطر المحدق ببلاده من

جانب بولندة التى كانت فى نزاع مع الروسيا بشأن أوكرانيا. وفى عهد القيصر اليكسيس Alexis خليفة القيصر ميشيل إستقر للروسيا الأمر على حدودها الغربية فقسمت أوكرانيا فيما بينها وبين بولندا . ثم بدأ بعد ذلك يفكر تفكيراً جديا فى إيجاد صلة بينه وبين دول أوربا التى تفوق بلاده حضارة وتقدما . ولكنه لم يستطيع أن يحقق ذلك.

ويستمر هذا الوضع إلى أن يعتلى العرش بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥) الذى كان يمثل العنصرية الروسية بأجلى معانيها ، كما كان لوى الرابع عشر يمثـل فرنسا أصدق تمثيل .

كانت روسيا دولة متأخرة سياسيا واقتصاديا ،وكانت تعتبر فى شبه عزلة عن الدول الأوربية المتحضرة ، فهى بحكم موقعها الجغرافى تحوطها دول متأخرة، ففى الجنوب توجد شعوب أواسط آسيا وإيران . وكذلك تتصل بدول البحر المتوسط عن طريق البحر الأسود ومنطقة المضايق التى تشرف عليها الدولة العثمانية . وفى غرب الروسيا توجد بولندة وهى أيضا دولة متأخرة شأنها فى ذلك شأن الدول الأخرى التى أشرنا إليهـا . فاتصال القيصرية الروسية بهذه الدول لايساعد على تقدمها وإزدهارها . وقد فطن لهذا الأمر القيصر بطرس الأكبر ، وأيقن بأن بلاده لن تستطيع مسايرة تقدم دول غرب أوربا إذا لم تأخذ بنظمها فى النواحى الثقافية والصناعية والتجارية بما يتلاءم مع طبيعة الحياة فى الروسيا.

ولإيمانه القوى بضرورة الأخذ عن النظم الغربية لدفع بلاده قدما نحو الأمام، فقد طاف بمختلف دول أوربا مثل انجلترا وهولندة وألمانيا والنمسا فى عامى ١٦٩٧و١٦٩٨، وذلك لتفقد نظم تلك الدول لإقتباس أصلحها للشعب الروسى.

وكان هذا الاتجاه الاصلاحى من جانب القيصر بطرس يقابل بمعارضة

شديدة من قبل النبلاء ورجال الدين والميليشيا الوطنية (سترلتزى) . وقد انتهزت الميليشيا فرصة غياب القيصر عن البلاد فى زيارته لدول أوربا وقامت بالثورة . وقد أدرك بطرس بعد عودته مسرعا إلى موسكو أنه لابد من اتخاذ منتهى الشدة والعنف فى تأديب الثوار ليقضى على معارضة كل القوى الأخرى ، فأعدم نحو ألف من المتمردين فى قسوة ووحشية .

وسيأخذ القيصر الروسى عن الغرب الكثير من نظمه وعاداته وتقاليده . وحاول أن يتخير من الدول الاوربية أحسن ما فيها من نظم، وأن يقتبس منها أرقى ما وصلت اليه صناعتها، فاستعان بالألمان للتنظيم الإدارى، والنمساويين لإعادة تشكيل وتنظيم الجيش الروسى ، وبالهولنديين لإقامة صناعة السفن على أساس فنى جديد . ولم يدخر القيصر الروسى وسعا فى الاستعانة بمختلف الخبراء والفنيين من سائر الأجناس لرفع شأن الصناعة والتجارة والعمل على رفع مستوى الحياة فى الروسيا .

وحاول القيصر الروسى أن يخطو بروسيا طفرة واحدة فى طريق التقدم للحاق بالدول الأوربية التى سبقتها إلى هذا الميدان ، واستخدم فى سبيل الوصول إلى غايته كل وسائل الشدة والعنف . ولم يلجأ إلى معالجة هذا التأخر عن طريق تعليم الشعب ونشر التعليم بفتح أكبر عدد من المدارس ، بل كان كل همه الوصول إلى نتائج سريعة ، وذلك عن طريق الاهتمام بالناحية المادية من إقامة المصانع والمؤسسات دون الإنتظار إلى خلق طبقة مثقفة تتولى بنفسها إدارة تلك المصانع والمؤسسات .

وقد وجد بطرس الأكبر أن الطريق الطبيعى للاتصال بالغرب هو طريق بحر البلطيق . وأن هذا الطريق مغلق فى وجه الروسيا لسيطرة السويد على المناطق

الممتده على سواحله . فكان لابد إذا من الدخول فى صراع مع تلك الدولة لبسط سيطرتها على تلك المنافذ المطلة على دول أوربا ، فدخل فى حرب (١٧٠٠ — ١٧٢١) معها بعد أن تحالف مع بولندا والدنمرك . ولكن تلك الحرب كانت فى غير صالح الروسيا فى أول الأمر، إذ إستطاع شارل الثانى ملك السويد أن يهزم الروسيا وحلفائها منفردين ، فتمكن من إنزال الهزيمة بالجيش الروسى فى موقعة (نارفا) .

وقد أغرى هذا الانتصار الملك شارل على التقدم داخل الاراضى الروسية للقضاء على قوتها الحربية . ولكن الروس نجحوا فى إستدراجه داخل الاراضى الروسية حيث ألحقوا به هزيمة فادحة فى معركة بلطاوة Poltava عام ١٧٠٩ . وبذلك تتحقق أمانى بطرس الأكبر فى القضاء على قوة السويد والاستيلاء على ولايات بحر البلطيق بمقتضى معاهدة نيستاد... Nystadt فى سنة ١٧٢١ ، فيما عدا فنلندا .

ومنذ ذلك الوقت زالت العوائق التى كانت تعترض الروسيا فى الاتصال بدول غرب أوربا . وتوطيداً لهذه العلاقة الجديدة أنشأ مدينة سان بطرسبرج (هى التى سميت فيما بعد مدينة لنين جراد بعد الثورة البلشفية) لتكون همزة الوصل بين العالم الغربى وبين مختلف أجزاء الروسيا . أى أنه حاول صبغ تلك المدينة الجديدة بالصبغة الغربية فى كل مظاهرها وعاداتها لتكون مركزإشعاع تنبع منه تيارات الحضارة الغربية إلى سائر أنحاء الروسيا . وقد نجح فى ذلك إلى حد بعيد ، فالروسيا منذ أن وجهها بطرس الأكبر نحو الغرب ما زالت تتجه اليه حتى يومنا هذا ، بل إنها تعتبر نفسها دولة أوربية أكثر منها دولة أسيوية . وزاد اهتمامها بالمشاكل الأوربية زيادة كبيرة . وسنجد أن نظرة العالم الغربى

إلى الروسيا ستختلف من حين لآخر ، فاذا كان على علاقة ودية بها إعتبرها دولة غربية وثقافتها ثقافة غربية راقية . أما إذا كان علاقته بها غير ودية اعتبر هادولة شرقية متأخرة ، وثقافتها شرقية منحطة.

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن بطرس الأكبر لم يجد الطريق أمامه ممهدا فى محاولاته الاقتباس عن النظم الغربية ، بل عارضته الطبقة الرجعية المحافظة ، كما عارضته الأسرة المالكة نفسها . ولكن عزيمته لم تهن أمام تلك العقبات ، فسار على سياسة الشدة والعنف لإدخال تلك النظم الغربية إلى بلاده ، بحيث أنه عندما وجد معارضة من الكنيسة الروسية لم يقف مكتوف اليدين ، فأدخل بعض التعديلات على نظم الكنيسة بحيث أصبحت تدار شئونها عن طريق أحد اتباعه الذى عينه رئيسا للمجلس الدينى بعد أن عزل البطريرك والغى منصبه .أى أن بطرس الأكبر قد نجح إلى حد كبير فى تركيز السلطتين الدينية والزمنية فى يديه. ومع أن هذا النظام قد أفاد الروسيا فى عهد قياصرتها الأقوياء، إلاأن ضعف هؤلاء قد أضعف أجهزة الدولة الأخرى فلم تجد الدولة فيها بديلا عن سلطة القيصرية المنهارة .

كان بطرس الأكبر يخشى على مجهوداته الاصلاحية أن تصاب بنكسة بعد وفاته ، لا سيما وأن المعارضة كانت قوية ، ولكنها تخشى الظهور لقوة بطرس وبطشه . هذا بالإضافة إلى أن إبنه اليكسيس Alexis ولى العهد ، كان لا يرى وجهة نظر أبيه فى الاقتباس من النظم الغربية . وكان يميل بطبعه إلى رجال الدين والنبلاء الساخطين على سياسة والده . ولما كان بطرس لا يرجو من وراء إبنه خيراً على مستقبل النظم الجديدة ، أمر بقتله فى عام ١٧١٨ . وهذه الحادثة تدل على قسوة بطرس الأكبر ووحشيته، وتصميمه على تنفيذ سياسته بمختلف السبل.

سادت الروسيا فترة من الاضطراب والفوضى عقب وفاة بطرس فى عام ١٧٢٥ ، استمرت إلى عام ١٧٦٢ . وفى خلالها تبوأت كاترين الاولى زوجة القيصر بطرس العرش ، وحاولت جاهدة أن تسير على سياسته رغم المشاكل والعقبات التى إعترضت طريقها . لا سيما وأن زوال بطرس الأكبر من على مسرح الأحداث فى الروسيا قد أوجد فراغا كبيراً لم تستطع كاترين أن تملأه .

وفى عهد كاترين الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) سارت الروسيا على نفس السياسة التى أستنها بطرس الأكبر من قبل ، وهى سياسة الاتصال بأوربا والاهتمام بالمشاكل الاوربية بما يحقق المصالح الروسية ، فدخلت فى تحالف عسكرى مع النمسا وبروسيا بشأن تقسيم بولندة، ونجحت بذلك فى إقتطاع أجزاء واسعة منها. وكذلك دخلت الروسيا فى حربين كبيرتين مع الدولة العثمانية تمكنت فى خلالهما من سيطرتها على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود ، وكذلك شبه جزيرة القرم . أما من الناحية الداخلية فقد أخذت كاترين الثانية فى تكملة السياسة التى بدأها بطرس الأكبر وهى الاقتباس عن الغرب من ناحية المظهر فقط لا من ناحية الجوهر . فظلت الروسيا تهتم بانشاء المصانع وبالاصلاحات المادية دون الاهتمام بتغيير النظم الاجتماعية أو العمل على رفع الغبن عن كاهل الطبقات الكادحة .

فنجد كاترين تهتم اهتماما كبيرا بحركة الاستنارة Enlightenment التى سادت أوربا فى ذلك الوقت ، والتى كان من أعلامها فولتير Voltaire وديدرو Diderot . ولكن هذا الاهتمام لم يتعد الأسرة الحاكمة ، أى أن أثره لم يصل إلى الطبقات الدنيا التى كانت فى أشد الحاجة إلى الإصلاح .

وقد ارتبطت سياسة روسيا الخارجية إلى حد كبير بموقع بولندا الجغرافى وبوضعها السياسى . فهى بحكم هذا الموقع توجد بين دول قوية تريد كل منها أن

تسيطر على أجزائها . أما عن البولنديين أنفسهم فهم من العنصر الصقلبى ويدينون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى ، أى أنهم يدينون بالتبعية الروحية للكنيسة الرومانية ، بعكس الحال بالنسبة للروسيا التى اعتنقت المذهب الأرثوذكسى وتدين بالتبعية الروحية للكنيسة الشرقية .

وقد عرفت بولندة النظام الملكى منذ أمد بعيد ، ولكنها كانت ملكية ضعيفة لم تستطع السيطرة على مقاليد الحكم لمقاومة أمراء الاقطاع فى تركيز السلطة فى يـــد الملكية .

ومن الظواهر الغريبة فى نظم الحكم أن الشعب البولندى كان يفضل حكم أمراء الإقطاع على حكم الملكية القوى . بعكس الحال بالنسبة لسائر دول أوربا التى فضلت شعوبها الإلتفاف حول الملكية لتقويتها ولإضعاف نفوذ أمراء الإقطاع. وإستطاعت بولنده أن تسيطر بعض الوقت على سواحل بحر البلطيق بعد هزيمة الفرسان التيوتون فى القرن الخامس عشر الميلادى .

أما من الناحية السياسية ، فنتيجة لضعف الملكية البولندية أن أنعدم التماسك والترابط بين أجزاء تلك الدولة، وساعد ذلك بطبيعة الحال على سقوطها ومحوها من الخريطة الاوربية عدة مرات . وكما سبق أن ذكرت من قبل أن موقع هذه الدولة بين ثلاث دول كبرى هى الروسيا والنمسا وبروسيا قد أضر بها ، نظرا لأن أراضيها كانت تتكون من سهول منبسطة ، تكون فى حقيقة الامر إمتـــدادا للسهول الروسية والألمانية، فعدم وجود حدود طبيعية كالجبال والأنهار قد سببت فى ضياعها عدة مرات فى تاريخها الوسيط والحديث .

فمثلا حدث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر نزاع بين الروسيا والنمسا، وخشيت بروسيا أن يؤدى هذا النزاع إلى تدخلها الحربى مرغمة ، فاقترحت عـلى

الدولتين المتنازعتين أن تشترك الدول الثلاث فى تقسيم بولندا فيما بينها فضا للنزاع، وقبل الطرفان المتنازعان هذه التسوية وقسمت بولندا بين الدول الثلاث وفـــق معاهدة وقعت لهذا الغرض فى سنة ١٧٧٢ .

فأخـــذت بروسيا منطقة غرب بروسيا ، والنمسا ضمت منطقة غاليسيا ، والروسيا اقتطعت منطقة روسيا البيضاء . أى الأراضى الواقعة شرق نهرى الدوينا والدنيبر الأعلى .

كذلك تعرضت تلك الدولة مرة أخرى للتفكك نتيجة لطمع بعض الدول المجاورة فى إستقطاع بعض الأجزاء الهامة منها . وفى عهد نابليون يقضى عليها كدولة لها كيان سياسى . ثم يعيدها نابليون مرة أخرى تحت إسم ولاية وارسو، وبعـــد هزيمته يقرر الحلفاء فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ إرجاع الحقوق الشرعية لأصحابها . أى بمعنى آخر عودة الحدود السياسية لدول أوربا إلى ما كانت عليه قبل حروب نابليون مع بعض تعديلات طفيفة . ولكن تلك الدول الأوربية قد استثنت بولندا من هذا المبدأ ، فقررت تقسيمها بين دول متعددة .وكان للروسيا النصيب الأكبر منها ، على أن تتعهد بإدخال التعديلات الضرورية عليه .

وستقوم المنطقة البولندية بالثورة على الحكم الروسى ، ولم تستطع إنجلـترا أو فرنسا التوسط فى هذا النزاع بالطرق الودية ، أو أن تحول بين الروسيا وبين إخمادها لتلك الثورة بقوة الحديد والنار ، وذلك لاعتماد الروسيا عـلى مؤازرة بروسيا ؛ وبذلك تتمكن الروسيا من إخمـــاد ثورة بمنتهى الشدة والعنف فى عام ١٨٦٢ .

وبعد أن حلت كاترين مشكلة بولندة أخذت توجه نشاطها صوب الدولة العثمانية ، ولاسيما على سواحل البحر الأسود الذى كان يعتبر بحيرة عثمانية ،

فنجحت فى الحرب التى استمرت من عام ١٧٦٨ إلى ١٧٧٤ فى أجلاء العثمانيين عن شمال البحر الأسود وإنتزاع شبه جزيرة القرم وبحر أزوف من أيديهم .

ولكن أطماع الروسيا لم تقف عند هذا الحد ، فشنت حربا أخرى على الدولة العثمانية فى سنة ١٧٨٧ ، امتدت الى سنة ١٧٩٢ . وكان من نتيجتها نجاح الروس فى الاندفاع نحو الغرب على طول ساحل البحر الأسود حتى نهر الدنيستر .

وبهذا النجاح الذى أحرزته الروسيا على أيدى بطرس الأكبر وكاترين الثانية استطاعت أن تصبح إحدى القوى الدولية الكبرى فى المجتمع الأوربى عند وفاة القيصرة كاترين الثانية فى أواخر القرن الثامن عشر .

الفصل الثانى عشر

نشأة بروسيا ونموها

تتكون بروسيا أساسا من مقاطعة براندنبرج Brandenburg التى كانت تقع بين نهر الميز Meuse ونهر الألب E . ثم أخذت فى التوسع نحو الشرق فضمت الأراضى الواقعة بين نهرى الالب والاودر، بل تجاوزتها الى نهر الفستولا. وبهذا التوسع أصبحت براندنبرج إحدى المنتخبات الكبرى فى المانيا التى سيقع على كاهلها القيام بدور هام فى مستقبل المانيا السياسى .

تعرضت منتخبة براندنبرج للاضطراب والفوضى خلال القرن الرابع عشر ، نتيجة للصراع الذى نشب بين الطامعين فى الحكم ،ولم ينته إلا بتدخل الامبراطور سيجسموند Sigismund وتعيينه أحد النبلاء الألمان ويدعى فردريك هوهنزلرن Frederick Hohenzollern منتخبا لها فى عام ١٤١٥ . وقد إستطاع فردريك أن يقيم أسرة حاكمة فى المانيا عمرت حوالى خمسمائة عام ، تطورت فى عهدهم منتخبة براندنبرج إلى ملكية بروسية، ثم إلى إمبراطورية فى نهاية الأمر بعد قيام الوحدة الالمانية فى السبعينات من القرن التاسع عشر .

وجه فردريك عنايته قبل تولية الحكم مباشرة إلى تنظيم شئون الدوقية والعمل على تشجيع التجارة والقضاء على العوائق التى تعترض تقدمها ، وأهمها سلطة الفرسان الالمان وتعسفهم مع التجار . ونجح إلى حد كبير فى إيجاد نوع من الحكم المستقر . وسار على هدية إبنه فردريك الثانى من بعده .

أما عن دوقية بروسيا التى انضمت إلى براندنبرج فيما بعد فكانت تقع على ساحل البحر البلطى شرقى نهر الفستولا . وكانت تخضع لحكم الفرسان التيوتون Teutonic Knights منذ القرن الثالث عشر . وفى خلال حركة مارتن لوثر إعتنق حاكم بروسيا الشرقية الدوق ألبرت ، وهو أحد أفراد أسرة الهوهنزلرن الحاكمة فى براندنبرج ، المذهب اللوثرى . وعندما توفى ألبرت فى عام ١٦١٨ دون وريث له ، انتقلت دوقيته إلى أسرة الهوهنزلرن فى براندنبرج . وبذلك اتسعت مساحة الارض الخاضعة لحكم تلك الأسرة .

وعندما قامت حرب الثلاثين عاما دار الصراع حولها من كل جانب ، وتعرضت لضغط شديد من قبل الدول الأوربية المحاربة ، لا سيما من قبل النمسا والسويد ، ولكنها لم تقم بعمل ايجابى فى عهد حكم جورج وليم .

فردريك وليم (١٦٤٠ - ١٦٨٨)

تعتبر فترة حكم فردريك وليم من أهم الفترات فى تاريخ « براندنبرج بروسيا » ، فهى إلى جانب تميزها بالطول ـ اذ بلغت قرابة نصف قرن (١٦٤٠-١٦٨٨) ـ تميزت كذلك بالأعمال العظيمة التى تمت فيها . وإذا كان سلفه لم يستطع أن يلعب دوراً رئيسيا فى الداخل أو الخارج ، فإن فردريك قد عول تجنيب بلاده ويلات الحرب ، وذلك بالعمل على الانسحاب التدريجى منها ، والوقوف على الحياد من هذا الصراع الدينى الرهيب . فى نفس الوقت عمل على إيجاد جيش قوى يكون أداته فى تحقيق ما يريد .

وفى صلح وستفاليا (١٦٤٨) تمكن فردريك وليم أو الناخب الأعظم Great Elector كما كان يسمى من الحصول على أربع أسقفيات هى : مجدبرج

Magdeburg ومندن Minden وهلبرشتاد Holberstadt وكامن Comnin، بالإضافة إلى الجزء الشرقى من دوقية بوميرانيا Pomerania .

سياسة فردريك الداخلية

أولا : لم يكن فردريك وليم مطلق اليد فى أن يفعل ما يشاء داخل حدود دولته الواسعة ، فكانت هناك عقبات تقف فى طريقه أهمها سلطة النبلاء ومجالس المقاطعات الثلاث ، لا سيما وأن من حق تلك المجالس فرض الضرائب وتقرير أوجه صرفها . ولما كان فردريك شديد الرغبة فى إنشاء جيش قوى ، ولما كان هذا العمل يتطلب أموالا وفيرة يجب موافقة تلك المجالس عليها قبل إقرارها ، ولما كانت المجالس تعارض فى زيادة الضرائب أو فى عقد قروض أخرى جديدة ، فقد صمم فردريك على التخلص من سيطرتها عن طريق تركيز السلطة فى يدية سواء منها ما يتعلق بالإدارة أو الضرائب . أى انه قد تشبه بلوى الرابع عشر ملك فرنسا فى القضاء على سلطة أمراء الاقطاع ، والانفراد بالحكم .

ثانيا : لم تكن المقاطعات الثلاث هى على هذا النحو من الانفصال تكون دولة قوية ، ولذا كان هم فردريك العمل على توحيد هذه المقاطعات فى وحدة واحدة ليسهل عليه إدارتها وبسط سلطانه الكامل عليها .

ثالثا : لما كانت حرب الثلاثين عاما قد أضرت بالبلاد من النواحى الاقتصادية، فقد بذل فردريك جهوداً كبيرة فى سبيل النهوض بالصناعة والزراعة ، فقام بشق الطرق وحفر القنوات تسهيلا لنقل المصنوعات ، كما قام بإستصلاح الكثير من الأراضى الزراعية القابلة الزراعة .

رابعا : أما فيما يتعلق بسياسته الدينية فقد ناصر البروتستنتية داخل

بلاده وخارجها ، فعندما قام لوى الربع عشر باضطهاد الهجونوت وألغى مرسوم نانت Edict of Nantes فى سنة ١٦٨٥ ، أخذ عدد كبير من الهجونوت يلجأون إلى الإمارات الألمانية ، فرحب فردريك بمن لجأ اليه منهم . وقد أفادوا البلاد فى تقدمها الصناعى والتجارى ، خصوصا وأن معظمهم كان من ذوى الخبرة فى مختلف الحرف.

خامسا : أما عن سياسته العسكرية ، فقد كان شديد الحرص على إيجاد جيش قوى منظم يحمى دولته المتباعدة الاجزاء ، ولا سيما وأنها كانت مهددة من قبل السويد . ولما كان فردريك يعلم مدى قوة السويد الحربية ، فقد حاول الإنضمام إلى أعدائها للقضاء على قوتها . ولذا عندما قامت الحرب بين السويد وبولندة بشأن مسائل الحدود فى سنة ١٦٥٥ رأى أن يستغل الموقف لصالحه ، فاشترك فى هذه الحرب ، وتمكن فى صلح أوليفا Peace of Oliva عام ١٦٦٠ أن يبسط سلطانه كاملا على بروسيا الشرقية .

على أن أطماع فردريك لم تقف عند هذا الحدد ، فعندما نشبت الحروب الهولندية فى سنة ١٦٧٢ وتعرضت هولندا لخطر الغزو الفرنسى فى عهد لوى الرابع عشر ، وانضمت اليه السويد ، وقف فردريك وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبعض الإمارات الالمانية فى الجانب المعادى لفرنسا والسويد. واستطاعت قوات فردريك بمساعدة قوات الإمارات الألمانية الأخرى أن تهزم جيش السويد فى موقعة فربلين Fehrbellin فى يونيه عام ١٦٧٥. ثم تتبع قوات السويد فى بوميرانيا وانتصر عليها . ولكن لوى الرابع عشر ملك فرنسا قد حرمه من ثمرة انتصاراته عندما وضع حداً للحرب الهولندية عام ١٦٧٨ ، وتفرغ لمساعدة حليفته السويد .

الملكية البروسية

خلف فردريك الثالث أباه فردريك وليم بعد وفاته فى عام ١٦٨٨ ، ولكن لم تكن له شجاعة والده ولا قدرته ولا قوة تحمله . وقد حاول أن يحصل من الامبراطور ليوبولد إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة على لقب ملك بروسيا ، ولكنه رفض .

وعندما بدأت نذر حرب الوراثة الاسبانية تهدد العلاقة بين الامبراطور ولوى الرابع عشر ، أخذ الامبراطور يتطلع إلى معونة فردريك فى حالة نشوب الحرب . وكان لابد للحصول على تلك المساعدة أن يستجيب الامبراطور لمطالب فردريك ، فيوافق على منحه لقب ملك . وتم ذلك فى ١٨ يناير سنة ١٧٠١ عندما توج ملكا على بروسيا باسم فردريك الاول .

فردريك وليم الاول (١٧١٣ — ١٧٤٠)

وجه فردريك وليم نشاطه بعد توليه الحكم إلى خلق الدولة البروسية الحديثة القوية ، ووجد أن خير وسيلة للوصول إلى هذا الغرض هى إيجاد جيش قوى منظم وإدارة قوية حازمة . واستطاع فردريك أن ينشىء جيشا قوامه ثمانين ألف جندى ، وهو عدد كبير لا تملكه فى هذا الوقت إلا دولة كبرى . وقد درب هذا الجيش أحسن تدريب وأعد أحسن إعداد وأشرف عليه فئة ممتازة من خيرة الضباط المثقفين الذين يتمتعون بكفاية عسكرية عالية .

أما من الناحية الإدارية فقد بذل فردريك عناية كبيرة فى تنظيمها تنظيما دقيقا حتى تستطيع أن تواجه ظروف بروسيا الجديدة وتطورها ونموها .

وفى عهده استطاعت بروسيا أن تقتطع غرب بوميرانيا من السويد بمقتضى

معاهدة عام ١٧٢٠ ، وبذلك استطاعت بروسيا ان تمتد على ساحل البحر البلطى بعد ان قضت على قوة جارتها السويد .

فردريك الثانى أو العظيم

تولى الحكم بعد وفاة والده فى عام ١٧٤٠ ، وقد سار عـــلى سياسة والده فى الاهتمام الشديد بالدقة والنظام والميل إلى الحكم الاوتوقراطى .

واجه فردريك الثانى الأزمة التى نشبت بشأن وراثة العرش النمسوى . فقد حدث أن شارل السادس الامبراطور النمسوى كان آخر الأفراد الذكور فى أسرة الهابسبرج ، وخشى أن يموت دون تحديد وريث للعرش ، ولذلك أوصى قبل وفاته فيما يسمى بالقرار الامبراطورى Pragmatic Sanction بوراثة العرش لأخته الكبرى ماريا تريزا ، وأخذ موافقة الدول الاوربية على ذلك .

ولكن ما أن مات شارل إلا وظهرت أطماع دول أوربا فى ممتلكات الامبراطورية. وكان فردريك يدعى أحقيته فى ملكية إقليم سيليزيا ، وعزز هذا الإدعاء بهجوم عسكرى عليه . وتكون فى ذلك الوقت حلف من الدول الطامعة يضم فرنسا واسبانيا وبافاريا وسكسونيا ضد النمسا. وأخذت قوات الحلف تهاجمها من ناحية وقوات بروسيا من الناحية الاخرى ، وأمام هذا التكتل المفاجىء هزمت قوات بروسيا فى موقعة هولوتز Hollwitz فى إبريل عام ١٧٤٠ ، إحتل بمقتضاهـــا سيليزيا .

ولما كانت ماريا تريزا تعلم أنها لن تستطيع مواجهة قوات أعدائهـا مجتمعة ، فقد رأت أن من الحكمة ملاقاة كل منهم على حده . فأقدمت على عقد صلح برسلاو Breslau مع بروسيا أقوى تلك الأعـــداء فى سنة ١٧٤٢ إستولت بمقتضاه

على سيليزيا .

ثم أخذت بعد ذلك تستميل إنجلترا وهولنده الى جانبها ، لاسيما وأن الدولتين قد خشيتا من تفوق أعداء النمسا عليها فيختل بذلك التوازن الدولى فى أوربا انضمت الدولتان الى النمسا، فانقلبت هزائمها الى انتصارات أفزعت فردريك ملك بروسيا الذى أعلن الحرب على ماريا تريزا من جديد فى عام ١٧٤٤ وسميت بالحرب السيليزية الثانية. وكان من نتيجة هذا العمل انهزام الجيش النمسوى فى موقعة هوهنفريدبرج Hohenfriedberg فى عام ١٧٤٥ تأكـــد فيه المرة الثانية امتلاك بروسيا لإقليم سيليزيا .

ثم سارت الحرب بعد ذلك فى غير صالح أعداء النمسا ،وذلك بفضل معاونة انجلترا وهولندة ، وانتهت بتوقيع معاهـــدة إكس لاشابل أو آخن Aix-la-Chapelle أو Aechen فى سنة ١٧٤٨ التى اعترفت بوراثة ماريا تريزا لعرش النمسا .

حدث فى ذلك الوقت تغير خطير فى الدبلوماسية الأوربية أطلق عليه فى ذلك الوقت ، الثورة الدبلوماسية ، فاتجهت النمسا إلى محالفة عدوتها فرنسا ونظرا لأن التنافس الإستعمارى بين فرنسا وإنجلترا كان على أشده وقتئذ ، فقد لجأت إنجلترا إلى محالفة بروسيا ضد النمسا وفرنسا والروسيا والسويد وسكسونيا .أصبح موقف فردريك حرجا نتيجة إحاطته بحلف من أعداء عديدين،فبذل جهوداً كبيرة حتى إستطاع أن يوقف زحفهم على ممتلكاته ، ولكنه لم يكن بمقدوره أن يخوض حربا طويلة الأجل ضد حلفاء يفوقونه عددا وعدة .

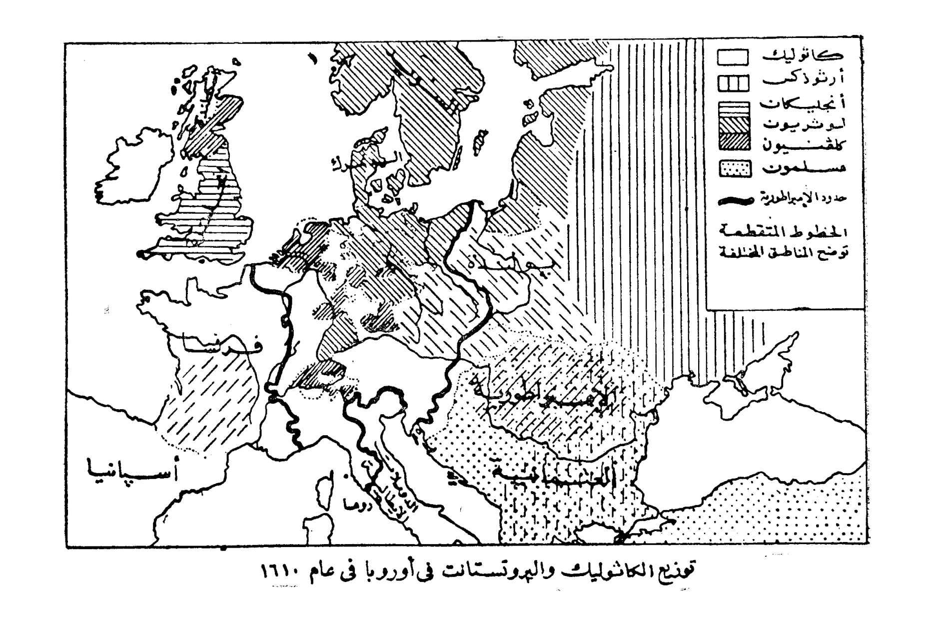
وفى سنة ١٧٦٠ وقعت انجلترا معاهدة صلح منفردة مع فرنسا تاركة فردريك وحده يواجه أعدائه . ولكن من حسن حظ فردريك أن الروسيا انسحبت من الحرب بعد وصول القيصرة كاترين الثانية الى العرش . ثم تبعتها فرنسا ،

فوجدت النمسا نفسها وجها لوجه أمام بروسيا ، فقبلت توقيع صلح هوبرتسبرج Hubertsburg فى فبراير سنة ١٧٦٣ اعترفت فيه للمرة الثالثة باستيلاء بروسيا على سيليزيا .

وبانتهاء فترة الحروب يتفرغ فردريك الى الإصلاحات الداخلية التى كانت تعتمد أساسا على أسلوبه فى الحكم هذا الاسلوب الذى يعتمد على الاستبداد فى السلطة مع العناية بالإصلاح والبناء والتنمية . فهذا النوع من الحكم هو ما سمى بالإستبدادية المستنيرة Benevolent despotism .

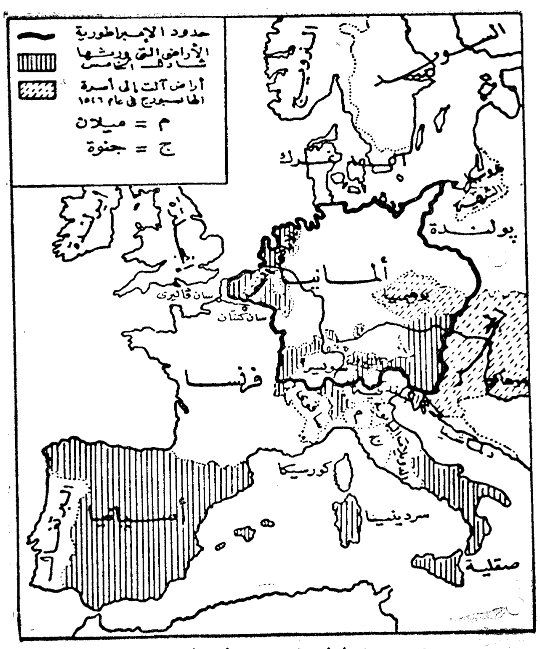
عمل فردريك على تشجيع العلوم والفنون وعمل على اصلاح الانظمة الاجتماعية والاقتصادية مترسما الآراء الحرة التى سادت فى أوربا نتيجة لحركة الاستنارة . وبهذا الأسلوب فى الحكم أصبحت بروسيا مثال الملكية المستبدة المستنيرة الذى تحتذيه دول أوربا .

وفى سنة ١٧٨٦ مات فردريك الثانى بعد أن خلف وراءه دولة قوية ستلعب دورا هاما فى حياه الشعب الألمانى ، وستنازع الامبراطورية النمساوية حول زعامة ألمانيا إلى ان يكتب لها النجاح فى سنة ١٨٧٠ حيث تقوم الوحدة الالمانية على اكتافها .

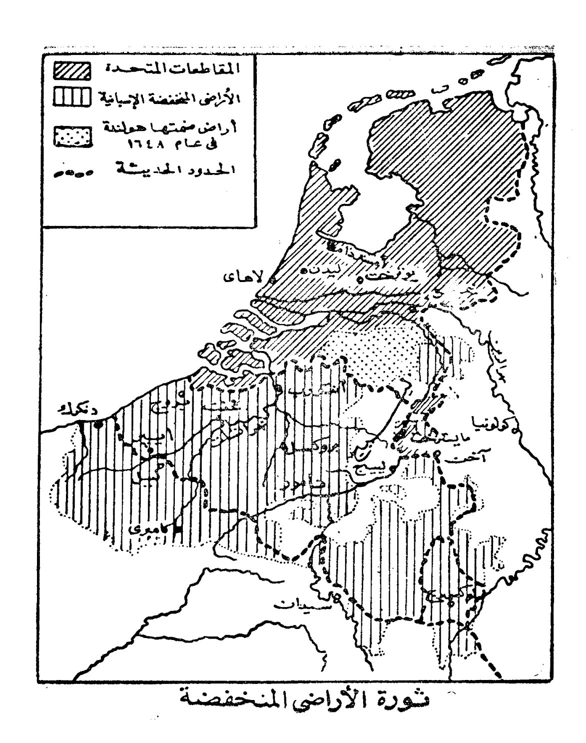


توزيع الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا في عام ١٦١٠

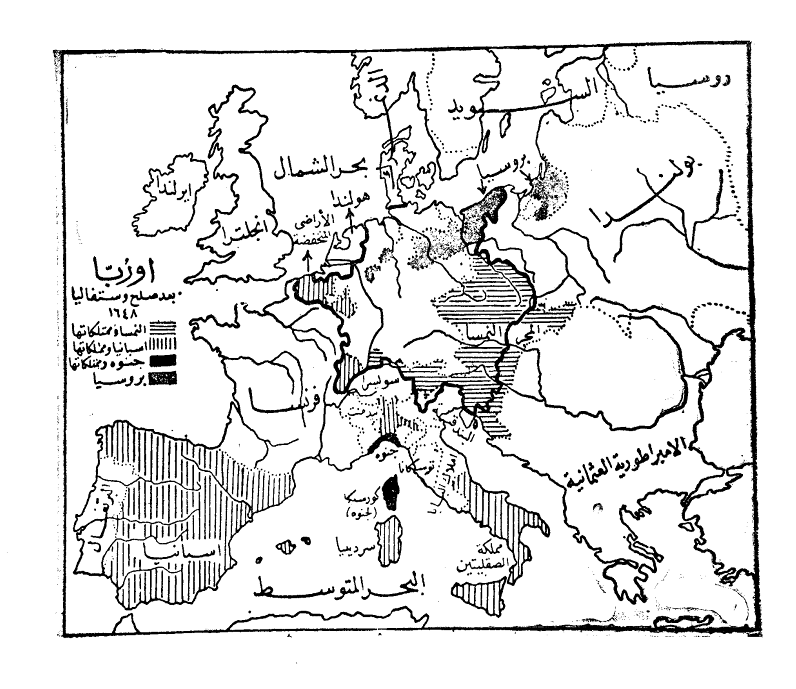




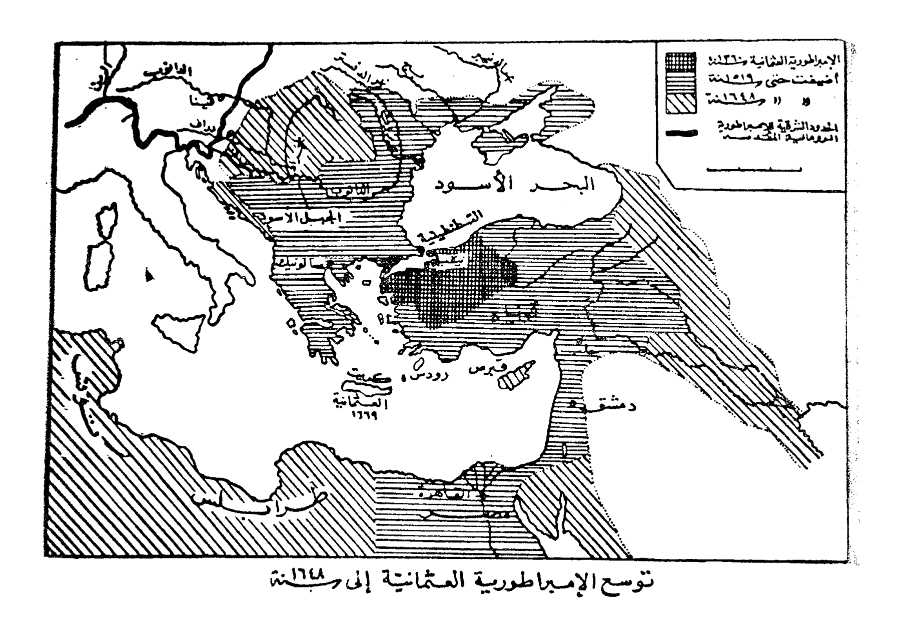
إمبراطورية شارل الخامس في عام ١٥٢٥



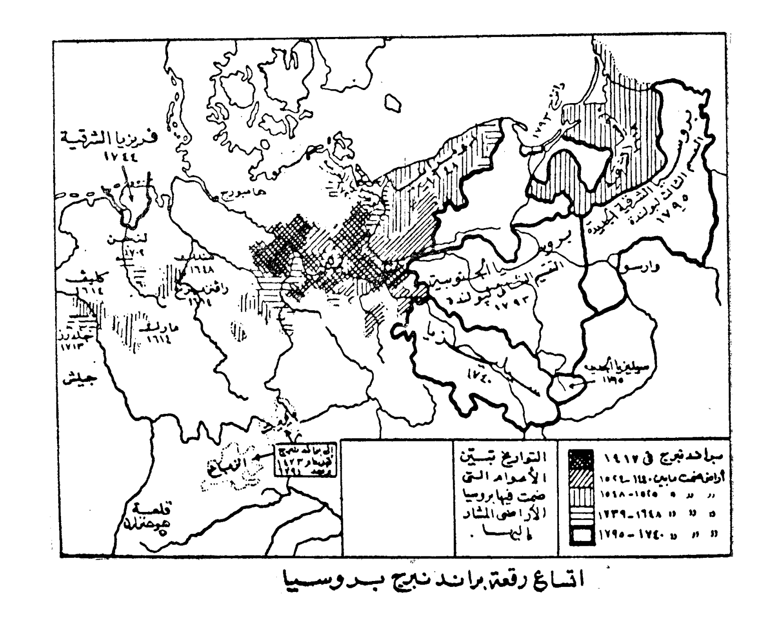
ثورة الأراضى المنخفضة



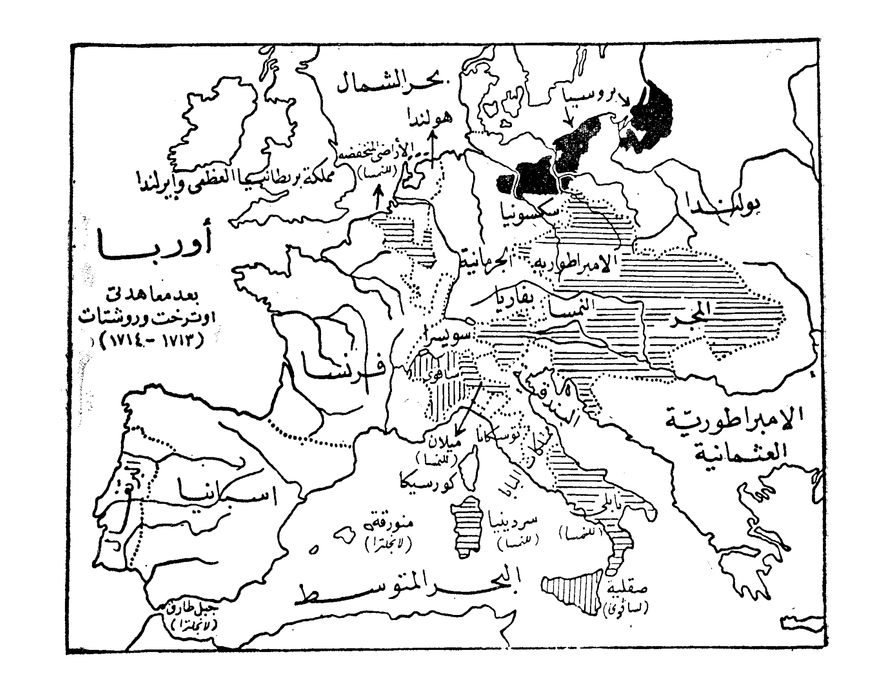
اوربا
بعد صلح وستفاليا
١٦٤٨
النمسا وممتلكاتها
اسبانيا وممتلكاتها
جنوه وممتلكاتها
بروسيا
ايرلندا
انجلترا
بحر الشمال
هولندا
الأراضي المنخفضة
السويد
روسيا
بروسيا
بولندا
النمسا
سويسرا
فرنسا
اسبانيا
البندقية
جنوه
توسكانا
كورسيكا
(جنوه)
سرديبيا
مملكة الصقليتين
البحر المتوسط
الامبراطورية العثمانية



توسع الإمبراطورية العثمانية إلى سنة ١٦٤٨



اتساع رقعة براندنبرج بروسيا



أوربا
بعد معاهدتي
اوترخت وروشتات
(١٧١٣ - ١٧١٤)
بحر الشمال
مملكة بريطانيا العظمى وايرلندا
هولندا
الأراضي المنخفضة
(للنمسا)
بروسيا
سكسونيا
بولندا
الامبراطورية الجرمانية
بفاريا
النمسا
المجر
سويسرا
فرنسا
اسبانيا
ميلان
(للنمسا)
توسكانا
كورسيكا
سردينيا
(للنمسا)
نابلي
(للنمسا)
منورقة
(لانجلترا)
صقلية
(لسافوى)
البحر المتوسط
جبل طارق
(لانجلترا)
الامبراطورية
العثمانية

المراجع العربية

حسن عثمان : سافو نارولا الراهب الثائر

سدنى دارك : النهضة الاوربية. ترجمة محمد بدران. القاهرة ١٩٤١

فشر ، هربرت : أصول التاريخ الأوربى الحديث . ترجمة د. زينب عصمت راشد، د احمد عبد الرحيم مصطفى . القاهرة ١٩٦٢.

د. محمد فؤاد شكرى
د. محمد احمد أنيس } : أوربا فى العصور الحديثة . القاهرة ١٩٥٦ .

المراجع الأجنبية

1 - Anthony, K., Catherin the Great.

2 - Armstrong, Lorenzo de Medici and Florence in the Fifteenth Century. 1896.

3 - Armstrong, E., The Empror Charles V. 2 vols. 19٫2.

4 - Armstrong, E., The French Wars of Religion.

5 - Bax, E. B., The Peasant War in Germany.

6 - Block, P.J., History of the People of Netherland.

7 - Bridge, J.S.C., A History of France from the death of Louis XI.

8 - Cox, T., The Renaissance in Europe (1400 - 1600) 1933

9 - Dodge, T.A., Gustavus Adolphus.

19 - Froude, J.A., Life and Times of Erasmus.

11 - Froude, J.A., History of Fngland.

12 - Gardner. S.R, The Thirty Years Wars.

13 - Graham, S., Peter the Great.

14 - Hallendorff and Schuck, History of Sweden 1929.

15 - Hume, M.A.S., The Year after the Armada. 1896.

16 - Kluchevsky, History of Russia. 1911–1922.

17 - Lavisse et Rambaud, Histoire Générale.

18 - Léwis, D.B., Charles of Europe.

19 - Lindsay, T.M., Luther and the German Reformation.1900

20 - Merriman, R B., The Rise of the Spanish Empire

21 - Morfill, W.R., Poland. 1893.

22 - Neale, J.E.' Queen Elizabeth. 1934.

23 - Nowak, Medieval Slavdom and the rise of Russia.

24 - Ogg, D., Europe in the Seventeenth Century 1929.

25 - Perkins, France under Mazarin.

26 - Platonov, S., History of Russia.

27 - Rambaud, Histoire de la Russie. 1884

28 - Ranke, The Ottomam and the Spanish Empire in the 16 th and 17 th Century.

29 - Robinson,H., The Development of the British Empire.

30 - Romier, L., The Origines Politiques des Guerre de Religion.

13 - Smith. P., The Life and Letters of Martin Luther.

32 - The Cambridge Modern History.

33 - Trevelyan, England under the Stuarts.

34 - Vickers, England in the Later Middle Age. 1913.

35 - Villari, P., Life and Times of Girolamo Savonarola 2 vols. 1897—8.

36 - Von Ranke, L,. History of the Popes. 1847.

37 - Ward, A.W., The Co unterReformation.

المحتويات

صفحة

الفصل العاشر

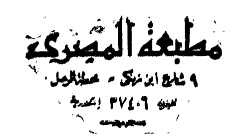
التطور الدستورى فى انجلترا

الفصل الحادى عشر

ظهور روسيا القيصرية

الفصل الثانى عشر

نشأة بروسيا ونموها


مطبعة المصرية
٩ شارع ابن زكي - محطة الرمل
تليفون ٣٧٤٠٦ إسكندرية